دكتور محمد فؤاد حجازى

النظريات الاجتماعية



مكتبة وهبة

كتب للمؤلف:

- الأسـرة والتصنيـع .
- التغيـر الاجتمـاعى .
- البنـاء الاجتمـاعى .
- النظريات الاجتماعية .




محمد خطاب

دكتور محمد فؤاد حجازي







النظريات الاجتماعية

دكتور/ محمد فؤاد حجازي

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

الطبعة الثامنة مزيدة ومنقحة

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة

٢٤٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع ١٦٥٥٠ / ٨٠

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-7335-04-0



دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

فؤاد حجازي، محمد

النظريات الاجتماعية/ محمد فؤاد حجازي.-

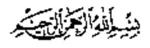
القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١١.

٢٤٠ ص، ٢٤ سم.

تدمك ٠ ٤٠ ٧٣٣٥ ٩٧٧

١- البحوث الاجتماعية

أ- العنوان



شكر وعرفان

إلى من نادى المؤمنين:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

إلى من بفضله يوفق العاملين إلى العمل..

إلى من لا يضيع هذا العمل ويجزى به..

إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور...

إلى ربي الذي أحسن مثواي..

فله الفضل والحمد على توفيقه

دكتور

محمد فؤاد حجازي




MOHAMED KHATAB

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعتبر الكتابة عن النظريات الاجتماعية من أصعب وأدق الموضوعات فى علم الاجتماع، فالنظريات الاجتماعية تحاول أن تصل إلى مستويات النظرية فى العلوم الطبيعية، بل يمكن القول أن النظريات الاجتماعية فى محاولاتها تلك تتشبه وتوزن بمستويات العلوم الطبيعية، ولكن الملاحظ فى النظرية الاجتماعية أنها تعانى من عدم الاتفاق بشكل واسع ليس فقط حول المنهج فى البحث الاجتماعى، ولكن أيضا حول طبيعة نظامها، وكذلك تعانى من دور الأحكام الأيديولوجية.

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على قبول علم الاجتماع أكاديميا، فإنه مازال فى مرحلة ماقبل النموذج، ذلك يعنى أنه لايوجد نموذج للتجارب العلمية أجمع عليه علماء الاجتماع فأصبح نموذجًا يحتذى، ولهذا يتوقع الإنسان نظريات عديدة ومتنافسة، وإن كان هذا لايعنى عدم وجود بعض المدارس الاجتماعية المتعاونة التى تهدف إلى التقدم نحو القيام على أسس تجريبية ذات أهمية جوهرية تدفع بالنظرية فى علم الاجتماع إلى الاقتراب من شقيقتها فى العلوم الطبيعية، ولكن حتى الآن يمكن أن نقرر دون خطأ يذكر أنه ليس هناك نموذج نظرى استطاع أن يحوز على إجماع علماء الاجتماع، أوحتى يكتسب السيادة على سائر النماذج، إذ أنه حتى الآن لايوجد فى الحقل الاجتماعى منظور نظرى استطاع أن يحيط بمسألة اجتماعية تعلو على الزمان، أى قانون له صفة الدوام كقولنا فى العلوم الطبيعية: المعادن والسوائل والغازات تتمدد بالحرارة.

وإن كان كثير من علماء الاجتماع يلمحون إلى أن التنظير أمر ثابت كنشاط مستقل عن العلوم الطبيعية وقائم على منهج علمى، فهم يرفضون الزعم القائل بأن علم الاجتماع غير قابل للتنظير، وكل مافى الأمر أن العلم مازال يشق طريقه بين متغيرات صعبة تعوق نموه.

وغني عن البيان أن مايراد باصطلاح النظرية الاجتماعية في علم الاجتماع هي محاولة التمييز بين مجرد نظرات أو تأملات مقبولة، وبين فروض قابلة للاختبار بدقة طبقاً لمعايير ذلك النوع المشتق من النظريات العلمية الناجحة، وفي الحقيقة أنه يوجد في داخل الحقل الاجتماعي بعض المنظرين الاجتماعيين يجاهدون من أجل إثبات أن النظريات السسيولوجية هي نظريات مقبولة علمياً، وأيضا يجاهدون في صياغة فروض يمكن اختبارها بدقة تجريبياً، وفي هذا الشأن تواجه أولئك المنظرين صعوبات جمة، وأهمها مايسمى بمشكلة العلية أو السببية causal problem ، وتنبعث هذه المشكلة من مجموعتين مختلفتين من المشاكل، الأولى ذلك الموضوع العام الذي يتلخص في السؤال الآتي: هل يمكن الحديث عن الفعل الإنساني عند المستوى الفردي «مستوى الوحدات الصغرى» أو عند المستوى الاجتماعي «مستوى الوحدات الكبرى» على أن هذا الفعل له علة أي له سبب؟ والسؤال الملازم السابق هو: هل الوصف والشرح للسلوك الإنساني لا يتطلب استخدام لغة القصد بمعنى هل السلوك الإنساني مقصود أكثر منه معلول؟ أما المجموعة الثانية من المشاكل فتتلخص فيما إذا كان الفعل الإنساني يبلغ من التعقيد إلى درجة يستحيل معها التحليل العلى Causal analysis .

وفي الحقيقة أن الاستخدام العادي لكلمة سبب أوعلة cause يحدث بطرق مختلفة في مقابل مجموعة من الظروف الأولية المعقدة، وهنا ماذا يمكن اعتباره ظرف وماذا يمكن اعتباره سبب؟ ذلك كله عادة يتوقف على الاهتمام العلمي للباحث، على أي حال هذه الصعوبات التي تواجه عالم الاجتماع وخاصة مشاكل العلية المركبة، والأسباب المتعددة، والأسباب غير القابلة للتحديد، والاعتماد المتبادل، وتفاعل المتغيرات العلية، لم يعد كل هذا عوائق لعلم الاجتماع، فقد استطاع العلم أن يعبر هذه المرحلة، فإلى جانب هذا التراث الضخم من النظريات الشاملة لظروف واتجاهات واسعة والنظريات الجامعة لعوامل غير متجانسة، ومجرد تقارير عن ارتباطات إحصائية يساندها تفسيرات جيدة، فما زال علماء الاجتماع يكافحون في مجال النظرية، فإلى جانب النماذج العضوية لسلوك الإنساني التي تتميز باستخدام مفاهيم التوازن، يوجد أيضا نظريات عامة تبحث عن حلول

تجريبية للجدل حول الصـراع والاتفاق العام أي «الاجتماع Consensus»، وأخرى تعمل على إبراز القضايا السسيولوجية في شكل يشبه القانون، ومتغيرات اجتماعية يربط بينها علاقات علية، وأخر تعـمل على الكشف عن العلاقات الشبه علية بين المتغيرات الكثيفة مثل الثقافة والاقتصاد.

ولكن الصعوبة الكبرى التي تواجه عملية التنظير في علم الاجتماع لاترجع إلى طبيعـة العلم بقـدر مـاترجع إلى المنظرين أنفـسـهم الذين يسـتـسلمون لـلقهـر الأيديولوجي، ويصبح كل فـريق منهم فرح بما لديه من فكر، بل قـد يصل الحال ببعض المنظرين إلى الـوقوع أسرى ماأقـاموه هم من فكر، والبعض الآخـر أسرى مصـالحهم، ذلك يرجع إلى أن علم الاجتماع عندما يتعامل مع المجتمعات الإنسانية هو يتعـامل مع الجماعات الاجـتماعيـة بالدرجة الأولى، حيث تتضـارب المصالح الضيـقة والقـصيـرة، وأعني بالضيـقة أي الخـاصة بجـماعة دون أخرى، وأعني بالقصيرة قصر نظر الجماعات لسعيها وراء العاجلة، ذلك كله يرجع إلى جهل هذه الجماعات بطبيـعة هذا العلم الذي يسعى للكشف عن الحقيقة الاجتماعية، والتي لقصر النظر تعمل كل جماعة على أن تخرج تلك الحقيقة ملتوية لتؤيد مصالح هذه الجمـاعة أو تلك. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على جهل هذه الجمـاعات المتصارعة بأهمية هذا العلم وما يمكن أن يقدمه من خير للجميع، ذلك إذا شجعت المجتمعـات العلماء في هذا الحقل بغض النظر عن المصالح المتضاربـة مثلما فعلت المجتمعات مع العلوم الطبيعية، لتعرف هذه الجماعات الحقيقة الاجتماعية، وأعني بها هنا الغرض من هذا الاجتماع البشري ووسائل إنمائه حتى تنعم البشرية بخيرات الطبيـعة والعلم، وتسـود بيننا الأخوة الإنـسـانية فنتـنعم بمعاني الأخوة مـن الوفاق والتعاون والحب.

والله ولي التوفيق..

دكتور

محمد فؤاد حجازي



الفصل الأول

فى معنى النظرية

- النظرية والواقع
- تعريف النظرية
- بناء النظرية
- صفات النظرية
- أنماط النظرية
- ظروف التنظير



في معنى النظرية

النظرية والواقع

يذهب كثير من الناس إلى القول بأن هناك هوة سحيقة بين النظرية Theory والواقع، إذ يعتبر الكثيرون أن النظرية شيء تجريدي ومبهم وغامض، بل وحديث يتكلم فيه الفلاسفة، ومن ثمَّ فالنظرية ليس لها علاقة بالواقع، ذلك الواقع الذي ينظر إليه الناس على أنه عملي وجزء من الحقيقة، ويختص بشئون الحياة اليومية.

هذه الفكرة خاطئة من أساسها، وفيها شيء كثير من التجني على الحقيقة، فإذا نظرنا إلى حقيقة العلم ومضمونه نجد أن العلم ماهو إلا منهج لتسجيل الخبرات البشرية والروابط على أسس عقلية بين عناصرها، وتعتبر النظرية مجموعة من هذه الروابط العقلية تستخدم لتفسير وشرح كيف تعمل ظاهرة معينة.

بل وربما كان الربط بين الظواهر هو المهمة الأولى للعلم، فإنه لايقتصر على جعل معرفتنا المشخصية قابلة للتعامل معها بطريقة منظمة؛ بل تمتد إلى تنمية معرفتنا الحاضرة والمستقبلة، وماهوأهم من ذلك أنها تكشف عن وحدة حقيقة وراء خبرتنا، التي تظهر لأول وهلة أنها متفرقة أو متباينة، بل وكثيراً مايضحي العلماء بآرائهم السابقة من أجل تحقيق الربط العقلي بين ملاحظاتهم، فهم يخشون الأشياء المبعثرة أكثر من خشيتهم للأشياء المبهمة، بل عادة ما يتصرف العلماء حتى عن مشاهدة واضحة من أجل إنقاذ ارتباط عقلي من الانهيار[1].

والمقصود بالربط العقلي Rational correlation هو عملية التفسير، أو يعني العلاقة المنطقية بين الظاهرة موضوع البحث وبين ظاهرة أخرى أو مجموعة من الظواهر سواء أكان هذا الربط مباشراً أو غير مباشر، فمحاولة الربط بين الظواهر كما يمارسها العلم تقوم على أسس عقلية كالمقارنة، واستنباط أوجه الشبه الشكلية، وإمكان القيام بمدد من المشاهدات والتجارب للتأكد من ثبات الارتباط، وكذلك يلاحظ أن الربط العقلي

---

(1) Dingle, Herbert: "Science and Human Experiences pp. 14-16.

أيضا يمثل الأساس فى قدرتنا على التنبؤ، ذلك أننا إذا استطعنا أن نكشف عن ارتباط دائم بين أ، ب فإننا كلما شاهدنا أ أمكننا أن نتنبأ بحدوث ب.

وهكذا نرى أن النظرية هى شىء لصيق بالواقع العملى والحياة اليومية، إذ من خلال ماسبق تمثل النظرية الأساس لكل أجزاء المعرفة الإنسانية، وأساس للتفسير اليومى الذى يقوم به الفرد للظواهر الاجتماعية والطبيعية، إن مثل هذه التفسيرات اليومية متضمنة فى الملاحظات العملية، أى فيما نلاحظه يوميًّا ونحاول تفسيره أى فهمه، ثم إذا نظرنا إلى عملية التنظير Theorizing نفسها وهى ما نعنى به «تكوين وتحسين الشروح التفسيرية» نجد أنها عملية يقوم بها الإنسان بصفة دائمة ذلك أنها عملية أساسية للمعرفة العملية والتأثير المتبادل الاجتماعى أى التفاعل الاجتماعى اليومى.

وهكذا سواء يحاول عالم الطبيعة شرح بناء خلية، أو أب يحاول مساعدة ابنه فى فهم لماذا لا يجب أن يكذب أو لماذا يجب أن لا يغش، ففى كل حالة من هذه الحالات يحاول الأب أن يشرح ويفسر مايمكن أن يحدث من اضطراب فى العلاقات الاجتماعية نتيجة للكذب أو الغش، فالأب هنا يكون قائما بعملية التنظير «تكوين وتحسين الشروح التفسيرية». فالنظرية إذن متضمنة كل هذا بطريقة ما، بمعنى مجموعة من العلاقات المترابطة عقليا بين بعض خبراتنا البشرية.

ولهذا يمكن أن نلاحظ أن النظرية متضمنة فى العلاقات المتبادلة بين الأشخاص، وفى بناء لغة الإنسان، وفى المجهودات العلمية الإنسانية، ذلك أن الناس عادة يميلون إلى تحليل وتفسير بيئتهم الاجتماعية والطبيعية.

وبهذا الأسلوب يرتبط الفرد بالعالم الطبيعى والمجتمع من خلال مجموعة مركبة من المقولات التى تحاول تفسير كيف تعمل الظواهر، وهكذا سواء أكنا نتعامل مع أى جانب من جوانب الحياة طبيعى أو اجتماعى، فنحن نجد مجموعة من التفسيرات المحلية فى داخل متن وضعية اجتماعية معينة، أى ثقافة اجتماعية معينة، التى تعلل وتوضح وتفسر مايحدث، فتفسير ظاهرة المطر فى ثقافة بدائية يختلف تماماً عن تفسير نفس الظاهرة فى ثقافتنا، وبالمثل فى المجال الاجتماعى فنظرية فى الاقتصاد فى ثقافة غربية أو شيوعية تختلف تفسيراتها عن نظرية فى ثقافة إسلامية.

تعريف النظرية

تقدم النظرية الاجتماعية مجموعة من الافتراضات التي تهتم بالمجتمع والظواهر الاجتماعية، على أساس أن المجتمع وظواهره له واقعه الاجتماعي المنفصل عما عداه من الظواهر، ولقد بذل دوركايم Durkhiem جهدًا كبيرًا من أجل تحقيق هذا الهدف، وأصبحت هذه الحقيقة مسلمة يأخذ بها كل علماء الاجتماع[1].

ومن ثمَّ فالنظرية الاجتماعية تقف في تضاد مع أنساق التفكير المبكرة التي كانت تتسم بالأسطورة والثيولوجية والطبيعية عند شرحها وتفسيرها للظواهر الاجتماعية، فالنظرية الاجتماعية الحديثة تقوم على أساس وجود النسق الاجتماعي كذات مستقلة في تعارض مع الظواهر الميتافيزيقية أو الثيولوجية، ومن ثمَّ يمكن اعتبار أن النظرية الاجتماعية نشأت لتبرز تطور ونمو نسق جديد من التفكير الذي حلت فيه فكرة واقعية المجتمع والحقيقة الاجتماعية محل التفسيرات الميتافيزيقية، التي كانت سائدة حتى منتصف القرن التاسع عشر، ومن ثمَّ صاغ المنظرون Theorists مفاهيما عن الحقيقة الاجتماعية واستخدموها في شرح الظاهرات الاجتماعية.

وهكذا أصبحت النظريات الاجتماعية تقدم مفاهيما عن النظام الاجتماعي والحالة التي فيها يتغير، أي تقدم مفاهيما عن بناء المجتمع والعمليات الاجتماعية Social Process، فإذا كانت النظرية هي مجموعة من الافتراضات التي تحاول شرح وتفسير العلاقات بين الظواهر الاجتماعية.

فطبقًا لذلك تصبح النظرية الاجتماعية عبارة عن قضايا تجريدية ومنطقية مصاغة في شكل مفاهيم اجتماعية.

ولكن ليست النظرية الاجتماعية هي مجرد مجموعة من المفاهيم الاجتماعية المتراصة عشوائيًا، ولكن عندما يكتشف المنظر Theorist بعض المفاهيم النظرية

---

(١) إميل دوركايم «قواعد المنهج في علم الاجتماع» ترجمة دكتور محمود قاسم- مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ ص ٣١، ٤٨.

Theoretical concept يتجه إلى الربط بين اثنين أو أكثر في شكل تقارير Statements عن الحياة الاجتماعية.

ذلك أنه مهما حاولنا ومهما بلغنا من الدقة في وصف ظاهرة اجتماعية بمفهوم علمي، إلا أننا لا نستطيع استخدام ذلك المفهوم للشرح أو التنبؤ. ولكي نستطيع الشرح أو التنبؤ نحن في حاجة إلى تقرير نظرى Theoretical statement، أى ارتباط بين اثنين وأكثر من المفاهيم، فمثلاً بمجرد أن نفترض Hypothesize «أنه كلما زادت درجة تركيز التنظيم كلما زادت الكفاءة الإنتاجية»[1] على حد قول فيبر، أو مثلاً «كلما زادت كثافة السكان زاد تقسيم العمل»[2] على حد قول دوركيم، أو «كلما زادت حدة التدرج الطبقى كلما زاد الصراع» على حد قول ماركس، أو «كلما زاد الصراع زاد التكامل الاجتماعي» على حد قول سمل Simmel ونلاحظ أنه في هذه التقارير نحن تحركنا من مجرد الوصف إلى شكل من أشكال التنبؤ.

يلاحظ أن هناك عدد من الأسماء والمفاهيم التى تشيع الاضطراب والحيرة حول اصطلاح التقرير النظرى من بين تلك المصطلحات الفرض، Hypothesis، والقضية Proposition، والبديهية Axiom، مسلمة postulat، وافتراض Assumption، وربط Corollary، وفي الحقيقة أن كل منهم له وقع ملائم في المعنى، فكل منهم يشير إلى نوع معين من التقارير النظرية، ولكن نوع دائما أبدا غير واضح، فمثلاً أشار زتربرج Zetterberg[3] إلى أن الفرض هو تقرير نظرى غير مثبت، بينما القضية مثبتة ومبرهنة بالدلائل.

وبالمثل تعمل كثير من المفاهيم على إبهام وغموض اصطلاح النظرية، ذلك أن هذه المفاهيم لها علاقة بالموضوع، ولكن ينقصها قوة التفسير، مما يجعل الأمر يختلط على كثير من الدارسين. وأهم تلك المفاهيم التى لها علاقة بالموضوع هي الوصف

---

(1) Weber, Max: "The Theory of Social and Economic Organization trans. by Henderson and parsons Glencoe, Free press. 1947.p.377.

(2) Durkheim, E.: "The Division of Labor in Society" trans. by Simpson, Glencoe III, Free press, 1933. p.256-282.

(3) Zetterberg, Hans L. "Social Theory and Social practice" Totowa, New J., Bedminster press. 1963.

description، والتنميط Typology، والنموذج Model، والتنبؤ prediction.
ومما يزيد الأمر صعوبة أنه من الصعب أن نجد تعريفًا للنظرية قد اتفق عليه علماء الاجتماع. ومن ثَمَّ أصبح من الضروري التمييز بين تلك المفاهيم السابق ذكرها حتى يتضح لنا تمامًا معنى النظرية، وإبراز الصفات الأساسية للنظرية. الوظيفة الأولى والأساسية لأي نظرية هي محاولة شرح أو تفسير علاقة الظاهرة موضوع البحث وظاهرة أو ظواهر أخرى، أي أن الوظيفة التفسيرية هي التي تميز النظرية عن تلك المفاهيم التي لها علاقة بموضوعنا، ولكن ليس لها صفة تفسيرية.

فمثلاً لو أخذنا مفهوم الوصف فإنه يشير إلى تبيان صفات ظاهرة معينة دون أن يفسر وجودها أو تغيرها، فوصف لثقافة فرعية معينة مثل زنوج وسط إفريقيا لايفسر علة وجود مثل هذه الثقافة، ولا يشرح التطور والتغير في تلك الجماعة.

وأيضا يقوم التنميط مجموعة من المميزات يقال إنها تشير إلى ظاهرة معينة أو أنها صورة طبق الأصل منها. فمثلاً تنميط للأسرة كأسرة نووية أو ممتدة لا يشرح أو يحلل شيئًا في داخل مثل هذه الوحدة الاجتماعية.

وكذلك النموذج، وإن كان ينظر إليه في بعض الأحيان كالتنميط، فإنه عادة يقوم أساس ملاحظات تجريبية، فمثلاً نموذج للمجتمع الصناعي المتقدم في المستقبل يمكن أن يكون مفيدًا، ويمكن أن يكون مقامًا على أساس بيانات تجريبية، ولكن لا يفسر التطور أو يفسر بناء ذلك المجتمع أو العمليات الداخلية في مثل هذا المجتمع أي النموذج المقترح، أي أنه ينقصه القوة التفسيرية.

وبالمثل التنبؤ، يعني القابلية للتنبؤ، مثلاً أين سيقف فرد ما فيما يختص بالمتغير «أ» عن طريق معرفة موقعه على المتغير «ب» هذا التنبؤ أقيم على أساس علاقات تجريبية سابقة لوحظت بين هذين المتغيرين. فمثلاً يمكن لمدرس أن يكون قادرًا على التنبؤ بدرجات طلابه من خلال منجزاتهم على مدار العام الدراسي، بل وبدرجة عالية من الصحة، دون أن يكون هذا المدرس قادرًا على تفسير العلاقات، أي لا يستطيع هذا المدرس أن يفسر مثلاً حصول طالب معين على درجة عالية في مادة معينة، وتزداد صعوبة التفسير إذا كان التنبؤ يتعلق بحصول طالب على درجة عالية في مادة وحصل في نفس الوقت على درجة منخفضة في مادة أخرى. ومن هذا

يتضح أنه مهما كانت الارتباطات التجريبية عالية، فإن قدرة هذا المدرس على تفسير هذه العلاقات قد تكون في أدنى صورها. وهكذا قد يكون الباحث قادرًا على تنمية مستويات أعلى من احتمالات التنبؤ دون أن يكون لديه قدرة تفسير هذه العلاقات. ومن ثمّ يمكن أن يكون لدينا قدرة تنبؤية عالية وفي نفس الوقت قدرة تفسيرية أقل، والعكس صحيح، وهكذا يمكن القول أن التنبؤ لايقدم بأي حال نظرية أو شرحًا لها. فالوقائع لا تتكلم عن نفسها، ولهذا فلابد من شرحها أو تفسيرها.

وإن كانت كل هذه المصطلحات أو المفاهيم التي سبق ذكرها هي أجزاء من بناء النظرية فإنها لاتفسر الظواهر التي تشير إليها. إن تلك القوة التفسيرية هي التي تعتبر الخاصية الأساسية للنظرية، فالوظيفة الرئيسية للنظرية هي تلك القدرة التفسيرية التي تملكها.

هذه القدرة التفسيرية هي التي تميز النظرية أو القانون سواء في مجال الظواهر الاجتماعية أو النفسية أو الطبيعية، فيذهب كارل بيرسون K. Pearson إلى أن «القانون العلمي ليس مجرد تتابع للظواهر أو الانطباعات الحسية أي أن قوانين الطبيعة ليست هي نفسها الظواهر الطبيعية في تتابعها كما أنها ليست مجرد وصف لهذه الظواهر، فقد أصف كثيرًا من الظواهر دون أن يتضمن حديثي أي قانون علمي، ولكن إذا أردت جعل حديثي يتضمن الحديث عن قانون علمي، فعليّ أن أعقد مقارنات بين عدة نظم لتتابع الظواهر والانطباعات الحسية، ثم أنتقل بعد ذلك إلى عمليات التصنيف Classification والتعميم Generalization، فإذا ذكرنا التصنيف والتعميم، ذلك يعني ضرورة الاستعانة بمفاهيم من صنع العقل البشري. ومن ثمّ فقوانين الطبيعة تتضمن الربط بين الانطباعات الحسية المباشرة وبين المفاهيم، وبدون الربط بين هذين الطرفين فلا وجود لهذه القوانين»[١].

ونرى ذلك واضحًا في كثير من تعريفات علماء الاجتماع، فمثلاً يذهب بلالوك Blalock في كتابه بناء النظرية إلى أن «النظرية لاتتكون كلية من جداول من مفاهيم وتنميطات ولكن لابد أن تحتوي قانونًا مثل قضايا تربط بين مفاهيم أو متغيرات سواء

(1) pearson, Karl: "Grammar of Science" Chap. 4.

اثنين أو أكثر في وقت واحد» [1]. كما يذهب جبس Gibbs في كتابه بناء النظرية الاجتماعية إلى أن «النظرية هي مجموعة من الشروح أو البيانات المرتبطة منطقياً في شكل تحقيقات أمبيريقية حول خواص فئات لانهائية من الوقائع أو الأشياء» [2]. كما يذهب رينولدز Reynolds إلى أن «استعمال مصطلح نظرية يشير إلى حالات تجريدية تعتبر جزءاً من المعرفة العلمية سواء أكانت مجموعة من القوانين أو المسلمات أو أشكال العمليات السببية» [3]. وكذلك يذهب ويلر Willer إلى أن «النظرية هي مجموعة من العلاقات المتكاملة ذات مستوى معين من الصدق» [4].

يلاحظ أن هؤلاء المؤلفين يركزون على نواحي مختلفة من النظرية، إلا أنه يمكن ملاحظة عدد من الصفات العامة في أقوالهم تلك مثل التجريد والمنطق، والقضايا، والشرح، والعلاقات، والمقبولة من المجتمع العلمي. وعند هذه النقطة يمكن وضع تعريفنا للنظرية وهو أنها «مجموعة من القضايا التجريدية والمنطقية التي تحاول شرح وتفسير العلاقات بين الظواهر موضع الدراسة».

ومما سبق يمكن ملاحظة أن أساس أي نظرية هو ذلك النموذج الذي تقدمه كتفسير للحقيقة الاجتماعية أو الطبيعية. وعادة مايتكون هذا النموذج من عنصرين:

١ - مفهوم Concept عن الظاهرة المشروحة، مثلاً يمكن النظر إلى المجتمع كمجموعة من النظم المتساندة.

٢ - افتراضات Assumptions توضح العلاقات السببية، مثل النظرة التي تعتبر أن البناء الاجتماعي يتطور في استجابة لحاجات النسق أو الوظائف الأساسية للمجتمع.

***

---

(1) Blalock, H.M: "Theory Construction, From Verbal to mathematical Formulations" prentic-Hall, Englwood Cliffs, N.J. 1969. p.2.

(2) Gibbs,J.: "Sociological Theory Construction" Dryden press, New York,1972.p.5.

(3) Reynolds, p.D.: "A primer in Theory Construction" Bobbs-Merrill, Indianapolis, 1971. p.11.

(4) Willer, D.: "Scientific. Sociology, Theory and Method" prentic-Hall Englewood Cliffs, New Jersy, 1967.p.9.

بناء النظرية

أولاً: صفات البناء

١- نموذج النظرية:

الأســاس لأى نظرية هو النمـوذج الذى تبـرزه، والذى عـرفنا أنه يتـركب من صياغـة مفاهيم معـينة عن الظواهر المشروحة، والعلاقـات التفسيريـة الهامة التى توضح وتحلل حالة الظواهر عند عـملها وتفاعلهـا، وهكذا تكون الظواهر موضع البـحث قد تم تعـريفهما من خلال مـفاهيم مـحددة، وفى نفس الوقت وضـعت الافتراضات عن وجود عـلاقات سببية، وتستخدم محـتويات هذه العلاقات فى شرح الظواهر موضع الدراسة. وإذا نمى نموذج بدرجة عالية وراء مستوى الفروض البسـيطة، قد يصبح نموذجًا من العلاقات التى تمثل الأسـاس لبـناء نـظـرية، وفيـما يلى أمثلة عـلى النـمـاذج النظـرية «إطـار العـمـل الوظـيـفى البـنـائى The Structure- Functional Framework اتجاه الصراع The Conflict Oriantation».

٢- المفاهيم:

يتـضـمن أى نموذج مـفاهيم مـعينـة، وهى عبـارة عن اسم أو عنوان لفئـة من الظواهر مثل «الشخصية personality، والطبقة الاجتماعية Social Class، وتغير اجتماعى Social Change»، وهذه المفاهيم تحتاج إلى عنـاية فائقة فى تحديدها، وأن توضح بدقة علاقاتها بالنموذج الموضوع.

٣- العلاقات المنطقية بين المفاهيم:

تحتاج العلاقـات المنطقية بين تلك المفاهيم إلى التأكيـد، بمعنى أن تكون مترابطة منطقـياً ونظريـاً، ومـسـتـوى وشكل تلك العلاقـات يميل إلى التبـاين، فقـد تكون بديهيات أى مسلمات Axioms، وهى تعتبـر قضـايا يفترض أنها صـادقة بذاتها، وقضـايا Propositions وهى عبـارة عن تقارير عن العـلاقات تكون مـشـتـقـة من مسلمات أو فروض Hypotheses أى تقارير Statements من العلاقات بين المفاهيم فى شكلها أثناء العمل، بمعنى محتوياتها التجريبية.

وقد تكون تلك العلاقات المنطقية بين المفاهيم، إيجابية أو سلبية أو مستقلة كل من الأخرى.

وأخيراً يعتمد بناء النظرية على ماتحتويه من أنواع حالات العلاقات، وعلاقة كل منها بالأخرى، وهكذا يمكن أن تكون نظرية مسلمية Axiomatic في بنائها «مجموعة من القضايا المحددة»، أو يأخذ بناء النظرية شكل قضايا «أي مجموعة من القضايا مشتقة من مسلمة».

ويلاحظ أنه لايمكن النظر إلى مجموعة من الفروض المترابطة كنظرية عند غياب مسلماتها وقضاياها الأساسية، إذ تكون غير كاملة.

٤ - الإجراءات:

ومن ثمّ تحتاج المفاهيم وحالات العلاقات إلى أن تعرف تجريبياً أو إجرائياً في شكل متغيرات Variables، مثل اختبارات الشخصية، ومقاييس الطبقات الاجتماعية، والمقاييس الديموجرافية لنسق اجتماعي، ومقاييس معدلات الحراك الاجتماعي. والمقاييس السوسيو اقتصادية للتغير الاجتماعي، والبناء التنظيمي للتنظيم. وعادة يتضمن كل متغير عدد من المحتويات التجريبية يحددها ويعرفها نوع أداة البحث مثل علامات على فقرات خاصة من استمارة البحث التي اختارها الباحث.

٥ - المنهج:

وتتركب المرحلة التالية من منهج تجريبي لاختبار الفروض، بمعنى اختبار العلاقات التي افترض الباحث وجودها بين المتغيرات والمحتويات. وقد يتكون هذا المنهج من مسح للرأى العام، أو ملاحظة مشاركة، وبيانات مقابلة، أو المعدلات الرياضية للبيانات السكانية، أو تجارب الجماعات الصغيرة.

ويلاحظ أن ذلك المنهج يميله إلى حد بعيد نوع المتغيرات المشتقة من بناء النظرية ويحدده ذلك البناء، ولا يمليه أى فكرة مسبقة تم تكوينها عن المنهج.

ربما كان المنهج المستخدم فإن فاعليته مقيدة بأنواع العينات المتاحة، وقدرة الباحث على قيادة البحث، وأيضا أخطاء القياس وخطأ تحليل البيانات.

٦- تحليل البيانات:

فإذا ماجمعت البيانات فإنها تحتاج إلى تحليل فى ضوء الفروض الأساسية فى النظرية. وعادة هذا التحليل يتركب من استخدام التكنيك الإحصائى لبيين مستويات الاتفاقات، والدلالات الإحصائية. أما إذا استخدمت بسذاجة أو أسيئ استخدامها، فهذه الاختبارات قد تؤدى إلى أخطاء بالغة.

ويلاحظ أن عملية تحليل البيانات تعتمد كلية على نوع العينات والبيانات المجموعة.

٧- تفسير البيانات:

عند إتمام تحليل البيانات، فإنه على الباحث المتقدم إلى تفسير نتائج البيانات فى ضوء بناء نظريته، من ناحية نموذجها الأساسى ومسلماتها وقضاياها وفروضها.

وبما أن المناهج والاختبارات التجريبية وتحليل البيانات تقدم فقط اختبارات غير مباشرة لأسس بناء النظرية، فإن الباحث يحتاج إلى ان يكون شديد الحذر فى استخراج النتائج من بيانات محدودة، أنه من السذاجة الإفراط فى تقدير الأهمية النظرية لأى مجموعة من البيانات التجريبية. مهما كان اتساع مجالها.

٨- تقييم النظرية:

وأخيراً يبحث المنظر «الباحث» عن تقييم النظرية فى ضوء معيارين أساسيين:

(أ) كفاءة ومجال ومنطق بنائها النظرى.

(ب) مستوى قابليتها للاختبار والتنبؤ والدقة عندما تخضع للاختبار التجريبى. عند هذه النقطة يكون هناك عدد من البدائل الممكنة.

أما شطب النظرية كلية، أو تعديل نموذجها الأساسى أو تنمية مسلمات وقضايا وفروض أكثر، أو استخدام منهج جديد.

وليس معنى ذلك أن ييأس المنظر ولكن عليه أن يعرف أن عملية التنظير هى عملية مستمرة وديناميكية، وتتكون من تغيير وتعديل مستمر.

ثانيًا: عملية إنشاء النظرية

١- الخطوة الأولى هي تحديد العلاقات العلية التي تسميزها النظرية، فنموذج النظرية يجب أن يكون واضحًا بأكبر قدر ممكن، وخاصة العلاقات العلية التي يتضمنها النموذج والتي يفترض أنها أدوات التفسير. ومن ثَمَّ يعتبر تحديد هذا النموذج من العلاقات المفترضة «مسلمات- قضايا» هو الخطوة الأساسية والكبرى في عملية التنظير.

٢- الخطوة الثانية تتضمن تعريف المفاهيم في النموذج تعريفًا كاملاً بقدر الإمكان «التعريفات الإجرائية». ويلاحظ أنه كلما كانت معاني المفاهيم تميل إلى أن تكون مفترضة أكثر منها معرفة ومحددة بدقة، تقود مثل هذه الافتراضات إلى الغموض وربما الفوضى.

٣- العلاقات المنطقية بين تلك المفاهيم التي يستخدمها نموذج النظرية تحتاج إلى تحديد في شكل مسلمات أو قضايا أي تقارير Statements.

٤- ثم تستخدم المفاهيم في شكل متغيرات، والعلاقات المنطقية بين هذه المتغيرات تستنبط من المسلمات والقضايا في شكل فروض.

٥- ثم يستخدم منهج ملائم لهذه المتغيرات لاختبار الفروض من خلال بيانات تجريبية ويستخدم هذا المنهج بدقة بأكبر قدر ممكن لاختبار الفروض تجريبيًا.

٦- ثم تحلل البيانات طبقًا للأساليب الفنية والإحصائية.

٧- فإذا ماحللت، يحتاج المنظر إلى تفسير أهمية النتائج بالنسبة إلى النظرية التي أنشأها. فقد تفسر النظرية على أسس من هذه النتائج، أو بالنسبة إليها، وذلك يعتمد على أسلوب إنشاء النظرية.

٨- وأخيرًا بعد إتمام الخطوات السابقة، يحاول المنظر تقييم النظرية إما على أساس أرضية نظرية أو أرضية تجريبية.

***

صفات النظرية

يتباين علماء الاجتماع فى درجة نظرتهم إلى النظرية الاجتماعية باعتبار أنها لارسمية وبالضرورة وصفية، أو رسمية وبالضرورة تفسيرية. فمثلاً روبرت نسبت R. Nisbet يرى علم الاجتماع على أنه «شكل من الفن Art form والذى يصنع تقدمه المظيم خلال عمليات خلاقة والمواضيع التى تشارك بدرجة كبيرة مع الفن»[١].

ويتبنى س. رايت ميلز C.Wright Mills نظرة مشابهة فى وصفه الرجل الحرفى الكلاسيكى Classic craftsman، الذى يستخدم الخيال السيسولوجى Sociological Imagination، ومتأرجحا بين مفاهيم الوحدات الكبرى Macroscopic conceptions، والعروض التفصيلية، ومركزا على بناء المجتمع ككل، وتطوره التاريخى، وأنماط التفضيل عند الناس والسائدة فى المجتمع فى مرحلة معينة من تطوره [٢].

ويذهب دون مارتندل Don Martindale إلى أن علم الاجتماع هو «علم الحياة الداخلية للإنسان»[٣]، بينما نقولا تيماشيف N. Timasheff فى كتابه المشهور عن النظريات يقرر ان «علم الاجتماع يعنى دراسة المجتمع على مستوى عال جداً من التعميم والتجريد»[٤].

أما روبرت ميرتون R.K Merton فهو يحاول أن يعبر تلك الفجوة بين العمومية المفرطة والمستويات المحددة للتحليل باستخدام نظريات متوسطة المجال

(1) Nisbet, R.A. ; "Sociology as an Art Form" pacific Sociological Review, 5:67- 74, 1962.

(2) C.W.Mills: "The Sociological Imagination" Oxford University press, Bew York, 1959.

(3) Martindale, D.: "The Nature and Types of Sociological Theory." Houghton Mifflin. Boston, 1960.p.3.

(4) Timasheff. N.S.: "Sociological Theory.its Nature and Crowth" 3d ed, Random House. Bew York. 1967.p.4.

Middle - Range theories ويعني بذلك «مجموعات محددة من الافتراضات التي منها يشتق منطقياً فروضاً خاصة معينة ويعد ذلك تثبت وتؤيد البحث التجريبي». والعمل عند مستوى تحليل الجماعة «مثل الجماعة المرجعية ونظرية الدور». تحاول نظرية المدى المتوسط ربط الفرد بالبناء الاجتماعي من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية للفرد [1].

فالنظرية الاجتماعية طبقاً لهذه النظرية تركز في التحليل على الجماعة أكثر منه سواء على المستوى المجتمعي أو المستوى الفردي.

وهناك من علماء الاجتماع من يتشدد في الشكل العلمي للنظرية. ومن أكثر هؤلاء العلماء تشدداً جورج هامانز G.Homan، وزيتربرج H.L. Zetterberg.

فعند هومانز[2] تتركب النظرية من جدول من المفاهيم ومجموعة قضايا استدلالية، بعضها منها متلائم مع التجارب ومن ثمّ يمكن اختبارها، ويختم هومانز حديثه بقوله «هناك نظريات قليلة في علم الاجتماع... التي تتفق مع التعريف... عما يجب أن تكون عليه النظرية، سواء أكنا نتعامل مع نظريات معيارية أو لا معيارية او بنائية أو وظيفية أو سيكولوجية. وتعتبر النظرية الاجتماعية عند هومانز نضفاضة جداً وتحتاج إلى صياغة حتى يمكن أن تكون اهلاً لتسمى نظرية علمية.

أما زيتربرج فيعرض وجهة نظر يحاول أن تكون ذات شكل رسمي Formal، ومركزا على التحليل المنظم لأنماط العلاقات بين المتغيرات والقضايا في شكل استدلال من مسلمات، دراسته الاستدلالية من المسلمات للنظرية الاجتماعية وفي معيتها قواعد معينة للاشتقاق المنطقي من القضايا يقدم لنا زيتربرج إحدى الدراسات الأكثر رسمية للنظرية، وقد تبعه كثيرون من علماء الاجتماع المعاصرين، يحاولون الارتقاء بالنظرية الاجتماعية إلى أعلى درجات العلمية، أمثال بلالوك وجبس.

---

(1) Merton, R.K. : "On Theoretical Sociology" Free press, New York, 1967.

(2) Homans, G : "Conteroporary. Theory in Sociology" in :Hand Book of Modern Sociology" edit by Faris, Robert. Rand McNally and Co. Chicago. 1964. p.951 - 977.

من المناقشة السابقة يتضح لنا أن هناك مجال واسع من حيث الأراء المهتمة بصفات وخصائص النظرية الاجتماعية، ففي الطرف النهائي للنظرة اللارسمية نجد مليز وتسبت، اللذان يعتبران علم الاجتماع شكلاً من الفن الكلاسيكي أو الرجل الحرفي الكلاسيكي، بينما في الطرف المقابل نجد هومنز وزيتربرج يكافحان من أجل نظرية رسمية منطقية، ولعبور الفجوة بين الطرفين نجد ميرتون يقدم نظرية متوسطة المدى، التي تحاول ربط الفرد والبناء الاجتماعي عند مستوى الجماعة.

ولذلك يبدو واضحًا أن النظريات الاجتماعية تتباين فيما تركز عليه كل منها سواء من ناحية مستوى الدراسة «وحدات صغرى أو كبرى» أو رسميتها أوخصائصها. ويمكن تلخيص هذا التباين كالآتي:

١- رسمية ولارسمية Formal- Informal:

قد تكون النظرية من النوع العلمي الرسمي ذات البناء القائم على افتراضات علمية، أو قد تكون لا رسمية ونسبيًا ليس لها بناء ذي افتراضات متعلقة بالحياة اليومية، النظرية الرياضية، والنظرية في العلوم الطبيعية تميل إلى التطابق مع النمط الأول، بينما النظرية ذات الافتراض الوحيد والأيديولوجية تقع في الفئة الثانية.

٢- وصفية- تفسيرية Descriptive- Explanatory:

هناك نظريات يسودها الوصف، وينقصها نموذج تفسيري واضح، أو أنها تركز على وظيفة التفسير وتم بناؤها طبقًا لذلك، وإن كانت النظرية الوصفية قد تتضمن تفسيرًا، إلا أنها تفشل في تقديم أي تفسير إذا كان نموذجها الأساسي غير موجود أو غير واضح.

٣- أيديولوجية- علمية Ideological-Scientific:

محتوى النظرية قد يسوده أيديولوجية، أو أن يوجهه منهج علمي مع تركيزه على صياغة افتراضات تكون قابلة للاختبار التجريبي، وإن كان هذا التمييز هو مسألة درجة «ذلك لأن الطريقة العلمية قد تتضمن عناصر أيديولوجية».

إلا أنه من المهم تحديد الأهداف الرئيسية للمنظر من أجل تقدير القيم القابعة وراء العمل، ويلاحظ أنه لانظرية فى علم الاجتماع كاملة الموضوعية مهما بدا أنها موضوعية، إذ أنها دائما تتضمن عناصر أيديولوجية وإن كانت ضئيلة.

٤- ذاتية- موضوعية Intuitive- Objective:

تختلف أيضا النظريات فيما تدرسه من معارف ذات صفة ذاتية ويقابلها المعارف الموضوعية والخارجية، يدرس النوع الأول الأساطير والظواهر الشاذة بينما يتمسك العلماء بالنوع الثانى. فى علم الاجتماع يتضح هذا التمييز بين الوظيفيين البنائيين من ناحية، وعلماء السلالات البشرية من ناحية اخرى.

٥- استقرائية- استدلالية Inductive- Deductive:

قد تحاول النظرية التحرك من الخاص إلى العام أو العكس. ويسمى النوع الذى يتحرك من الخاص إلى العام بالنظريات الاستقرائية، أما التى تتحرك من العام إلى الخاص فتسمى استدلالية. فى علم الاجتماع تميل معظم النظريات إلى أن تكون استدلالية إذ تستخدم العام (مثل النسق الاجتماعى) على أنه المتغير المستقل فى أسلوب شرحهم، بينما معظم نظريات علم النفس وعلم النفس الاجتماعى تميل إلى أن تكون استقرائية.

٦- الوحدات الصغرى- الوحدات الكبرى Microscopic- Macroscopic:

وتختلف أيضا النظريات من ناحية مستواها التحليلى، فقد تركز النظرية على المستوى الخاص والفردى فيصبح مجال دراستها ضيقاً Microscopic أو تركز على العام والمجتمعى فيصبح مجال دراستها واسعاً Macroscopic فى علم الاجتماع تميل النظريات إلى التركيز على الوحدات الكبرى. بينما التفسيرات السيكولوجية تركز أكثر على الوحدات الصغرى، ويلاحظ أن كل مستوى منهما له مميزاته ومشاكله. والملاحظات التى يمكن ذكرها فى هذه المجالة هى أن النظريات التى تركز على الوحدات الكبرى تصبح عامة جداً إلى درجة قد تصل إلى عدم قدرة الشرح للظواهر الفردية، بينما تعانى النظريات التى تركز على الوحدات الصغرى من المشكلة العكسية أى قد لا تستطيع شرح الظواهر المجتمعية.

٧- بنائية- وظيفية Structure- Functional:

وأيضا تختلف النظريات من حيث ماتهتم به، فبعضها يركز على تفسير بناء الظاهرة، بينما نظريات أخرى تهتم بالحالة التى فيها تتطور الظاهرة. فمثلاً فى علم الاجتماع النظريات البنائية الوظيفية تهتم ببناء مجتمع معين فى مفاهيم من وظائفه الرئيسية، بينما نظريات الصراع تركز أكثر على ديناميكيات المجتمع.

٨- اجتماعية- طبيعية Social- Naturalistic:

وتختلف النظريات أيضا من حيث الظواهر التى تستخدمها كعوامل تفسيرية. فبعض النظريات تستخدم متغيرات بيولوجية أو طبيعية، بينما نظريات أخرى تركز على الظواهر الاجتماعية، فمثلاً قد يذهب عالم اجتماع إلى شرح وتفسير السلوك الاجتماعى فى مفاهيم ومصطلحات البيولوجيا البشرية كما فعل هربرت اسبنسر H. Spencer وتلك هى النظرية الطبيعية. بينما يذهب علماء آخرين إلى تفسير السلوك الاجتماعى فى مفاهيم ومصطلحات جغرافية وتلك أيضا نظرة طبيعية. ولكن هناك أيضا علماء اجتماع لايستخدمون فى تفسير السلوك الاجتماعى إلا مفاهيم من خصائص النسق الاجتماعى مثل تقسيم العمل أو مستوى التصنيع، وتلك هى النظرة الاجتماعية. وهكذا نرى أن هناك نظرتان مختلفتان تماماً فى أسلوب كل منهما فى التفسير.

من ذلك يتضح أن النظريات الاجتماعية تختلف فى صفاتها.

***

أنماط النظرية

من المناقشة فى الفقـرة السابقة نستطيع أن ننشئ تنميطًا نحـاول فيه ان نبرز أهم الأنماط الـسائدة فى عصرنا.

١- فلقد رأينا النظريات تختلف من ناحية مسـتوى الدراسة بمعنى من ناحية اتساع مجال دراستها أى تركز على الوحدات الكبرى Macroscopic approach.

أو يضيق مجال دراستها فتهتم بالوحدات الصغرى Microscopic approach .

٢- ولقـد رأينا أيضا أن النظـريات تختلف فـيـما تتـخذه من عـوامل Factors كأدوات تفسيرية. فلقد رأينا أن منها ما يتخذ العوامل الطبيعية أو البيولوجية naturalistic- biological، ومنها من يتخذ العوامل الاجتماعية Social.

٣- وكذلك رأينا أن النظريات تختلف من حيث اهتمامها وتركيزها على البناء الاجتماعى Social strucure أو تركيزها على العمليات الاجتماعية Social process.

٤- ولقـد لاحظنا أيضا أن النـظريات التى يتسع مـجـال دراسـتـها أى تركـز على الوحدات الكبرى هى عادة استدلالية deductive فى شكلها بينما النظريات التى يضيق مجال دراستها أى تهتم بالوحدات الصغرى تميل إلى أن تكون استقرائية.

٥- وكـذلك يلاحظ أن النظريات التى تركـز على الوحـدات الكبـرى مـثل البناء الاجتـماعى تميل إلى أن تكون ذات نزعـة محـافظة فى أيديولوجيـتها، بـيـنما النظريات الأخرى مـن ذات المستوى فى التـحليل ولكن تركز على العـمليات الاجتماعيـة مثل الصراع تميل إلى أن تكون أكثر تطرفًا فى أيديولوجيـتها. أما النظريات ذات المجال الضيق فى الدراسة أى التى تركز على الوحدات الصغرى هى بصفـة عامة محافظة فـى تركيزها على المنهج العلمى، ومن ناحـية أخرى على الظواهر الوظيفية عند مـستوى التفاعل بين الأشخاص.

الآن يمكننا أن نتجه إلى وضع تنميط يتكون من ثلاثـة أنماط رئيسية، وكل منها ينقسم إلى نمطين فرعيين حـسـب العوامل التى يستخدمها النمط كـأدوات تفـسيرية،

أعنى، أن كل نمط من الأنماط الثلاثة يعتمد إما على عوامل طبيعية أو عوامل اجتماعية كأدواته التفسيرية.

ويمكن بيان الخصائص الأساسية لكل نمط من هذه الأنماط الرئيسية الثلاث كالآتى:

١- النمط العضوى- البنائى- الوظيفى:

Organic- Structure Funcional Type

ينظر هذا النمط إلى المجتمع على أنه نسق ذو أجزاء مترابطة وظيفياً. والشكل الأول من هذا النوع تلك الدراسة العضوية التى تعتبر أن هناك عددا من القوانين الطبيعية تتفاعل فى المجتمع بأسلوب ميكانيكى عضوى.

والشكل الثانى للدراسة العضوية هى النظرة إلى المجتمع على أنه كائن عضوى Organism، ويبدو ذلك واضحًا فى كتابات دوركيم Durkhiem وتونيز Tonnies ومن شايعهم هؤلاء العلماء يعتبرون المجتمع عضوى يعتمد على نسق تقسيم العمل والذى بدوره مرتبط بأنواع من المعايير أو الإرادة الاجتماعية التى تربط الفرد بوضعيته الاجتماعية، هذه الدراسة تركز على الناحية الاجتماعية أو النسقية أكثر من الظواهر الطبيعية.

ولكن كلا من الشكلين يعتبر عضوى فى نظرته إلى المجتمع على أنه نسق عضوى متكامل Integrated organinism.

ويعتبر النمط الوظيفى البنائى هو الاتجاه المعاصر للاتجاه العضوى السابق والذى كان الخطوة الأولى فى هذا النوع من الدراسة. ويركز هذا الاتجاه الحديث على أسلوب بعرض النسق الاجتماعى على أنه يتضمن عددًا من الوظائف الهامة

أو المشاكل المجتمعية التى أمكن حلها اجتماعياً عن طريق تطور عدد من الأنساق الاجتماعية الفرعية.

ويلاحظ أنه بصفة عامة تتجه النظريات العضوية- البنائية- الوظيفية إلى محاولة صياغة مفاهيم عن المجتمع على أنه نسق عضوى متكامل سواء عند مستوى تحليل الوحدات الصغرى أو الوحدات الكبرى. وتعتبر المجتمع نسق يتطور نحو مزيد من التكامل الاجتماعى، ومزيدًا من الكفاءة الذاتية.

وهذه النظريات لها جذورها فى فلسفة عصر التنوير، ثم زادت دقتها شيئًا فشيئًا، أولاً بتلك التناظرات البيولوجية التى كانت أساس النظرية الاجتماعية فى أيامها الأولى، ثم انفصلت شيئًا فشيئًا أيضا ولكن احتفظت فى طياتها بفكرة النسق وبنائه من أنساق فرعية تتكامل وظيفيًا وتترابط عضويًا وهى الفكرة التى نشأت أولاً فى العلوم البيولوجية.

٢- نمط الصراع والتطرف Conflict- Radical:

نظريات الصراع مثلها مثل العضوية والبنائية الوظيفية من ناحية أنها تركز على النسق الاجتماعى، ولكنها ترى أن الصراع يسود النسق الاجتماعى أكثر من التطابق والتكامل، إذ أنه أثناء صراع الأفراد مع الطبيعة لإشباع حاجاتهم الأولية تظهر أنواع مختلفة من أشكال الصراع التى يعتبرها أصحاب هذا الاتجاه أنها أساس النسق الاجتماعى وأساس تطوره. وهكذا يصبح النظام الاجتماعى فى حالة صراع وتطور دائم.

تظهر دراسة الصراع الكلاسيكية فى أعمال كارل ماركس، الذى استخدم المنهج الجدلى المادى Deialictical materialism لتحليل تاريخ الصراع البشرى مع بعضهم البعض من ناحية أخرى مع الطبيعة. وقد حاول روبرت بارك Robert park دراسة الشاكل الاجتماعية التى درسها نظريات الصراع واستخدم فى ذلك إطار عمل إيكولوجى Ecological framework حاول به دراسة التطور الطبيعى للمجتمع، أما فلفريدو باريتو Vilfredo pareto فقد كان أكثر ميلا نحو استخدام العوامل الطبيعية، ومثله ثورستين فيلن Thorestien Veblen، فكل منهما استخدم أفكارا مثل الرواسب Residues والسمات الإنسانية Hums Lraits لشرح التوازن والصراع الاجتماعى.

أما نظرية الصراع المعاصرة أى فى شكلها الحديث، فهى تحاول تحسين وإضفاء مزيدا من الدقة على النظرة الماركسية من أجل جعلها تتناسب مع فهم المجتمع الصناعى الحديث ومشاكلة، ومن هؤلاء العلماء الذين يحاولون ذلك رالف داهرندورف Ralph Dahrendorf الذى وضع نظرية حول صراع الجماعة group conflict، وكذلك لويس كوزر Lewis Coser فى دراسته لوظيفة الصراع الاجتماعى.

وهناك تطور حديث آخر لنظرية الصراع في علم الاجتماع المعاصر حيث ادمجت فكرة الصراع في أفكار النظرة الراديكالية عند تشارلز ميلز C.Wright Mills، الذي اشتهر بمحاولته تنمية نظرية أكثر تطرفا، بينما دافيد رايسمان Dsvid Riesman وضع أساساً ديموجورافيا للصراع الاجتماعي والتغير في شكل ثلاثة أنماط من الإلزام الاجتماعي.

فنمط الصراع والتطرف يعتبر المجتمع نسقًا من القوى المتصارعة ينبثق من صراع الأفراد عند محاولتهم إشباع حاجاتهم الأولية وبالذات الحاجات الطبيعية. وهذه النظرة في استخدامها سواء للعوامل الطبيعية أو الاجتماعية في التفسير، تشبه النمط العضوي البنائي الوظيفي في صياغتها مفاهيم عن المجتمع كنسق من وحدة كبرى إلا أن كلًا منهما يختلف عن الآخر، بل وتناقض الأخرى، فنظريات الصراع تفترض المجتمع نسق يركبه الصراع، بينما النظريات البنائية الوظيفية تركز على التكامل الاجتماعي، وذلك يرجع إلى اختلاف ما تتضمنه كلا منهما من أيديولوجية.

٣- النمط السلوكي الاجتماعي:

يعتبر هذا النمط عكس النمطين السابقين، فهذا النمط يعمل عند مستوى الوحدات الصغرى والعلاقات الشخصية المتبادلة، ويعتمد في تفسيرها على الاستقراء inductive أكثر من الاستدلال deductive، وهي بصفة عامة تنظر إلى المجتمع من خلال الفرد، أكثر من اعتبارها المجتمع كنسق من الأمور الوظيفية، فهي تركز على البيئة الاجتماعية وعلاقة الأفراد بها خلال النشأة الاجتماعية، والدور، والتبادل، وأداء الدور، وتعريف الشخص للحقيقة.

ويتضمن النمط السلوكي استخدام كل من العوامل الاجتماعية والعوامل الطبيعية كأدوات للتفسير، فمثلاً ماكس فبر Max Weber وجورج ميد Goerge Mead، درسا الفرد كنتاج للمجتمع، وركزا على معنى السلوك الاجتماعي وعلى عمليات التفاعل المتبادل الاجتماعي، وفي الطرف المقابل نجد جورج سمل Goerge Simmel، ووليم سمنر W. Sumner، استخدما غرائز ورغبات الإنسان لتفسير البناء الاجتماعي وتطوره.

ظروف التنظير

غني عن البيان أن التنظير لا يوجد في فراغ بل بالعكس هو يتم في مجتمع له خصائصه، فإذا كانت عملية التنظير Theorizing هي العملية التي يفسر بها ويحلل ويشرح الأفراد بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية، فإنه من المهم جداً ملاحظة أن التنظير يحدث في داخل متن وضعية اجتماعية معينة، أي أن التنظير محدد من قبل تاريخياً وأيديولوجيا، ويزداد هذا التحديد تأثيراً في مجال النظريات الاجتماعية، وهذا ما يسميه بعض علماء الاجتماع بالقهر الأيديولوجي. وهكذا تشرح النظرية الحقيقة الاجتماعية لأصحاب هذه الوضعية الاجتماعية. وتتشكل هذه الوضعية الاجتماعية من الخصائص التاريخية والأيديولوجية وحالة المعرفة في المجتمع وفضلاً عن ذلك فإن الخبرات الحياتية للمنظر تحدد اتجاهاته الأيديولوجية والمعرفية التي بدورها تؤثر في صياغته للمفاهيم عن الحقيقة الاجتماعية. وهكذا في ظل هذه الظروف تقدم النظرية تفسيرا للحقيقة والواقع، لذلك رأيت بيان وشرح تلك الظروف وهي:

١- الظروف الاجتماعية:

في معظم الحالات تنمو النظريات كرد فعل للتغيرات في المجتمع وتطور حاجاته. وهكذا يمكن القول أن علم الاجتماع قد تأسس في أوربا أثناء فترة تتميز بالقلق والثورات. والنظام والاستقرار كمطلب اجتماعي كان هو رد فعل للتطور الاجتماعي مثل التصنيع، والبيروقراطية وحاجات الرفاهية والانفجار السكاني، بمعنى أن النظرية الاجتماعية تنشأ كرد فعل لظروف اجتماعية معينة، وخاصة الثورات الدينية والسياسية، والتغيرات الاقتصادية، وتأثيرات التصنيع، ونمو العلوم.

ذلك يعني أنه يمكن النظر إلى النظرية على أنها رد فعل أو تفسير وصياغة للمفاهيم عن المشاكل الاجتماعية الحادثة في المجتمع كما يتلقفها عدد من الأكاديميين المتخصصين، ومن ثمّ تظهر أنواع معينة من النظريات عند مختلف المراحل من تطور المجتمع.

وهكذا يمكن القول أن النظرية البنائية الوظيفية قد حدثت كرد فعل للاضطراب الاجتماعي والاقتصادي، بمعنى أنها تمثل استجابة للحاجات الاقتصادية في الولايات المتحدة في سنة ١٩٣٠[١]. بينما النظريات المتطرفة Reducal يمكن اعتبارها رد فعل لأنواع التسلط التي بدت مصاحبة للمستويات العالية من التصنيع والبيروقراطية. وأيضاً أثرت ظروف الحرب في نمو نظريات التكنولوجيا ونظريات الاختراع.

وعلى هذا يمكن النظر إلى النظرية كوظيفة لظروف اجتماعية معينة، ومن ناحية أخرى تمثل النظرية رد الفعل الرئيسي لعلم الاجتماع في مواجهة حاجات وظروف اجتماعية معينة، وإذا كانت هذه الظروف الاجتماعية تتضمن الحاجات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فإن من أهمها درجة نمو العلم.

٢- حالة المعرفة وقيمها[٢]:

تعتبر حالة المعرفة وقيمها السائدة انعكاساً لمختلف مراحل حركة المجتمع، وتؤثر بشدة كبيرة على درجة نمو العلم فيه. وعلى هذا تعتبر النظرية وظيفة لحالة المعرفة وقيمها ومعاييرها السائدة.

ذلك أن مدى انتشار المعرفة في بيئة المنظر وفي عصره تسمح بطرق مختلفة ومتنوعة للبحث، إذ تتعلق مسألة إمكانيات منابع التنظير بالتصورات العقلية للمنظر. وهنا قد يكون أفق المنظر وفكره محدداً بالمعرفة الموجودة فقط في مجتمعه، أو ربما تمتد إلى ما وراء ذلك لتشمل المعارف الموجودة في مجتمعات أخرى. ومن ثمّ يمكن القول أن سهولة وامتداد الاتصالات تؤثر في تراكم الأفكار، ولهذا فإن المجتمعات المفتوحة فكريا تساعد على تراكم الأفكار مما يؤدي إلى زيادة إمكان عمل نظريات جديدة، والعكس صحيح بمعنى أن المجتمعات التي تتضمن قيما لا تشجع الحرية الفكرية وتشجع التكتم والسرية أو تقطع سريان المعارف، أو تجعل من التساؤل عن المعارف حقاً خاصاً للقلة المختارة، كل ذلك

---

(١) لمزيد من الشرح في هذه النقطة يمكن الرجوع إلى:

Gouldner, A.W.: The Coming Crisis in Western Sociology. Avon, New York, 1970. P.P. 141-157.

(٢) لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى كتاب «التغير الاجتماعي» للمؤلف من ص ١٧٤ - ١٨٣.

يحد من أفق المنظر مما يؤدى إلى عقم المجتمع وتخلفه. إن مجموعة من الظروف ربما تكون عظيمة التشجيع على التعلم من ظروف أخرى، فهذه الظروف المشجعة تكون أكثر ملاءمة لنمو الثقافة والاختراعات، ومن بين الظروف الهامة للاختراع، زيادة ما يعرفه الفرد حاليًا، وسهولة تعلم شيء أكثر. ولهذا ترجع نهضة أوربا فى العصر الحديث إلى تخلص المجتمعات الأوروبية من حجر الكنيسة على عقول المفكرين حيث كانت الكنيسة لا تشجع على التجديد سواء فى العلوم الطبيعية والاجتماعية بل كانت تقاوم ذلك بشدة، حتى أنها أعدمت جاليليو لأنه قال إن الأرض كروية وهم لا يجدون ذلك فى كتبهم المقدسة، وتبع هذا التخلص من حجر الكنيسة اتجاه إلى ترجمة التراث الإسلامى واليونانى والرومانى، مما أدى إلى انفتاح المعرفة فى أوربا على معارف جديدة لم تكن متاحة من قبل.

ويلاحظ أن أسلوب التفكير السائد عند نقطة معينة من نمو المجتمع يعمل على تحديد نوع النظريات التى يمكن أن تنشأ فى ظله. ولهذا تأثرت معظم النظريات الاجتماعية المبكرة بفروع معينة من الفلسفة مثل الفلسفة الطبيعية مثل نظرية هربرت سبنسر، وفلسفات عصر النهضة وعصر الإصلاح كنظرية أوجست كونت، وعكست تلك النظريات نظرات خاصة عن الإنسانية والمجتمع.

ولهذا عندما نمى العلم فى تزاوجه مع المذهب العملى Pragmatism فى أوربا والولايات المتحدة، ابتدأت النظريات تأخذ أشكالاً مختلفة، كما هو مشاهد فى التركيز الحالى على النظريات الرياضية، وبناء النظريات العلمية، أكثر تجريبياً منها عما كانت عليه فى النصف الأول من القرن العشرين.

وبصفة عامة يعتبر علماء علم اجتماع المعرفة أنه كلما تقدم مستوى التصنيع فى المجتمع، تتحرك أساليب التفكير بعيدًا عن التفكير الفلسفى إلى التفكير العلمى والتجريبى، وذلك ينطبق بصفة عامة على المجتمعات الغربية.

٢- الظروف الحياتية للمنظر:

هناك عدد من النواحى الخاصة بحياة المنظر التى تؤثر على نوع النظريات التى ينشئها. وتلك تتضمن الموقف الاقتصادى الاجتماعى للفرد أو ما يحب بعض

علماء الاجتماع أن يسببه الموقف الطبقي، وكذلك تدريبه الأكاديمي ونظرته الأيديولوجية، وحياته الشخصية ورفاقه من العلماء.

وهكذا يمكن القول أن عالم الاجتماع من الطبقة العليا، ولديه مستوى عال من التعليم والتدريب ويعتبر نفسه من الصفوة يركز اهتمامه على التطور الاجتماعي والضبط الاجتماعي، ومن ثمّ يميل إلى أن يكون ذو أيديولوجية محافظة ويتبنى نظريات عضوية وبنائية وظيفية. وبالعكس ذلك الذي من طبقة متوسطة أو منخفضة وتدريب أقل يميل إلى الأيديولوجية المتطرفة. فالخبرات الشخصية للمنظرين تجعلهم يتنبهون ويركزون اهتمامهم على نواحي معينة من الظواهر الاجتماعية وهي بدورها تؤثر على تنظيرهم.

ويلاحظ أننا ذكرنا التدريب العلمي ولبيان أهميته يمكن القول أن المجتمع قد يشجع على التدريب ويذلل بسخاء في سبيله أو قد لا يشجع ويقتر. ويقول أوجبرن ونمكوف: (إنه في السكان من نفس الجنس هناك عدد كبير من الأشخاص يرثون الكفاءة الكافية ليكونوا مخترعين. وبالرغم من ذلك فإن عدد المخترعين صغير، ويرجع الاختلاف إلى حقيقة أن كل فرد من ذوى الكفاءة الموروثة لا يدربوا على الاختراع، ولا المجتمع يشجع الاختراع عند كل من تدرب. وهكذا في الأنثروبولوجيا، هناك عدد قليل جداً من السمات الذين يصلون إلى اكتشافات علمية. وإن كان هناك عدد كبير من الأشخاص الوارثين لقدرات عقلية كافية، ولكن ما يخفض العدد هو الوقت والمال المطلوب لإنتاج دكتور في الأنثروبولوجيا[1].

كما أن تأثير وتشجيع رفاقه من العلماء له أهمية كبرى أيضًا. فالجماعة الأكاديمية تمثل ثقافة فرعية ذات تأثير بالغ، وأهمها ما تتضمنه هذه الثقافة الفرعية من قيم تحض على العمل التعاوني والمشاركة في المجهودات بين الزملاء الأكاديميين والمفكرين أو عكس ذلك. وفي الحقيقة أن (إمكانية نمو فكرة جديدة تكون عالية وعظيمة إذا أظهر عدة أشخاص تلقائيًا وتعاونيًا نفس الإمكانية، مشاركة المجهودات في العمل لا توفق فقط بين تكاثف الأفكار لعديد من الأفراد،

(1) Ogburn and Nimkoff: "A hand Book of Sociology" Roulidge and Kegan Poul. London. 1953. P. 546- 547.

ولكنها أيضًا تزيد من فرص احتمال وصول أحدهم إلى حل لمشكلتهم العامة. وأكثر من ذلك فإن تأثيرهم المتبادل على بعض يحرك التبادل والمشاركة فرؤية عمل مشترك واحد يصبح قوة محركة ودافعة لأفكار جديدة عند الآخرين وأيضاً يساعد تكاملهم التفكيرى على إمكانية الحل، ذلك أنه فى كثير من اللحظات تتطلب المشاكل المعقدة الكثير جداً من التجارب، وتحتاج إلى مناهج كثيرة للبحث والتجريب، ولا يمكن لفرد واحد أن يواجه كل هذه المتطلبات. فالمشاركة فى العمل ليست ظاهرة طبيعية، إذ أنها لا توجد عشوائياً أو بيولوجيا، إنما هى تأثير وتنميط ثقافى[1]. وهكذا فبيئة الجامعة كبيئة معرفية قد تساعد وتشجع أو تحبط وتقيد نمو النظريات الاجتماعية من خلال نوع القيم التى تسود هذه الثقافة الفرعية.

ولهذا فقد تأسس مفهوم أن النظريات العلمية تصنع داخل الجامعات وتذاع عن طريق نشرها فى الصحف الأكاديمية، ومن هنا تبدو أهمية الجامعات فى التأييد المعنوى والمادى للمفكرين لاستمالتهم نحو بذل الجهود فى البحث وصنع النظريات التى تخدم المجتمع.

وبناء على ما سبق عرضه من أفكار حول الظروف الاجتماعية المحيطة بعملية التنظير، يمكن القول أن عملية التنظير تؤثر فيها عوامل اجتماعية كثيرة وكذلك عوامل معرفية متعددة، وعوامل حياتية، كما أنها تمثل مرحلة معينة من تطور المجتمع، ومن ثمّ يمكن القول أن عملية التنظير هى عملية اجتماعية أكثر منها عملية فردية.



(1) Barnett, H.G.: "Innovation" McGraw-Hill Book Comp Inc. N.Y. 1953. P. 14-43.



الفصل الثانى

النظريات العضوية والبنائية الوظيفية

أولاً: النظريات العضوية

- الظروف الاجتماعية.
- كومت. } طبيعى
- سبنسر. } طبيعى
- دوركهيم. } نسقى
- تونيز. } نسقى

ثانياً: البنائية الوظيفية

- الظروف الاجتماعية.
- باسونز. } طبيعى
- بكلى. } طبيعى
- ترياكيان. نسقى



النظريات العضوية

الظروف الاجتماعية

فى حديثنا السابق اعتبرنا النظرية الاجتماعية رد فعل جماعة معينة لما شعروا به من مشاكل اجتماعية فى عصرهم. وفى حالة النظرية العضوية جاء التنظير من جماعة من أذكياء الطبقة العليا الذين تثقفوا فى ظل تقاليد فلسفة عصر التنوير والذين كانوا يعبرون عن استجابتهم للمضمون الاجتماعى الذى كابد وطأة الثورة السياسية والنمو الصناعى.

وانطلاقًا مما بين أيدى هذه الجماعة من معارف سابقة هى عبارة عن ما قدمه أصحاب النظرية الطبيعية وأصحاب المذهب العقلى من افتراضات، عمل هؤلاء المفكرون على إنشاء نظرة للمجتمع تركز على أن حاجات النسق تعمل وظيفياً فى ظل القوانين الطبيعية، فتجعل من المجتمع نسقًا يتكون من أجزاء مترابطة وظيفيا من خلال تقسيم العمل أو بناء الأدوار Role structure وطبقًا لهذه النظرة يظهر المجتمع كنسق عضوى وظيفى، وجزء من ذلك الكل ألا وهو النظام الطبيعى، وإن هذا النسق العضوى يتطور فى استجابة لحاجاته الأساسية.

وكانت الكتابات تركز على إما: البناء الميكانيكى Mechanical structure لهذا النسق العضوى الاجتماعى -كما عند سبنسر وكونت- أو على نمط النسق المعيارى Normative system والذى يعتمد على تقسيم العمل فى داخله -كما عند دوركيم- وفى كل من الحالتين نظروا إلى المجتمع كنسق عضوى متكامل وظيفيا، وفى نفس الوقت هو جزء من النظام الطبيعى ويعمل من خلال نسق تقسيم العمل.

هذا النموذج نسقى فى نظرته إذ اعتبرت المجتمع نسق طبيعى ونظرت إلى حاجات المجتمع الطبيعية على أنها رئيسية وأعظم من غيرها، ومن ثَمَّ فهى نظرة محافظة فى أيديولوجيتها إذ أنها تتطلب من الفرد أن يتكيف لهذه الحاجات أكثر من العكس أى تكييف الحاجات للفرد. وواضح أن هذه النظرة محاولة من مجتمع

المثقفين فى ذلك الوقت للتعامل مع الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى عصرهم.

وعادة تظهر هذه النتائج النسقية فى مثل هذه الظروف، وخاصة بين عدد من الصفوة وتصبح الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع فى مثل ذلك الموقف هى اكتشاف القوانين الهامة للنظام الاجتماعى، وذلك حتى يتمكن فهمها بشكل أحسن، ومن ثمَّ يمكن ضبطها بأسلوب أكثر كفاءة.

وهكذا يمكن تلخيص الظروف الاجتماعية لظهور النظرية العضوية كالآتى:

١- الظروف الاجتماعية، الثورة السياسية، الانهيار الاجتماعى، النمو الصناعى.

٢- حالة المعرفة: المذهب الطبيعى- المذهب العقلى- فكرة التطور الاجتماعى- الوضعية.

٣- الظروف الحياتية: من الشريحة العليا الاقتصادية الاجتماعية - ثقافة عصر التنوير- جامعيون.

***

أوجست كونت AUGUSTE COMTE

(١٧٩٨ - ١٨٥٧)

ولد أوجست كونت في فرنسا سنة ١٧٩٨ من أسرة كاثوليكية موسرة، وتعلم الطب والفسيولوجيا في مدرسة البوليتكنيك وهي من مدارس الطبقة الأرستقراطية، ومؤخراً تعلم الفلسفة الوضعية، وتعلم في ظل تقاليد فلسفة عصر التنوير، ولقد مارس السياسة عقب انهيار الثورة الفرنسية السابقة (١٧٩٣)، وعاصر الثورة الصناعية. وتزايد الصراع بين العلم والدين. وتتضمن أعماله الرئيسية الفلسفة الوضعية Cours de Philosophie Posotive (١٨٣٠) ونظرة عامة عن الوضعية (١٨٤٨)، واشتهر أوجست كونت بأنه هو الذى أعطى علم الاجتماع اسمه، ومن ثمّ يعتبر اوجست كونت مؤسس علم الاجتماع في العصر الحديث[١].

أهدافه:

من الظروف الاجتماعية والظروف الحياتية التى عاشها أوجست كونت يمكن فهم أن الهدف الرئيسى لعلم الاجتماع عنده هو إقصاء البناء الثورى للمجتمع الحديث، بمعنى منع الاضطراب الأخلاقى الذى أحدثته الثورة الفرنسية. فقد كان أوجست كونت مهتماً بإعادة تنظيم المجتمع طبقًا لفلسفته الوضعية الإنسانية.

وطالما كان يعتقد كونت أن أساس المجتمع في أفكاره الأساسية فقد كان كل همه أن يؤسس علم اجتماع يعمل على تأسيس هذه الأفكار التى سوف تقوى النظام الاجتماعى عن طريق تقوية النظام الأخلاقى. وتبعًا لذلك فقد حاول إنشاء نوع من علم الطبيعة الاجتماعية Social Physic والذى أسماه فيما بعد بعلم الاجتماع Sociologg. وهذا العلم سوف يعمل على تأسيس قوانين اجتماعية، وكذلك إعادة تنظيم المجتمع في توافق مع نسق القيم الذى اعتقد كونت أنه أحسن القيم وأكثرها ملاءمة للطبيعة الإنسانية. ويفصح كونت عن هذه القيم في كتابه

---

(١) دكتور مصطفى الخشاب: «أوجست كونت» سلسلة البيان العربى، القاهرة، ١٩٥٠.

(السياسة الوضعية)، فقد اعتقد أن القيم الهامة هي قيم المذهب الفيدرالي والتمثيل الوظيفي والنزعة الإقليمية والنزعة المحلية، واعتبر أن هذه القيم هي أسس نجاح المذهب الوضعي الجديد.

وهكذا حاول كونت استخدام مبادئ فلسفة عصر التنوير لحل مشاكل الثورة في عصره مما نتج عنه نظرية عن التطور الاجتماعي التي أبرزت الأهمية الرئيسية للعقل الإنساني والقيم الاجتماعية السائدة. ولقد كان يأمل أنه باستخدام العلم الجديد (علم الاجتماع) أنه يستطيع إعادة تأسيس نظام أخلاقي جديد في مقابل الفوضى الاجتماعية الضاربة أطنابها حوله.

الافتراضات:

كان كونت يعتقد أن العالم تنظمه قوانين طبيعية غير مرئية، وهي التي تقبع وراء تطور ونمو العقل والقيم الاجتماعية السائدة. (ويفهم من ذلك أن كونت اتخذ من الإنسانية موضوعًا للدراسة والبحث واستعرض تاريخها واستنبط منه قانونًا في الأدوار الثلاثة، ويفهم أيضًا أن كونت أسس هذا القانون على طبيعة العقل الإنساني وخضوع هذه الطبيعة لمبدأ الحركة والتطور)[1]. فالمبدأ الفلسفي لعلم الاجتماع هو أن الظواهر الاجتماعية تخضع للقوانين الطبيعية.

ولقد ظهر علم الاجتماع إلى الوجود يوم أن اكتشف كونت قانون الأطوار الثلاثة وهو أن البشرية قد مرت بثلاث مراحل أو أطوار من التفكير، المرحلة الأولى هي المرحلة الثيولوجية أو اللاهوتية وفي هذه المرحلة كانت البشرية تفسر كل من الظواهر الطبيعية والاجتماعية تفسيرًا دينيًا، ثم انتقلت البشرية إلى المرحلة الثانية وهي المرحلة الميتافيزيقية حيث كانت البشرية تفسر الظواهر تفسيرًا ميتافيزيقيا، ثم تقدمت البشرية إلى المرحلة الثالثة وهي الوضعية أو العلمية حيث تفسر البشرية الظواهر تفسيرًا علميًا. فقد كشف هذا القانون عن حالات التفكير الثلاثة، بل اعتبر كونت أن اكتشاف هذا القانون هو الذي أوحى إليه بفكرة وضع علم جديد يدرس الظواهر الاجتماعية. فلم يعد علم الطبيعة الاجتماعية مجرد تصورات ومبادئ فلسفية بل أصبح علمًا وضعيًا كباقي العلوم.

---

(١) دكتور مصطفى الخشاب: «أوجست كونت» لجنة البيان العربي- القاهرة ١٩٥٣م.

واعتبر كونت أن التمييز بين الظروف الاستاتيكية والديناميكية للموضوع يجب أن تمتد إلى علم الاجتماع، فيقول (ولسوف أتعامل مع شروط الوجود الاجتماعي كما في البيولوجي سأعامل التنظيم ordanization تحت عنوان التشريح anatomy، وكذلك بالنسبة لقوانين الحركة الاجتماعية كما في البيولوجي تحت عنوان علم وظائف الأعضاء Physiology.

هذا التقسيم هو ضروري من أجل أغراض الشرح فقط، ولا يجب أن يمتد استخدام هذا التقسيم وراء هذا الغرض. وكما رأينا في البيولوجي أصبح ذلك التميز والتقسيم أكثر ضعفاً ووهنا بتقدم العلم، فهل سوف نرى ذلك عندما يتم تكوين علم الطبيعة الاجتماعية، ذلك التقسيم سوف يبقى من أجل أغراض التحليل، ولكن ليس كانفصال أو تقسيم حقيقي وفعلي للعلم إلى جزئين. فهذا التميز هو ليس بين فئتين من الحقائق أو الوقائع، ولكن بين وجهين أو ناحيتين من نواحي النظرية.

وهكذا قسم كونت علم الطبيعة الاجتماعية إلى قسمين: قسم الاستاتيك سوسيال، وقسم الديناميك سوسيال[1]. والأول موضوع دراسته العناصر الاجتماعية ووظائفها وذلك للكشف عن القوانين التي تحكم الترابط بين النظم الاجتماعية. والديناميك سوسيال موضوعه دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلي للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى التقدم الذي تخطوه الإنسانية في تطورها، أي أن الدراسة الديناميكية تقوم على أساس فكرة التقدم، وتقوم الدراسة الاستاتيكية على أساس فكرة النظام.

ومن ثَمّ يتضح أن هذا التقسيم هو من أجل إبراز مفهومي النظام Order والتقدم Progress. واعتبر كونت أن النظام يتوقف على الانسجام الدائم بين ظروف الوجود الاجتماعي، أما التقدم فيتوقف على التطور الاجتماعي، فالظروف الاجتماعية، من ناحية، وقوانين الحركة من ناحية أخرى يشكلان استاتيك ديناميك علم الطبيعة الاجتماعية، ومن ثَمّ يصبح غرض وهدف علم الطبيعة الاجتماعية (علم الاجتماع) هو دراسة وضعية لقوانين النظام والتقدم. وكلما تقدمنا في دراسة ظروف المجتمع الإنساني (قوانين النظام)، كلما زادت قدرتنا على التنظيم والتقدم، وأيضاً كلما زادت روح الفلسفة الوضعية ظهوراً.

---

(١) دكتور مصطفى الخشاب: أوجست كونت مجلة البيان العربي- القاهرة ١٩٥٣م ص ٦٨.

باختصار تدرس الديناميكية الاجتماعية قوانين التتابع، بينما الاستاتيكية الاجتماعية تدرس الوجود، ومن ثَمَّ فإن فائدة الأولى هي أن يجهز النظرية الحقيقية للتقدم إلى الممارسات السياسية، بينما الثاني ينجز نفس الخدمة بالنسبة للنظام، وهذا التلازم والتوافق لحاجات للمجتمع الحديث هو التأكيد القوي للصفات الفلسفية لكل هذه التوليفة.

الدراسة الاستاتيكية:

الدراسة الإحصائية تعتمد على استقصاء قوانين الفعل ورد الفعل لمختلف أجزاء النسق الاجتماعي- بعيدًا عن الحركة الأساسية التي تعمل دائمًا على تعديل تلك القوانين.

المبدأ العلمي عن العلاقة بين النظام السياسي والظروف الاجتماعية هو ببساطة أنه لابد أن يكون هناك دائمًا انسجام تلقائي بين الكل وأجزاء النسق الاجتماعي، هذه العناصر التي بالضرورة سوف تأتلف عاجلاً أو آجلاً في أسلوب متلائم مع طبيعتها.

من الواضح أنه لابد للنظم السياسية والأحوال الاجتماعية من ناحية، والأشكال والأفكار الاجتماعية أن تكون دائمًا مترابطة، ولكن أكثر من ذلك لابد لهذا الكل المتماسك أن يكون دائمًا ملتحمًا مع حالة من التطور متناسبة مع درجة تطوره نحو اكتمال التطور الإنساني، مشتملاً ذلك في كل الوجوه- المعرفة والأخلاق، والنشاط الطبيعي. ومن ثَمَّ يصبح الموضوع الرئيسي لأي نسق سياسي، أيا كان زمني أو روحي هو أن ينظم ويرتب التمدد التلقائي الذي يحدث للمجتمع في كل الوجوه، بأحسن أسلوب يؤدي إلى قيادة النسق نحو أهدافه المحددة.

فكرة الترابطات المتبادلة أصبحت من وجهة النظر العلمية فكرة أساسية. ولكن تصبح أكثر وضوحًا كلما كان العضو organism أكثر تركيبًا، وكلما كانت الظاهرة موضع البحث أكثر تعقيدًا، فمثلاً عند الحيوانات، الترابطات المتبادلة بين أعضاء العضو أكثر تكاملاً منها في النبات، بينما في الإنسان أكثر من الحيوانات، ومن ثَمَّ

فهذه الفكرة لابد أن تزداد وسوخًا علميًا في علم الطبيعة الاجتماعية (علم الاجتماع)، وحتى أكثر مما هي عليه في البيولوجي.

وينبع من ذلك أنه لا يمكن أن توجد دراسة علمية عن المجتمع سواء عن ظروف التجمع (استاتيك) أو حركته (ديناميك)، إذا قسم المجتمع -أي النسق- إلى أجزاء، وندرس تلك الأقسام كل قسم بعيدًا عن الآخر.

ويلاحظ أن التقسيم المنهجي للدراسات التي توجد في العلوم غير العضوية (الجمادات) inorganic، هي غير صالحة إطلاقًا في علم المجتمع الحديث والمركب ولا تؤدي إلى أي نتيجة... ولقد يأتي اليوم الذي فيه يكون مرغوبًا في تقسيم فرعي من أجل الدراسة العلمية، ولكنه من المستحيل لنا الآن أن نتنبأ أي مبدأ سوف يتم على أساسه هذا التقسيم، لأن هذا المبدأ نفسه لابد أن ينشأ وينبعث من نمو العلم نفسه.

في العلوم غير العضوية تكون العناصر معروفة لنا أحسن من الكل الذي تكونه تلك العناصر، ولهذا في مثل تلك الحالة أحسن لنا أن نتقدم من البسيط إلى المركب، ولكن الطريقة المعكسية ضرورية في دراسة الإنسان والمجتمع، فالإنسان والمجتمع ككائنات كلية معروفة أكثر لنا، وكذلك أسهل في الدراسة عن الأجزاء التي يتكون منها المجتمع أو الإنسان.

الدراسة الديناميكية:

ولو أن النظرة الاستاتيكية للمجتمع هي أساس علم الاجتماع إلا أن النظرة الديناميكية ليست فقط الأكثر أهمية من الاثنين، ولكن أيضًا الأكثر أثرًا في خواصها الفلسفية، وخاصة تلك الفكرة السائدة عن التقدم المستمر للإنسان، أو بالأحرى النمو التدريجي للإنسانية.

إذا كنا نكتب بحثًا منهجيًا عن الفلسفة السياسية، لسوف يكون من الضروري إعطاء تحليل أولي عن دوافع الفرد التي تشكل قوى التقدم للنوع الإنساني، بإرجاعها إلى تلك الغريزة التي تنتج عن اتفاق واتحاد كل ميولنا الطبيعية، والتي تحث الإنسان على تنمية كل حياته الفيزيقية والأخلاقية والعقلية بأكبر قدر وإلى أبعد ما يمكن أن تسمح له ظروفه.

ولكن هذه الفكرة عرفها كل فلاسفة عصر التنوير، ولهذا علينا أن نتقدم فوراً إلى اعتبار أن التتابع المستمر للنمو الإنسانى، الملاحظ فى كل هذا النوع وكان الإنسانية كانت واحدة، ومن أجل مزيد من الإيضاح يمكن أن نأخذ رأى كوندرسيه Condorcet عن افتراضه أن أمة واحدة التى يمكن أن نرجع إليها تتابع التحسينات الاجتماعية. هذا التصور العقلى قريب من الحقيقة أكثر مما اعتدنا افتراضه، لأن من وجهة نظر سياسية، الخلفاء الحقيقيون لمثل هؤلاء الناس هم بالتأكيد أولئك الذين أخذوا على عاتقهم ونفذوا مشاريعهم البدائية، أيا كانت التربة التى يسكنونها، وأيا كان الجنس الذى انبعثوا منه.

وباختصار إنه الاستمرار السياسى الذى رتب التتابع الاجتماعى.

الروح العامة الحقيقية للديناميكية الاجتماعية تتوقف على إدراك كل من هذه الحالات الاجتماعية المتتابعة على أنها النتائج الضرورية للحادث قبل والذى هو المحرك الضرورى للتالى بعده وطبقًا لبديهية ليبنتز Leibintz (الحاضر يكبر مع المستقبل). ولهذا يصبح موضوع العلم هو اكتشاف القوانين التى تحكم هذا الاستمرار، وأيضًا تجميعها لأنه هو الذى يحدد مجرى النمو الإنسانى.

الآن إنه ذلك التراكم البطيء المستمر لتلك التغييرات المتتابعة والتى تدريجيًا كونت الحركة الاجتماعية، والتى خطواتها قد خطتها الأجيال، وتغيراتها الأولية عملها التجديد المستمر للبالغين. وفى وقت ما عندما مستوى السرعة لهذا التقدم تبدو لكل الأعين ملحوظة السرعة، فحقيقة الحركة لا يمكن أن تنكر حتى عند أولئك الذين أكثرهم بغضًا لها.

وفى حركة الإنسانية من الفترات المبكرة حتى الآن، سوف نرى أن الخطوات المختلفة والمتلاصقة والمتلاحقة بنظام محدد، وأريد أن أشير إلى النمو العقلى والذى يشكل تمايزًا واضحًا جداً ولا يحتاج إلى تناول ولهذا يؤخذ عادة على أنه دليل ومرشد. الجزء الرئيسى لهذا النمو والأكثر تأثيرًا فى التقدم العام، إنه بلا شك نمو الروح العلمية من العمل البدائى لأولئك الفلاسفة أمثال طاليس Thales وفيثاغورس Pythagoras إلى أولئك الرجال أمثال بخت Bichat ولاجرانج

Lagrange، الآن لا يمكن لرجل مستنير أن ينكر ذلك. وفى هذا التتابع الطويل من المجهودات والاكتشافات، قد تبع العقل الإنسانى مجرى محدد، كمية معارف معينة، والمطلوبة تماماً بحيث تسمح بتنمية مجرى التقدم الملائم لكل فترة.

الترابطات المتبادلة التى بيناها عند الحديث فى الحالة الاستاتيكية قد تساعدنا فى تنمية مفهوم عن وجود القوانين الوضعيـة فى الديناميكية الاجتماعية، فإن لم تكن الحركة محددة بواسطة تلك القوانين لحدث التدمير الكلى للنسق الاجتماعى.

التقدم:

اما رأيه الخاص فى معنى التقدم فيتلخص فى ان الإنسان لا يمكنه أن يدرك هذا المعنى إلا إذا أدرك على الأقل ثلاثة حدود. وكل حد من هذه الحدود الثلاثة يمثل عهداً من العـهـود التاريخيـة. فالحد الأول يمثل نظام المجـتـمعات القـديمة، والحد الثانى يمثل النظام الاجتمـاعى فى عهد المسيحية، وعهد الثـورة الفرنسية هو الحد الثالث لإدراك مـعنى التقدم. لأن هذه الثـورة أوحت للإنسان بضرورة قـيام نظام جديد، وأن الثـورة أوحت إلى الإنسان بفكرة التنظيم الاجتمـاعى الجديد. إلا أن الثورة الفرنســية لم تأت لنا إلا بفكرة ناقصة عن التـقدم الاجتماعـى، لأنها تحملنا لتصور فكرة نظام اجتماعى يختلف اختلافاً جوهرياً عن النظم السابقة، ولكنها لم تنجح فى إقامة هذا النظام، والآن فـإن وظيفة الفلسفة الجديدة (الـوضعية) هى أن تحقق إقامة هذا النظام وأن تحقق الفكرة الوضعية للتقدم الاجتماعى[1].

ويقيم كـونت فكرة التقدم على أسـاس علمى سليم إذ يعتبـر أن المسألة لم تكن مسألة أحكام تقـويمية أو مسألة تقـديرية للأدوار المتابعة للتـقدم بالنسبة لحالة مـثالية خاصة أو ليست المسألة مـسألة معيارية، ولكن بكل بساطة تتلخص فى كشف القوانين التى يسير طبقاً لها التقدم الاجتماعى ومعرفة مدى هذا التقدم فى أدواره السابقة.

ورغم أن كونت يقـرر فى هذه العبارة انـه ليس هناك حالة مثـالية خاصـة حتى يقاس إليها التقدم. ويقرر ان المسألة ليـست مـسألة معيارية، إلا أنه أيضاً يعتقد بفكرة التقدم، ولو كـان ذهب إلى أن المسألة تتلخص فى كشف القوانين التى يسيـر طبقاً

(1) دكتور مصطفى الخشاب- أوجست كونت، لجنة البيان العربى- القاهرة ١٩٥٣ ص ٩٩.

لها التطور الإنساني لكان أقرب إلى الصواب ولكن يبدو أن كونت كان يقصد بالتقدم هو مدى قدرة العقل البشرى فى التسلط على القوى الطبيعية وتسخيرها لمنافعه، وذلك يفصح عنه قانونه فى الأطوار الثلاثة الذى يجعل من الطور الوضعى -أى الذى يسود فيه التفكير العقلى شتى مناحى الحياة- هو التطور المتقدم.

وهو نفسه يضع سؤالاً يكشف به عن أن التقدم بمعنى التحسن ليس من علم الاجتماع فى شيء إذ يقول: هل انتقال الإنسانية من طور إلى طور يستدعى بالضرورة تحسنًا أو تقدمًا بالمعنى العلمى الصحيح لهذه الكلمة؟ ثم يجيب على ذلك بأن علم الاجتماع ليس من شأنه أن يتعرض لمثل هذا الموضوع.

ورغم ذلك فقد تعرض له وناقشه، إلا أنه فى مناقشته استطاع أن يتخلص من النزعة التقدمية التى كانت تسود فكر فلاسفة التاريخ، وجعل التقدم نسبيا، إذ يقرر أنه ولو أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين حتمية، فإن هذا لا يمنع من إدراك أن هذه القوانين قابلة للتغيير بتدخل الإنسان فى تكييف ظروفها. وإذا كانت الظواهر الاجتماعية من أكثر أنواع الظواهر تعقيدًا وتغيرًا، فليس ثمة تناقض فى التسليم بحقيقة خضوعها لقوانين ثابتة، وفى التسليم فى الوقت نفسه بتدخل النشاط الإنسانى فى مجرى هذه الظواهر. ولهذا التدخل تأثير فعال فى تكييف نتائج هذه القوانين.

وهذا يوضح تمامًا أن كونت يفرق بين التقدم بمعنى التحسن المطلق والاتجاه اللانهائى نحو الكمال وهو الفكر الذى كان سائدًا عند فلاسفة التاريخ، وبين ما يقصده كونت بالتقدم من أنه يخضع لقوانين ثابتة هى وفق قانون التطور العام الذى صاغه، ومن ناحية أخرى جعل هذه القوانين قابلة للتدخل الإنسانى الذى يستطيع أن يغير من سرعتها وليس من القانون ذاته.

وهكذا فقد أبرز كونت أهمية التدخل الإنسانى واقترب بمعنى التقدم من مفهومه العلمى الحديث، كما أن له الفضل فى التأكيد على أهمية التدخل الإنسانى وهو ما يسمى الآن بالتخطيط الاجتماعى الذى أصبح الآن ملاذ المصلحين الاجتماعيين.

وأخيراً حاول كونت ربط مراحل التقدم التي مر بها الفكر الإنساني بحياة الإنسان المادية وبنوعية الوحدات الاجتماعية وبالنظام السائد في كل مرحلة من المراحل الثلاث. أي عندما كان الفكر البشري في المرحلة الدينية أو اللاهوتية، كان الإنسان في المرحلة العسكرية أو الحربية والوحدة الاجتماعية الأساسية كانت العائلة والنظام الاجتماعي السائد كان على أساس عائلي وهكذا بالنسبة لبقية المراحل كما هو مبين بالجدول التالي[١].

الناحية الفكرية	الناحية المادية	نوعية الوحدة	نوعية النظام
١- اللاهوتية	العسكرية	العائلة	عائلي
٢- الميتافيزيقية	التشريعية	الدولة الإقليمية	جمعي
٣- الوضعية	الصناعية	السلالة	عالمي

البنائية

يذهب كونت إلى أنه يفترض في كل تحليل اجتماعي ثلاث فئات كل منها أكثر تعقيداً من السابق له، والوجود الاجتماعي يتكون من الفرد والأسرة والمجتمع.

الأسرة: ولكن بما أن كل نسق لابد أن يتركب من عناصر من نفس طبيعته فالروح العلمية تمنعنا أن نعتبر المجتمع على أنه يتركب من أفراد. ومن ثَمَّ فالوحدة الاجتماعية الحقيقية هي بالتأكيد الأسرة، والتي تخفض، إذا كان ذلك ضرورياً، إلى عنصريها الأوليين اللذين يكونان أساسها. هذا الاعتبار يتضمن أكثر من مجرد الحقيقة الفيزيولوجية. ثم أصبحت الأسر قبائل، والقبائل أصبحت أمماً، حتى أن النوع الإنساني بأكمله يمكن أن يدرك على أنه النمو التدريجي لأسرة واحدة.

هذه الفكرة الأولية البسيطة تشير إلى أن الأسرة تمثل النطفة الحقيقية للصفات المختلفة للعضو الاجتماعي. مثل هذا المفهوم يتوسط بين فكرة الفرد والنوع- أي الفرد والمجتمع.

---

(١) الدكتور أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعي -دار المعارف- القاهرة سنة ١٩٧٠ ص ٥٨٩.

للمجتمع: الموضوع الثالث لتحليلنا الاستاتيكي يذهب بنا إلى اعتبار أن المجتمع يتكون من أسر وليس من أفراد.

السبب الرئيسي لسمو العضو الاجتماعي على العضو الفردي، هو طبقًا لقانون مؤسس وهو يزداد سموًا كلما زاد تخصص الوظائف المختلفة التي يشغلها العضو أكثر وأكثر تمايزًا، ولكن في ترابطات متبادلة، حتى أن وحدة الهدف تصبح أكثر فأكثر ائتلافًا مع اختلاف الوسائل.

ويلاحظ أن هناك ميل أولى عند كل المجتمعات الإنسانية لوجود حكومة تلقائيا، هذا الميل يتوافق مع نسق متناظر منغرس فينا كأفراد. من نزعات خاصة نحو الأمر عند بعضنا، والطاعة عند البعض الآخر[1].

***

(1) اعتمد في عرض أفكار أوجست كونت على المرجع الآتي:

Comte, August: "The Positive Philosophy" translated and condensed by Harriet Martineau, London, George Bell and Sons 1895 Vol. II. Book VI, chap. III PP. 218-32 and chap. V. PP. 275, 280-81, 289-98.

هربرت سبنسر Herbert Spencer

(١٨٢٠ - ١٩٠٣)

سبنسر هو ابن رجل إنجليزى كان يعتبر من المعارضين للسياسة والفكر السائدين فى عصره، وقد تلقى سبنسر دراسة كلاسيكية فى المنزل، وقد عمل كرسام، ثم رئيس لتحرير مجلة الاقتصادى The Economist. وكان من المشيعين للمذهب الفردى. ويعيش تقاليد العصر الفكتورى. وكان سبنسر تحت تأثير الثورة الصناعية والتوسع الاقتصادى ينظر إلى المجتمع من خلال نظرة تطورية داروينية Darwinis-evolutionary. فلقد أخرج فلسفة للتطور كلها من عنده، وكان يعتقد أن مبادئها تطابق العالم الطبيعى ولشئون الحياة، كانت صياغته للتطور أو نظريته للتطور مؤسسة على فكرة التكامل والتفرق، فالأمور تتكامل أولاً، ثم بعد ذلك هناك تفرق للأجزاء المتخصصة للعضو التى تصبح أكثر ملاءمة لواجباتها.

ومن ثَمَّ تعتبر نظريته عضوية تطورية، وتشبه ما ذهب إليه كونت فى تقسيمه المجتمع إلى استاتيك سوسيال وديناميك سوسيال، على ما سترى.

ومن أعمال سبنسر هى استاتيك سوسيال (١٨٥٠) Social Statics، والمبادئ الأولية (١٨٦٢) First Principles، ودراسة علم الاجتماع (١٨٧٣) The Study of Sociology.

أهدافه: كان اهتمام سبنسر هو تتبع عملية التطور من أول المجتمع إلى آخره تاريخياً واجتماعياً، ونظراً لمعرفته العميقة بالمذهب الداروني Darwinism كانت تطبيقاته لمبادئ التطور البيولوجى فى دراسة المجتمع شيئاً يدعو إلى الدهشة والعجب. فلقد استخدم المناظرة البيولوجية فى دراسته للمجتمع وتطوره بدقة وبراعة ملفتة للنظر، وأدت نظريته لمثل هذا التطور العضوى للمجتمع إلى مزيد من القدرة على رؤية الترابط بين الفرد والحاجات الاجتماعية.

***

الافتراضات[1]

«فصل ٢١٢» يقول سبنسر إنه حتى نستطيع أن نقرر عما إذا كنا سوف نعتبر المجتمع ذاتية أم لا، وأيضا حتى نستطيع أن نقرر أنه إذا اعتبرنا المجتمع كذات، فإن علينا أن نجعل من المجتمع وحدة لا تشبه أي ذات أخرى، أي أنه غير الذوات الأخرى كلها، ومع ذلك إن مفهومنا عن الموضوع مازال فجا.

أنه يمكن القول أن المجتمع ما هو إلا اسم جمعي لعدد من الأفراد، حاملين الجدل بين المذهب الأسمي «nominalism» والمذهب الواقعي realism إلى مجال جديد، فلقد يؤيد الأسمي أنه طالما لايوجد إلا أعضاء النوع، والأنواع تعتبر متفرقة عن بعضها، فمن ثَمّ ليس لها وجود، ومن ثَمّ فإن ما يوجد فقط هو وحدات المجتمع، بينما وجود المجتمع أمر فعلي. فإذا أخذنا مستمعي محاضرة كتجمع والذى باختفائه بمجرد انتهاء المحاضرة يثبت لذاته أنه ليس شيئًا ولكن فقط مجرد تجمع لأشخاص، ولقد يجادل الأسمي أن ذلك يشبه المواطنين الذين يكونون أمة، واضح أن هذا يمكن إنكاره بسهولة، ذلك أن ترتيب وقتي في حالة «مستمعي محاضرة» ولكنه دائم في الأخرى «المجتمع»، وأن ذلك الاستمرار والدوام للعلاقات بين العناصر هي التي تشكل تفرد ذلك الكل كشيء متمايز عن فردیات أجزائه. فإن تحطم كتلة إلى شظايا توقف الكتلة عن أن تكون شيء، بينما بالعكس الأحجار والأخشاب المتفرقة أولاً تصبح الشيء المسمى «منزل» إذا ترابطت بأسلوب معين.

«فصل ٢١٣» فإذا اعتبرنا المجتمع كذات لأنه ولو أنه يتكون من وحدات متفرقة فإنه يوجد تماسك معين في هذا المجتمع، ولكن الآن إذا اعتبرنا المجتمع كشيء أي نوع من الأشياء نسميه؟ إذ أنه يبدو أنه لايشبهه شيء مما اعتدناه.

إذا كانت العلاقات المستمرة بين اجزائه تجعل منه ذاتًا، ينشأ السؤال ماإذا كانت هذه العلاقات القائمة بين أجزائه تماثل العلاقات الدائمة بين أجزاء الذوات الأخرى. بين المجتمع وأي شيء آخر، إن التشابه الوحيد الذى يمكن أن يدرك لابد أن يكون من الذى يعزى إلى التوازى في مبدأ التجميع للعناصر.

---

(١) اعتمد في هذه الافتراضات على:

Spencer, Herbert: "The Principles of Sociology". D. APPleton and Co. New York 1898, Vol.II Book II, secs 212-17, 270-71, PP. 447-453, 456, 593-597.

في العالم المحيط بنا يوجد فئتان كبيرتان من التجمعات التي يمكن أن نقارن بينها وبين التجمع الاجتماعي، وهما اللاعضوي inorganic(*).

والعضوي organic. هل الصفات لمجتمع بأي أسلوب ما تشبه تلك الأجسام غير الحية؟ أو أن تلك الصفات تشبه بأسلوب ما تلك الأجسام الحية؟ أو أن تلك الصفات لا تشبه كليهما؟ السؤال الأول لا يحتاج إلا إلى إجابة سلبية.

ذلك أن المجتمع كل أجزائه حية ولهذا لا يمكن أن يشبه في صفاته العامة تلك الكائنات غير الحية، السؤال الثاني لايمكن الإجابة عليه بنفس السرعة.

ذلك أن الإجابة عليه هي بالإيجاب. السبب في أن العلاقات القائمة بين أجزاء المجتمع تناظر وتتوازى مع العلاقات الدائمة بين أجزاء جسم حي، ومن ثمّ فعلينا الآن أن نعتبر أن المجتمع كائن عضوي organism.

«فصل ٢١٤» عندما نقول إن النمو شيء شائع عن التجمعات الاجتماعية والتجمعات العضوية، إننا ننفي التجمع عن التجمعات اللاعضوية، ذلك لأن بعضها مثل البللورات تنمو بشكل مرئي ولكنها تتوقف عند حد، ومع ذلك إذا قارنا بين الأشياء التي نسميها عديمة الحياة،و بين الأجسام الحية والمجتمعات تلك التي تعرض بوضوح تكاثراً وتزايداً في الحجم، حتى أننا نرى بحق أن ذلك أحد خصائص كل منهما، كثير من الكائنات الحية تنمو خلال حياتها، والباقي ينمو خلال فترات معينة من حياتها. ولكن المجتمعات تنمو عادة باستمرار سواء عبر الزمن، وعندما تنقسم المجتمعات أو حتى وقت تمزقها، هنا النمو إذن سمة تماثل بها المجتمعات نفسها مع العالم العضوي. وتمايز نفسها بقوة بعيداً عن العالم اللاعضوي.

«فصل ٢١٥» هناك أيضا صفة للأجسام الاجتماعية مثل الأجسام الحية، ذلك أنها عندما تتزايد في الحجم فإنها تتزايد في البناء Structure. مثل الحيوان المنخفض «الخلية» لها أجزاء قليلة متمايزة ولكن عندما تكتسب حجماً أكبر تتعدد أجزائها وتتفرق، إنه كذلك مع المجتمع، إذ أولاً «المعشر» التباين بين جماعات وحداته يكون غير واضح في العدد والدرجة. ولكن بتزايد السكان، التقسيم وتقسيمات فرعية يصبح أكثر تعدداً وأكثر تحدداً، وأبعد من ذلك، في المجتمع

(*) اللاعضوي= الجمادات، العضوي= الإنسان والحيوان والنبات.

ككائن عضوى مثل ما فى الفرد العضوى يتوقف التفرق فقط عند اكتمال النمط والذى يبدو ناضجًا، ثم يتقدم نحو الفناء.

ولن أن فى المجتمعات اللاعضوية أيضا كما فى النسق الشمسى Solar System فى كل عضو من أعضائها هناك فروق بتالية تصاحب التكاملات، إلا أنها بطيئة وبسيطة جداً حتى أنه يمكن إهمالها. بينما تضاعف الأجزاء المتباينة فى الأجسام السياسية المجتمع والأجسام الحية، عظيم جداً حتى أنه يشكل بوضوح صفة عامة التى تمايزهما من الأجسام اللاعضوية بشدة.

الفصل٢١٦ سوف يعرف هذا المجتمع أكثر عند ملاحظة أن تزايد التفرق فى البناء structure يصاحبه تزايد التفرق فى الوظائف Functions. التقسيمات الأولى والثانية والثالثة التى تنشأ فى حيوان نامى لا تتخذ لنفسها التباين سواء الصغير

أو الكبير بدون هدف، إذ أنه فى توالو مع الاختلاف والتنوع فى أشكالها وتراكيبها يسير التنوع فى الأفعال التى تنجزها، فهى تنمو فى أعضاء متباينة لها واجبات متباينة، وهكذا تحدد تدريجياً الجهاز الهضمى، ثم يليه تدريجياً الأجهزة الأخرى. أى أن النسق ينقسم إلى أجزاء لكل منها وظيفة خاصة تشكل جزءا من الوظيفة العامة وهى حياة العضو.

وهذا ما حدث بالنسبة للمجتمع فالمجتمع مزود بجهاز للتغذية يتمثل فى هيئاته وطبقاته المنتجة، ومزود بدورة دموية تتمثل فى نظم التوزيع وطرق المواصلات ومزود بجهاز هضمى وإخراجى يتمثل فى نظم الاستهلاك، ومزود بجهاز عصبى يتمثل فى الجهاز التنظيمى والأداة الحكومية التى تتولى قيادة المجتمع. وكل هذه الأجهزة نمت تدريجياً بنمو المجتمعات بمعنى أن هذا التباين فى البناء كان يتضاعف فى استجابة لتطور حاجات المجتمع أى ليستطيع القيام بالوظائف الجديدة التى أصبح المجتمع فى حاجة إليها ليستمر فى الوجود والنمو.

«فصل ٢١٧» لماذا فى الجسم السياسى «المجتمع» وفى الجسم الحى تلك الأفعال المتباينة للأجزاء المتباينة تنظر إليها على أنها وظائف؟ بينما لايمكننا النظر إلى الأفعال المتباينة للأجزاء المتباينة فى الجسم اللاعضوى على أنها وظائف. سوف ندرك الآن أهم صفة عامة فارقة.

التطور يحدث فى كل منهما «العضوى واللاعضوى»، ولا يختلفا ببساطة ولكن الاختلافات حاسمة، اختلافات حتى أن كل يجعل الآخر مستحيل التشابه معه. فأجزاء تجمع لاعضوى متعلقة ببعضها بدرجة أن أحدهما يمكن أن يتغير جداً بدون أن يؤثر فى الباقى. إنه خلافًا لذلك مع أجزاء لجمع عضوى أو تجمع اجتماعى، ففى كل منهما التغيرات فى الأجزاء متبادلة التأثير، والأفعال المتغيرة للأجزاء متبادلة الاعتماد mutually dependent أى متماثلة. وأيضا فى كل منهما «العضوى والاجتماعى» هذه التبادلية تتزايد بتقدم التطور.

«فصل ٢٢٣» دعنا الآن نتجه إلى استخلاص الأسباب التى دعتنا للنظر إلى المجتمع على أنه عضوى.

إن المجتمع يباشر نمواً مستمراً، وأثناء نموه تصبح أعضاؤه متباينة، وأنه يعرض تزايداً فى البناء، وتأخذ الأجزاء المتباينة تلقائياً على عاتقها مناشط من أنواع متباينة. هذه المناشط ليست بسيطة الاختلاف، ولكن اختلافها ذات تخصص حتى أنه يستحيل أن يعمل أحدهما عمل الآخر.

المساعدات المتبادلة والمشاركة التى يعطيها كل جزء للآخر تعمل على التساند بين الأجزاء، وتجعل من الأجزاء المتبادلة الاعتماد تعيش كل منها بواسطة الآخر ومن أجله، وهكذا تشكل تجمعًا يتركب من نفس المبدأ كما فى الفرد العضوى individual organism.

«فصل ٢٧٠» لندع الآن المناظرة بين المنظمات الفردية أى الفرد ككائن عضوى، وبين المنظمات الاجتماعية «المجتمع». لقد استخدمت المناظرة بدقة، ولكن كمعبر «سقالة» لتساعدنى على بناء جسم متماسك من علم اجتماع استقرائى. لنرفع الآن المعابر «السقالات»، فإن الاستقراءات سوف تقف بذاتها.

لقد رأينا أن المجتمعات هى التجمعات التى تنمو: فى مختلف أنماط المجتمعات هناك تباينات كثيرة فى أسلوب الوصول إلى النمو، تلك الأنماط ذات الحجم الأكبر تنتج من التجمع ثم إعادة التجمع لتلك الأنواع ذات الحجم الأصغر، وتحدث هذه الزيادة بالالتئام المؤيد بتزايد الترابطات، تلك هى العملية التى من خلالها تشكلت أوسع الأمم مدنية.

مع الزيادة في حجم المجتمعات تسير الزيادة في بناء المجتمع. العشائر البدائية Primitive hords كان لايوجد فيها تأسيسًا لتمايز بين الأجزاء «أي أن العشر كان غير مقسم إلى أجزاء لكل جزء وظيفة». ويتمو العشر إلى قبائل أتت بعض التباينات في كل من القوى أو الأعمال لأعضائها. وباتحاد القبائل تتابعت التباينات، الحكومية والصناعية، وجدت المراتب الاجتماعية خلال كل المجتمع، وجرت أيضا التناقضات بين الأجزاء المختلفة المهن في مختلف المواقع. وتتضاعف مثل هذه الفروق والتناقضات كلما يتقدم التركيب ويتزايد. فهذه الفروق تتقدم من العام إلى الخاص. أولاً التقسيم الواسع بين الحاكمين والمحكومين، ثم في داخل الجزء الحاكم تقسيم إلى سياسي وديني وحربي، وفي داخل المحكومين تقسيم إلى فئات إنتاج الغذاء، والحرفيين اليدويين.

وعندما نعبر من الناحية البنائية إلى الناحية الوظيفية، نلاحظ أنه طالما أن كل أجزاء المجتمع لها طبائع ومناشط متشابهة، فإنه بصعوبة يكون هناك اعتماد متبادل، فإذا ماأخذت الأجزاء على عاتقها وظائف مختلفة فإنها تصبح متساندة «أي يعتمد كل جزء على الآخر» حتى أن الضرر لإحداهما يؤذي الآخرين، حتى تصل إلى المجتمعات الراقية، نرى أن ارتباك في أي جزء يسبب قلق عام «الكل الأجزاء». هذا التناقض بين المجتمعات النامية والمجتمعات غير النامية، ينشأ من حقيقة أنه مع تزايد التخصص في الوظائف يأتي تزايد في عدم القدرة عند كل جزء لإنجاز الوظائف التي للأجزاء الأخرى.

«فصل ٢٧٧» وهكذا التغيير من التجانس homogenity إلى اللاتجانس heterogenity يمكن تمثيله كالآتي: من القبيلة البسيطة المتماثلة في كل أجزائها إلى الأمة المتحدية المملوءة بالبناءات والوظائف غير المتشابهة. ومع تقدم التكامل واللاتجانس يسير تزايد التماسك.

ذلك يعني أن سبنسر فيما يختص بالديناميك سوسيال أبرز عددًا من العمليات المتمايزة وهي: ١- استمرار الحركة، ٢- التحرك من التجانس إلى اللاتجانس، ٣- تحرك المجتمع الدائم نحو التوازن.

ويذهب سبنسر إلى أن المجتمعات تتقدم بالضرورة من الحالة الحربية إلى الحالة الصناعية، وبذلك فهو يقدم نمطين من المجتمعات الحربي والصناعي، يقوم المجتمع الحربي على أساس إخضاع الفرد، فالتماسك في مثل هذا المجتمع يقوم على إخضاع أعضاء المجتمع لرئيس ونواب رئيس ويكون أيضا التصلب بدرجة عالية، وكذلك يكون التنظيم والترتيب وتوزيع المكافأة بأسلوب إرغامي وينبع كل ذلك من التركيز الشديد للحكومة، أما المجتمع الصناعي فهو يمنح الأفراد مكانات اجتماعية عالية، ويتميز بدرجة أعلى من التنظيم والترتيب واللاتركيز، وتوزيع المكافأة عن طريق العقود، هذه الأنماط الاجتماعية جوهريا تمثل مراحل التطور من البدائي إلى الحديث.

وإن كان سبنسر يذهب إلى أن المجتمعات تتقدم بالضرورة من الحالة الحربية إلى الحالة الصناعية، إلا أن هناك حدوداً يقف عندها هذا التقدم والتطور حيث يحل التفكك والانحلال والموت بعد ذلك وهذا الانحلال يحدث تدريجياً أيضاً. فهو بمثابة تطور معكوس أي تطور إلى الوراء[1]، وذلك لتتمشى هذه الفكرة مع نظرية التطور العضوي التي تنتهي بفناء العضو. ويحدث هذا بمجرد أن يصبح التوازن متصلب جداً حتى أنه يتحول إلى معوق للتقدم، ومن ثمَّ يتحطم النسق وتفنى النظم القديمة المتصلبة، وتنبعث نظم جديدة، وهكذا يحدث التغير عنده.

وهكذا يمكن القول أن سبنسر كان يرى العالم في حالة دائمة من التطور والتفكك والانحلال، واعتقد أن عمل علم الاجتماع هو تتبع هذه العمليات كما تحدث في المجتمع. فقد اعتبر أن التطور عملية عالية، وأن هذا قانون طبيعي عالمي. وكما فعل كونت قسم سبنسر المجتمع إلى ناحيتين استاتيك، وديناميك، ويوضح الجانب الاستاتيكي بناء النظم والأنساق الاجتماعية، بينما الديناميكي يتضمن عملية تطور البناء الدائمة، وأيضا قسم سبنسر المجتمع إلى نسقين رئيسيين، نسق داخلي وهو المتعلق بصيانة وتأييد وتوزيع الوظائف، والخارجي ويركز على الضبط الاجتماعي والترتيب الاجتماعي. هذه الأنساق الفرعية تعمل على المحافظة على بقاء المجتمع ككل عضوي أثناء عملية تطوره الدائمة.

---

(1) Koeing, S. : "Sociology, An Introduction to the Science of Society" Barnes and Nobels, New york, 1960,P,25.

اميل دوركيم EMILE DURKHEIM

(١٨٥٨ - ١٩١٧)

ولد دوركيم في فرنسا من أسرة يهودية، ودرس في مدرسة المعلمين العليا في باريس، واهتم بالقانون والفلسفة الوضعية لأوجست كونت، وترعرع وتربى دوركيم في ظل تقاليد عصر التنوير، وتأثر بالاضطرابات السياسية والاجتماعية التي عاصرها في شبابه.

وفي عام ١٨٨٧ حين استاذاً بجامعة بوردو حيث ألقى محاضرات قيمة في التربية الأخلاقية، وظهر في ذلك الوقت اهتمامه بدراسة المجتمع، حيث قدم فصلاً دراسياً في علم الاجتماع يعتبر الأول من نوعه في فرنسا، فأثار جدلاً كبيراً بين العلماء المهتمين بدراسة المجتمع. ووضح في دراسته تأثره بآراء أوجست كونت، وتطويره للمذهب الوضعي والنظرة العضوية إلى المجتمع التي ابتدأها أوجست كونت.

أهدافه:

كان عصر دوركيم يموج بتفسيرات متباينة للحياة الاجتماعية والمجتمع، منها التفسير النفسي والحيوي والفلسفي، ومن ثَمَّ كان هدف دوركيم الأول هو إثبات أنه إذا كانت هناك ظواهر طبيعية خاصة بالعالم الطبيعي، ظواهر حيوية خاصة بالكائنات الحية، فأيضا هناك نوع من الظواهرالخاصة بالحياة الاجتماعية ألا وهي الظواهر الاجتماعية Social phenomena وركز على المعايير الاجتماعية Social norms كمثل واضح لتلك الظواهر الاجتماعية من خلال إبراز تأثيراتها على المشاكل الاجتماعية في معارضة صريحة لتلك التفسيرات السيكولوجية. بل قدم هذا الموضوع كتاباً كاملاً يعتبر حتى اليوم من عيون كتب علم الاجتماع وهو كتاب قواعد المنهج في علم الاجتماع، ويدور هذا الكتاب حول إثبات أن الظواهر الاجتماعية هي خارج الإنسان وليست بداخله ومن ثَمَّ لا يمكن تفسيرها سيكولوجيا. وانطلق دوركيم من هذه إلى إثبات أن للمجتمع نفسه له

وجود مستقل عن أفراده المكونين لـه، وأنه أكبر وأعلى من رغبات أفراده، ومن ثمّ اهتم بما يسمى بالرغبة العامة ووضع مفـاهيم جديدة لظواهر اجتماعية كشف عنها مـثل العقل الجمعـى والإلزام الأخلاقى moral obligations، وخاصة فى حالة توجيه هذه الظواهر وضبطها لسـلوك الأفراد أثناء تفاعلهم داخل الجماعة، وذلك على خلاف مـا ذهبت إليه التفسـيرات السيكولوجية لسلوك الأفراد التى كانت سائدة فى أيام دوركيم.

ومن أجل هذا وضع دوركيم إطاراً اجـتماعياً خـارجياً كمنهج لدراسـة الوقائع الاجتمـاعية، وبهـذا استطاع دوركيم أن يساهم فى وجـود وتنمية علم الاجـتماع كعلم جديد له وحدته وموضوعه ومنهجـه ويتركز حول دراسة المجتمع كظاهرة لها وجودها الواقعى الخارجى المستقل.

نظرية التضامن الاجتماعى:

من أجل الهدف السابق ذكـره صاغ دوركيم مفـهوماً جديداً وهو مفـهوم العقل الجمعى وهو بالفـرنسية La concience collective، وبالإنجليزية the goup mind واعتبـر دوركيم أن العقل الجمعى ظاهرة اجـتماعية واقعية محسوسـة وملموسة. ويقصـد بهذا القول أن العـقل الجمعى شـأنه شأن الظواهر الاجـتماعية يقوم فى المجتمع من لطـرة المجتمع تلقائياً نتـيجة التفـاعل بين أفراد المجتمع، ويسـتمر فى البقاء بشكل معين وتتشربه الأجيال خلال التنشئة الاجتماعية أو أثناء التربية سواء فى المدرسة أو المجتمع.

ويعتبر دوركـيم أن العقل الجمعى يتمثل فى العادات والعـرف والتقاليد والذوق العام والرأى العام وما اصطلح عليه أعـضاء المجتمع من نظم، أى أنه يمكن القول أنه يتركب فى مجمله من المعايير التى تحدد وتوجه سلوك أعضاء المجتمع، ومن ثمّ فهو ملزمًا لهم، بمعنى أنه أمر وله هيبتـه وجزاءاته إذا نكر أحد من أعضاء المجتمع فى الخروج على سنه، فهو يمثل قوة ضـاغطة موجهة، ويقاوم من يحاول الخروج عنـا رسمه من حدود للسـلوك الإنسـانى فى مختلف المواقف الاجـتماعيـة. وقد أثارت هذه النقطة جـدلاً حول حرية الفـرد فى المجتمع وهذا القـهر الذى يـباشره

العقل الجمعي. ولكنه استطاع دوركيم أن يعالج هذه النقطة فبين أنه إلزام مفيد. إذ يقدم العقل الجمعي صيغًا ثقافية كاجـوبه على أسئلة تثيرها مواقف اجتماعية، مثل ماذا افـعل في هذا الموقف؟ فالعقل الجـمعي يقدم هنا إجـابات جاهزة قد تشـربها وعرفها أعضاء المجتمع فهو إذن إلزام مفيد.

ليس هذا فـقط بل إنه يعـمل على إيجـاد التناغـم والانسجـام بين أعـضـاء المجتمع، ذلك أن العقل الجمعي ينشأ أصلاً من التماثل بين أعضاء المجتمع

وما اتفقوا عليه من أساليب للسلوك فهي عـاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم. فهو إلزام لا يقع على أفراد مـعينين دون غيرهـم إذ له صفة العمـومية فهـو يشملهم جميعًا فهو عام بالنسبة لهم. ومن ثَمَّ يحدث التفاعل الاجتماعي وتقوم العلاقات الاجتماعية في يسر وسهولة، ومن ناحية أخرى يكون الصراع عند حده الأدنى، ذلك أن التوقـعات للفعل ورد الفـعل معروفة مـسبقًـا لأعضاء المجتـمع، إذ قد حددها العقل الجمعي لهم من قبل. فهناك تساند وتكامل بين عقل الفرد والعقل الجمعي لما يقدمه الأخير من مـساعدات للأول.

ويلاحظ أن هذا لا يعني إلغاء العقل الفـردي بمعنى أنه ليس له أن يغير أو يبدل في أحكام العـقل الجمعي، ذلك أن الـعقل الجـمعي نفسـه ماهو إلا نتـاج تفاعل أعضاء المجتمع، ومن ثَمَّ فكل فرد من أفراد المجتمع قد شارك في صنعه، وبالتالي لديه القدرة في المشاركة في تغير ما يحتويه العقل الجمعي من معايير. ولهذا يمكن القول أن العقل الجمعي يتغير في استجابة للتغيرات الحادثة في المجتمع.

ومن ناحية أخـرى يعني هذا تشابه العقل الجمـعي في المجتمعات المتـشابهة في أشكالها الاجتـماعية مثل المجـتمعات التوتمية، فـفي مثل هذه المجتمـعـات يتشابه العقـل الجمعي فـي داخلية الأشكال، ذلك أن هذه المجـتمـعات تتـشابه ظروفـها الاجتماعية وخاصـة في مظاهر تركيـبها العام، أي في بنائها الاجتماعي. فهناك إذن ترابط وثيق بين هذا العقل والشكل الاجـتماعي العام، أي بنية المجـتمع. وتقودنا هذه الفكرة إلى فكرة أخـرى وهي أن العـقل الجـمعـي يتغـيـر بتغـيـر الأشكال الاجتماعية للمجـتمعات، فهو إذن عقل متغير بتغيـر الزمان والمكان تبعًا لتغير بناء

المجتمع. ومن هنا أمكن لدوركيم أن يقول بتعدد العقول الجمعية بتعدد الأشكال الاجتماعية حتى فى داخل المجتمع الواحد.

ففى المجتمعات الكبيرة أى المركبة حيث يتركب المجتمع من أشكال اجتماعية متعددة أى من جماعات اجتماعية كثيرة. فيصبح لكل جماعة اجتماعية عقل جمعى، فمثلاً فى الولايات المتحدة يمكن القول أن هناك عقل جمعى للفلاحين وعقل جمعى للعمال وعقل جمعى للبيض، وعقل جمعى للسود.

وتقودنا هذه الفكرة إلى الفرق بين المجتمعات ذات العقل الجمعى الواحد حيث تكون المجتمعات بسيطة متجانسة التركيب، أى أن بنائها الاجتماعى يتكون من جماعة واحدة. وتلك المجتمعات المعقدة التركيب أى التى يتكون بنائها الاجتماعى من جماعات متعددة، أى عقول جمعية متعددة.

ويعتبر دوركيم أنه حيث يكون هناك عقلاً جمعياً واحداً يوجه سلوك الأفراد تشتد وطأته إذ ليس هناك منازع لسلطانه، فيسيطر هذا العقل الجمعى على عقول الأفراد وأخلاقياتهم وسلوكهم. ويبدو ذلك واضحًا فى المجتمعات البدائية، أو المجتمعات الصغيرة فى البادية مثل القبائل أو المجتمعات البسيطة فى الريف مثل الكفور والنجوع، حيث تكون عملية الضبط الاجتماعى قائمة على أساس ما يتضمنه العقل الجمعى من معايير توجيه.

وكانت المجتمعات القديمة التى يقصدها دوركيم هى تلك المجتمعات البسيطة التركيب مثل المجتمعات التوتمية التى تتكون من جماعة اجتماعية واحدة، وحيث التماثل بين الأفراد يبلغ أقصاه، وبالتالى تبلغ أيضا قوة العقل الجمعى أقصاها، ومن ثَمَّ يصبح التضامن والتماسك والتكامل الاجتماعى أقصاه أيضاً. وهو ما أطلق عليه مفهوم التضامن الآلى فهم يتحركون وكأنهم كائن واحد له كيانه الذاتى، والفرد منصهر فى المجتمع، ويخضع العقل الفردى خضوعًا تامًا للعقل الجمعى، وتتخذ أوجه النشاط الاجتماعى الصفة الكلية الجمعية، فالملكية الجمعية، والمسئولية جمعية، والإنتاج جمعى. والحرب جمعية، والعبادة جمعية، فهى مجتمعات صغيرة تتعدد وظائفها ولا تتجزأ فى هيئات أو منظمات لأن صغر حجم

المجتمع لا يسمح بذلك. فالحياة الاجتماعية مقسمة ومجزأة فى مجتمعات صغيرة ومتعددة ومتشابهة فى شكلها الاجتماعى رغم أنها متمايزة، وهذا ما سماه دوركيم بالبناء الانقسامى Segmenjtal Structure، واعتبره عقبة كؤود فى وجه تقسيم العمل، وأنه لا بد من اختفاء هذا البناء الانقسامى ليظهر تقسيم العمل.

فتقسيم العمل يتغير فى معدل مباشر مع الحجم والكثافة للمجتمعات وإذا تقدم تقسيم العمل بصفة مستمرة فى مجرى النمو الاجتماعى، فذلك يرجع إلى أن المجتمعات أصبحت أكثر كثافة وحجمًا، ولا يعنى القانون السابق أن النمو والكثافة للمجتمعات يستلزمان بالضرورة تقسيمًا أكثر للعمل، كما أنهما ليس الأداة التى يتحقق بها تقدم تقسيم العمل، بل أنهما علته الحتمية...

وطبقًا لأكثر النظريات شيوعًا وانتشارًا أن أصل تقسيم العمل فى عدم توقف رغبة الإنسان فى زيادة سعادته، فمن المعروف، أنه كلما زاد تخصص العمل يكون الناتج أعلى... والإنسان سيحتاج لكل هذه الأشياء، ومن ثمَّ سوف يبدوانه أكثر سعادة كلما امتلك أكثر، ونتيجة لهذا، قد يكون مدفوعًا طبيعياً للبحث عن تلك الأشياء، فذلك مسلم به... لقد قيل إن هناك تسبيع من الظروف من السهل تصوره نبه الإنسان عن بعض المميزات، فجعلته يبحث عن امتدادها الأبعد وأعظم منفعة ممكنة، وإذن سيكون تقدم تقسيم العمل تحت تأثير أسباب فردية وسيكولوجية..

إذا كان تقسيم العمل تقدم لزيادة سعادتنا لكان وصل إلى حدوده النهائية منذ زمن طويل، تمامًا مثل المدينة الناتجة عنه، ولكان كلاهما توقف، إذ لكى يوجه الإنسان هذا الوجود ليكون أكثر ملاءمة للسعادة، ليس من الضرورى جمع المنبهات من كل الأنواع. ولكان يكفى نمو متوسط لإعطاء الأفراد الكمية الكلية من السعادة التى كانت فى قدرتهم، ولكانت الإنسانية وصلت سريعًا إلى الحالة التى سوف لا تتقدم عنها أو تبحث منها. ذلك ما حدث للحيوانات فمعظمها لا يتغير منذ قرون لأنها وصلت إلى هذه الحالة من التوازن[١].

---

(1) Durkheim, Emile : "The Division of Labour in Society" Trans George Simpson. Glencoe Illinios: The Free press, 1949.p.204-237 مع التركيز.

ولكن ينمو تقسيم العمل باختفاء البناء الانقسامى ذلك لأن هذا الاختفاء هو السبب فى النمو، أو أن النمو هو سبب الاختفاء. الفرض الأخير غير مقبول. لأننا نعلم أن التنظيمات الانقسامية عقبة كؤود لتقسيم العمل ولا بد أن تختفى جزئياً على الأقل ليظهر تقسيم العمل. فتقسيم العمل يظهر فقط على قدر اختفاء البناء الانقسامى، للتأكد من ذلك، فإن مجرد ظهور تقسيم العمل يساهم فى الإسراع فى تناقصه الأخير، ولكنه يحدث ويقع فقط بعد ابتداء التقهقر، اختفاء هذا النمط «الانقسامى» يمكن أن يكون له هذه النتيجة لسبب واحد فقط. ذلك لأنه يعطى النشأة لعلاقات بين الأفراد الذين كانوا منفصلين، أو على الأقل علاقات أكثر قرباً مما كانت عليه.

هذه العلاقات وذلك النشاط المتشابك الناتج من كبر حجم المجتمع، إذا وافقنا على تسميته بالكثافة الديناميكية أو المعنوية، يمكننا القول أن تقدم تقسيم العمل هو فى معدل مباشر للكثافة الديناميكية أو المعنوية للمجتمع، ويلاحظ أن هذه الكثافة الديناميكية لا يمكن أن تحدث إلا إذا حدثت الكثافة المادية[1].

وهكذا يتقدم تقسيم العمل كتخصص كل جماعة فى عمل، ومن ثمَّ تكون فى داخل هذا المجتمع جماعات اجتماعية متعددة، وكلما كبر حجم المجتمع كلما تعددت الجماعات الاجتماعية، ومعنى ذلك أنه بدلاً من عقل جمعى واحد، تصبح سمة المجتمعات الكبيرة عقول جمعية متعددة، أى أن التضامن الآلى الذى كان يصنعه العقل الجمعى الواحد فى المجتمع الصغير يختفى، ويظهر نوع آخر من التضامن بين هذه العقول الجمعية وسمى دوركيم هذا التضامن بالتضامن العضوى. وبينما يعتمد التضامن الآلى على التماثل والتشابه بين أعضاء المجتمع، فإن التضامن العضوى يعتمد أساسه من التباين بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع.

وهكذا سوف نتعرف على نوعين من التضامن الإيجابى الذى يمكن التمييز بينهما بالنوعيات الآتية:

(1) Ibid, p.p. 256- 257.

١- يربط الأول الأفراد مباشرة بالمجتمع بدون أى وسائط. فى الثانى يعتمد على المجتمع لأنه يعتمد على الأجزاء التى يتركب منها.

٢- لا يرى الإنسان المجتمع بنفس الشكل فى كل من الحالتين، فى الأول مانسميه مجتمعًا منظم كلية من معتقدات ومشاعر عامة عند كل أعضاء الجماعة، ذلك هو النمط الجمعى Collective type. ومن ناحية أخرى المجتمع الذى تتماسك فيه بالأسلوب الثانى هو نسق من وظائف متخصصة مختلفة التى تحدد وحدة العلاقات. يصنع كل من هذين المجتمعين حقيقة واحدة. فهما وجهان لشيء واحد ولنفس الحقيقة، ومع ذلك لا بد من التمييز بينهما.

٣- من الاختلاف السابق ينشأ اختلاف آخر يساعدنا فى وصف وتسمية النوعين من التضامن.

التضامن الأول يمكن أن يكون قويًا فقط إذا كانت الأفكار والميول العامة بالنسبة لكل أعضاء المجتمع كبيرة فى عددها وعظيمة فى كثافتها عن تلك الميول والافكار التى تربط بين كل عضو والآخر بصفة شخصية، هذا النوع من التضامن يمكن أن ينمو فقط فى معدل مضاد للشخصية. هناك فى كل واحد منا عقلين اثنين، واحد وهو العام بالنسبة لجماعتنا «العقل الجمعى»، وجماعتنا ليست أنفسنا، ولكنها للمجتمع يعيش ويعمل من خلالنا. العقل الآخر، بالعكس، يمثل ذلك الذى بداخلنا والذى هو شخصى وواضح ومتميز، والذى يجعل من كل منا فردًا. التضامن الذى يأتى من التماثل يكون عند نهايته العظمى عندما العقل الجمعى يغلق تمامًا كل عقلنا «الفردى» ويتحد ويتطابق فى كل النقاط معه، ولكن عند هذه النقطة تتلاشى فرديتنا.

هنا يوجد قوتان متعارضتان تعمل على الدفع نحو المركز «مجمعة centripeted». والأخرى تدفع بعيدًا عن المركز «مشتتة centrifugal» ولايمكن أن يزدهر كلاهما فى نفس الوقت. إننا لا يمكن أن ننمى أنفسنا فى اتجاهين متعارضين فى نفس الوقت، فإذا كانت لدينا رغبة عارمة لنفكر ونعمل من أجل أنفسنا، لا يمكن أن نتجه بقوة للتفكير والعمل كما يفعل الآخرون.

إذا كان مـثالنا أن نقـدم منظراً فـريداً وشخصـياً، فنحن لا نـرغب في التشـبه بالآخرين. وأكثر من ذلك عند اللحظة التي يباشر فيها هذا التضـامن قوته، فإن شخصيتنا تتلاشى، لأننا لم نعد أنفسنا بعد، ولكن الحياة الجمعية collective life.

الجزيئات الاجتماعية Social molecules التي يمكن أن تتماسك بهذا الأسلوب يمكن أن تعـمل فقط بأسلوب يظهـر أنه ليس لديها أفـعال، أي أن ليس لدى أي جزء قدرة على الفـعل وحده أو لديه فعل خاص به، تماماً مثل جـزئيات الأجسام غيـر العضـوية، ذلك يوضح لماذا نقتـرح تـسمـية هذا النمط من التضـامن بالآلي mechanical. هذا المصطلح لا يـشيـر إلى أن هـذا التـضـامن ينتج بوسـائل آليـة وصناعـية. نحن سـميناه كـذلك فقط بالمناظرة مع التـضامن الذي يربط عنـاصر الأجسـام عـديمة الحياة. مـايبرر هذا المصطلـح هو أن الرابطة التي توحد الفـرد بالمجتـمع تناظر تماماً تلك التي تربط شيـئاً بشخص. يعـتمد العـقل الفردي على النمط الجمعي ويتبع كل حـركاته كما يتبع الشيء المملوك مالكه. في المجـتمعات التي ينمو فيها هذا النمط من التماسك بدرجـة عالية، لا يظهر الفرد. الفرد شيء يملكه المجتمع.

أما التـضامن الناجم عن تقـسـيم العمل فهو يختلف تماماً عن ذلك التـضامن السابق. إذ بينما يتضمن النمط السـابق أن الأفراد يتماثل كل منهم مع الآخر، فإن هذا النمط يفترض اختلافهم. الأول «التضـامن الآلي» ممكن فقط طالما أن شخصية الفرد امتصت في الشخصـية الجمعية، النمط الثاني ممكن فقط إذا كان كل واحد له مجال للفعل خاص به، يعني شخصـيته. ومن ثمَّ يصبح من الضروري أن يسمح العقل الجمعـي بترك جزء من العقل الفردي مفـتوحاً من أجل أن تؤسس الوظائف المتخصـصـة في هذا الجزء. وكلما امتد ذلك المجال «مجـال الفعل الخاص»، كلما زادت قوة التـماسك الناجم من التـضامن. وفي الحقـيقة يعـتمـد كل واحد على المجتمع بشكل أكثر شدة كلما زاد تقسيم العمل، ومن ناحية أخرى تصبح المناشط أكثر شخصية كلما زادت تخصصاً.

وفي خبـراتنا المهنيـة نحن نتطابق مع العـادات والخبـرات التي هي عامـة لكل إخواننا في المهنة. ولكن حتى في هذه الرابطة التي نخضع لهـا نجد أنها أقل كثيراً

فى ثقلها عن الـضبط الكامل للمجـتمع، كـما أنها تترك لإمكانيـاتنا مكانًا أوسع مفتوحًا للأداء الحر. وهنا تنمو فردية الكل فى نفس الوقت الذى ينمو فيه كل جزء من أجزائه. وهكذا يـصبح المجتـمع أكثر قـدرة على الحركة الجـمعـية. وفى نفس الوقت يكون لدى كل عنصر من عناصره حرية أكثـر للحركة. هذا التضامن يماثل ذلك الذى نلاحظه بين الحيوانات العليا. فى الحقيقـة كل عضو له وظيفته العضوية الخاصة وما هو أكثر من ذلك فإن وحدة الكائن العضوى عظيمة جداً عظم الفردية الملحـوظة لكل جـزء منه، ومن أجل هـذا التناظر نحن نقـتـرح أن نـسـمى ذلك التماسك الذى يرجع إلى تقسيم العمل، تماسكًا عضويًا [1].

وهكذا يعنى دوركيم بمفهـوم التضامن العضوى، أن كل جماعـة من الجماعات لها وظيفتها فى المجتمع، كجماعـة المدرسين وجماعة الأطباء وجماعة الفلاحين، هذه الوظائف تتكامل لتوفر الحياة للمجـتـمع ككل، تمامًا مثل الكائن البشرى الذى يتكون من أعضاء وكل عضو له وظيفته المستقلة، ولكن كل هذه الوظائف العضـوية تتكامل فى أداء الوظيـفة الكبـرى وهى حياة الكائن البـشرى، ومن هنا ســمى دوركيم هذا التضـامن بالتضـامن العضـوى.

وهكذا خلص دوركيم إلى أن التـضامن الاجتـماعى هو مؤسس على تقسيم العمل فى المجتمع، بمعنى انـه كلما كان تقسـيم العمل بـسيطًا كلـما كان التماسك أقوى وحيث تكون المعايير لها السيادة ومن ثَمَّ يكون الضبـط الاجتماعى فى أعلى حـالاته وبالتـالى مسـتـوى عـال من التكامل. وأيضـا ربط بين حـجم السكان وكثافتهم المعنويـة ومستوى تقـسيم العمل والتضامن الاجـتماعى، بمعنى أنه كلما كبـر حجم المجتمع وزادت كـثافتـه الديناميكية، ينتج عن ذلك زيادة فى تقـسيم العمل، وزيادة العلاقات الـتعاقدية، ومستوى منخـفض من التضامن والتكامل، وفى مثل هذه الوضعية الاجتمـاعية يكون عامل الضبط هو القانون، ويؤدى مثل هذا المجتمع إلى مسـتوى عال من الاغتراب وفقدان المعـايير، وعند هذا المسـتوى يرتفع معدل الانحـراف مثل الانتحار، طالما الرابطة بين الفرد والبناء الاجـتماعى أصبحت ضعيفة.

***

(1) Ibid: p.p.127-131.

فرديناند تونيز FERDINAND TONNIES

(١٨٥٦-١٩٣٦)

ولد فرديناند تونيز فى بلدة ازنيشتات Eisenstadt وهى مجتمع قروى وقد تتلمذ على تراث هوبز Hobbes، وهيجل Hegel، وأوجست كونت Comte وسبنسر Spencer، وعين فى جماعة كيل بألمانيا، وصار فيها استاذاً حتى فصله النازيون بالرغم من أنه كان من المتشيعين للاشتراكية الدولية فى بدء ظهورها.

ويعتبر تونيز المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع فى ألمانيا المعاصرة فقد ألف كتبًا فى علم الاجتماع أحدثت دوياً فى ألمانيا وخارجها، منها كتاب الجماعة المحلية والمجتمع العام، وكذلك كتابه مدخل إلى علم الاجتماع وكتاب روح العصر، بل أيضا أجرى بحوثًا تطبيقية، ذلك أنه عندما ألف فى النظرية الاجتماعية لم يعتبرها جزءا منفصلاً عن البحث الاجتماعى، بل اعتبر أن كل منهما مكمل وضرورى للآخر. ذلك دعاه إلى تقسيم علم الاجتماع إلى ثلاث فروع، الأول علم الاجتماع النظرى، والثانى علم الاجتماع التطبيقى والثالث علم الاجتماع التجريبى. وهذه الفروع الثلاثة تمثل وحدة العلم التى اصطنعت عليها كافة الاتجاهات الاجتماعية كموضوع للدراسة والبحث سواء فى ألمانيا أو خارجها[1].

ويقصد تونيز بعلم الاجتماع النظرى دراسة الحقائق الاجتماعية المجردة، ويعنى بذلك العلاقات الاجتماعية Social Relations، والتجمعات الاجتماعية Social Collectives والأجسام الاجتماعية Social Bodies أى المؤسسات والهيئات الاجتماعية. أما علم الاجتماع التطبيقى فهو عنده دراسة العمليات والأحداث التاريخية المؤدية إلى التطور الاجتماعى، وقد كتب بحوثًا فى هذا الموضوع وخاصة عن تطور المجتمع الحديث كما نشر عدة مقالات عن التقدم والتطور. ويعنى علم الاجتماع التجريبى استخدام حقائق ونظريات الاجتماع النظرى فى الدراسات البيئية والمحلية عن القيام بالمسوح والتحقيقات الاجتماعية، فهو علم يهدف إلى الانتفاع

---

(1) Barnes: Op. Cit., P. 231.

بالنظريات الاجتماعية فى الإصلاح الاجتماعى، ومن أهم بحوثه فى هذا الشأن ذلك المسح الذى قام به على أثر إضراب الملاحين فى ميناء هامبورج وعدة موانى أخرى لدراسة الموقف الاقتصادى والاجتماعى للملاحين.

نظرية الإرادة الإنسانية

أهدافه

كان هدف تونيز من دراسته المستفيضة فى الفلسفة والقانون الطبيعى والعلوم الاجتماعية سواء عند الألمان أو الإنجليز أو الفرنسيين، هو محاولة فهم المعنى الحقيقى لكل من المدرسة العقلية فى القانون الطبيعى من ناحية، والنظريات التاريخية والرومانتيكية «العاطفية» المعارضة من ناحية أخرى. أدت به هذه الدراسة العميقة إلى الانتهاء إلى أن كل صور التفكير التى يظن أنها غير العقلية أو الأقل تعقلاً ليست رشيدة، ولكن كل منها لها معناها الخاص، وهى فى النهاية مشتقة من الإرادة الإنسانية Human Will .فمن ثَمَّ أصبحت النظريات الاجتماعية عند تونيز معلومات اجتماعية وانعكاسات للظروف الاجتماعية وهى فى النهاية تعبيرات عن الإرادة الإنسانية.

وهكذا اتجه تونيز إلى دراسة المجتمع على أنه نتاج الإرادة الإنسانية، وأن هذه الإرادة هى أساس الوجود الاجتماعى. ويعتبر كتابه الجماعة المحلية Gemeinschaft والمجتمع العام Gesellschaft نظرية فى الإرادة الإنسانية قائمة على أساس محاولة فهم الطبيعة الإنسانية Human Nature ومن ثَمَّ فهى محاولة للمجتمع كوظيفة Function للإرادة الإنسانية.

نظرية الإرادة الإنسانية

كانت الثنائية أى تصنيف المواضيع إلى نوعين متقابلين هى الفكرة السائدة فى الدراسات سواء القانونية أو السياسية أو الاجتماعية فى القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين.

وكان تونيز مهتما بالنظريات العقلية وما يقابلها من النظريات الرومانتيكية «العاطفية» فى القانون والسياسة، ومن ثَمَّ اتجه تونيز إلى صياغة مفهومين تحليليين

متقابلين هما الجماعة المحلية والمجتمع العام وذلك على أساس مفهومين متقابلين عن الإرادة الإنسانية فهى إما أن تكون عاطفية وهى صفة الجماعة المحلية، أوتكون عقلية وهى صفة المجتمع العام.

ويعنى توينز بالإرادة العاطفية أنها الإرادة الإنسانية النابعة تلقائياً من الطبيعة البشرية، من عواطف المشاركة الوجدانية ووحدة المشاعر الإنسانية، ومن ثَمَّ فهى صفة الجماعة المحلية.

أما الإرادة العقلية، فهى الإرادة الإنسانية التى تظهر فى استجابة لحاجات المجتمع، إذ عندما يكبر حجم الجماعة المحلية ويتسع نطاقها إلى مجتمع كبير يضم عدة جماعات، ومن ثَمَّ تنشأ حاجات اجتماعية جديدة، ووظائف اجتماعية جديدة، ومن ثَمَّ تطور الإرادة العاطفية إلى إرادة عقلية تحكمية تعمل على إنشاء الوحدات الاجتماعية من مؤسسات ومنظمات لتشبع تلك الحاجات الاجتماعية الجديدة، وهكذا تتحول الجماعة المحلية إلى مجتمع عام على أساس تنظيم إرادى.

اتجه توينز بهذين المفهومين «الجماعة المحلية والمجتمع العام» ليشرح ويفسر العلاقات الاجتماعية، وبالتالى تفسير وشرح البناء الاجتماعى لكل من هذين النمطين من التجمعات البشرية.

وقسم توينز العلاقات الاجتماعية إلى علاقات إيجابية وهى تؤدى إلى تكامل المجتمع واستقراره ووحدة أهدافه، أما العلاقات السلبية. فهى تؤدى إلى الصراع والاختلاف وتفكك المجتمع وانهياره.

إذ يعتبر توينز «أن الإرادات الإنسانية توجد فى شكل علاقات متنوعة ومتقابلة، وكل من هذه العلاقات هى فعل متبادل، كما لو أن جزءا نشط أو يعطى بينما الجزء الآخر سلبى أو يستقبل. هذه الأفعال من طبيعة تميل إما إلى الإبقاء والحفظ preservation أوتميل إلى الإفناء destruction بمعنى أنها إما إيجابية أوسلبية.. كل علاقة من هذا النوع تعتبر كتعبيرات عن الإرادات وقواها. والجماعة التى تتشكل خلال هذا النمط الإيجابى من العلاقات تسمى اتحاد association "verbindung"، وينظر إلى هذه الجماعة كشىء كائن يعمل كوحدة سواء فى داخله أو فى اتجاه خارجه.

وأيضا العلاقة نفسها والاتحاد الناجم عنها يعتبر إما حياة حقيقية وعضوية وهذه هي الخاصية الأساسية للمجتمع المحلي Gemeinschaft" community"، وإما يعتبر بناء آلي وخيالي وهذا هو مفهوم المجتمع العام Gesellchaft" Society".

من خلال استخدام هذين المصطلحين سوف نرى أن التعبيرات منغرسة في مترادفاتها في اللغة الألمانية ولكن قد اعتاد الناس استعمالها بأسلوب عشوائي بدون تمييز. لهذا السبب سأقدم بعض الملاحظات لشرح التضاد العميق بين هذين المفهومين. كل أنماط الحياة الحميمة والخاصة المقتصرة على أصحابها. اينما اكتشفناها تفهم على أنها حياة في مجتمع محلي. أما المجتمع فهو الحياة العامة، إنه العالم نفسه.

في المجتمع المحلي مثلاً مع الأسرة، يعيش الإنسان فيها في ارتباط دائم بها منذ الولادة في السراء والضراء على السواء. بينما عندما يذهب الإنسان في المجتمع يذهب كما لو أنه في مجتمع غريب. وعادة نحذر الشباب من سوء المجتمع، بينما تعبير السوء المجتمع المحلي- إضافة كلمة سوء إلى مصطلح المجتمع المحلي- يناقض معنى المصطلح وينفيه.

المجتمع المحلي قديم، بينما المجتمع Society جديد كاسم وأيضا كظاهرة اجتماعية، أينما تزدهر ثقافة حضرية urban culture وتحمل ثمارها يظهر المجتمع كالعضو الملازم لها. والذي يعرف الناس القرويون القليل عنه، ومن ناحية أخرى، كل تفاصيل الحياة القروية تشير إلى أن المجتمع المحلي يوحد بين الناس بقوة وأنه أكثر حيوية، إنه الشكل الحقيقي والابقى للحياة معًا، وبعكس المجتمع المحلي، يكون المجتمع العام وقتي وسطحي. وتبعًا لذلك يجب أن نفهم المجتمع المحلي ككائن عضوي حي، بينما المجتمع العام تجمع ميكانيكي صناعي[1].

وهكذا اعتبر تونيز أن الجماعة المحلية القائمة على الإرادة العاطفية تتميز بالعلاقات الاجتماعية الإيجابية. ومن ثَمّ فنوع التضامن الاجتماعي فيها طبيعي، حيث يرتبط الفرد بالروابط الاجتماعية المستقرة، مثل روابط الدم، وهي في نظره

(1) Toennies, F. : "Community and Society "Gemeinschaft und Gesellschaft" trans by Charles, p. Looms. Michigan state university press, 1957 Book I. p. 33-44.

أساس كل جماعة لأن الأسرة هي نواة الجماعة المحلية. وفي الأسرة حيث تبتدئ العلاقات فيها باتحاد بين عضوين «زوج وزوجة» ثم ينتجان أعضاء جدد «الأبناء». وهكذا سرعان ما تتحول هذه العلاقات العضوية إلى علاقات عاطفية وروحية تتزايد حدتها نتيجة المشاركات الوجدانية.

ولكن الوحدات الأسرية لا تستطيع أن تعيش كل بمعزل عن الأخرى ومن ثمّ تتصل بأسر أخرى يجمعهم رباط جديد هو رباط الجوار، وفي كثير من الجماعات المحلية تبتدئ رابطة الجوار بين مجموعات من الأسر ذات الصلات القرابية سواء كانت قرابة دموية أو قرابة اجتماعية. ومن ثمّ نتيجة لهذا التجاور والتعاون المشترك والمشاركات الوجدانية تنشأ عادات وأعراف وتقاليد وقيم التي تصبح هي أداة الضبط الاجتماعي حيث يخضع لها أعضاء المجتمع خضوعًا تامًا فهي معايير الجماعة المحلية، ذلك نتيجة لانصهار أعضاء الجماعة في بوتقة الحياة الاجتماعية المشتركة.

وهكذا تكون الإرادة العاطفية صفة الجماعة المحلية التي يسود أعضائها التضامن الطبيعي، وتتميز بحدة التفاعلات والمشاركات الوجدانية والاتصالات المباشرة، فينشأ عن كل ذلك رابطة التجاذب العاطفي ووحدة المشاعر ووحدة المعايير القائمة على الدين والعرف والعادات، التي تؤدي بدورها إلى قوة الوحدة الجمعية، فتصبح الالتزامات جمعية والمسئولية جمعية، بل والملكية الجمعية في كثير من الجماعات المحلية.

أما المجتمع العام القائم على الإرادة العقلية التحكمية التي أنشأت جماعات اجتماعية أو أجسام اجتماعية «مؤسسات ومنظمات» لتحقيق أهداف معينة وهو يعني بمثل هذه المجتمعات المدينة والدولة حيث توجد الهيئات السياسية والأحزاب والنقابات والجمعيات العلمية والشركات الصناعية والتجارية والمؤسسات المالية والهيئات الترفيهية، فشكل المجتمع العام عبارة عن تركيب صناعي من أجزاء كثيرة ووحدات متعددة كلها قائمة على أساس إرادي. ويعتبر تونيز أن هذا الشكل الاجتماعي ينشأ تلقائيًا وهو الذي يدفع البناء الاجتماعي إلى التغير من الجماعة المحلية إلى المجتمع العام.

ويرى تونيز أنه عند التحول من الجماعة المحلية إلى المجتمع العام يحدث تحول في العلاقات الاجتماعية، من علاقات اجتماعية عاطفية روحية مفعمة بالمشاركة

الوجدانية، إلى علاقات اجتماعية تقوم على أساس من القانون- أى علاقات تعاقدية- لأن كل فرد لا يعرف الأخر، ومن ثمَّ يسود العلاقات الاجتماعية الشك والحذر والمنفعة الخاصة. فالعلاقات الاجتماعية كلها تنبع من إرادة عقلية تحكمية ذات تفكير تقديرى، تقدر مدى ما تجلبه هذه العلاقة أو تلك من منفعة. وهكذا يسود هذا المجتمع التنافس والصراع وتنتشر النزعات الانتهازية، فهى إذن علاقات اجتماعية سلبية.

وفى مثل ذلك المناخ الاجتماعى الذى يسوده علاقات اجتماعية سلبية، يجد الفرد أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، فهو ينضم إلى جماعة أو طائفة أو طبقة يستمد منها وجوده الاجتماعى. يخضع لها ولمعاييرها، ودعمها بكل قوته فى كل مواقفها وفى كل منافساتها وكل صراعاتها مع الجماعات أو الطبقات الأخرى، وكلما كبر المجتمع وتعددت أنشطته، تزايدت هذه الجماعات وتمايزت كل عن الأخرى وتضاربت مصالحها واشتد الصراع بينها.

وقد أفصح تونيز فى كتابه «روح العصر الحاضر» عن استيائه من التطور الحديث الذى أدى إلى نشأة المجتمع العام حيث تسود العلاقات الاجتماعية التقديرية والمادية والانتهازية التى حلت محل العلاقات العاطفية والروحية والمشاركات الوجدانية.

وهكذا خلص تونيز إلى أنه بما أن المجتمع وظيفة Function للإرادة الإنسانية وبما أن الإرادة الإنسانية نوعان، الأولى إرادة عاطفية روحية، والثانية إرادة عقلية تحكمية فمن ثمَّ ينقسم التجمع البشرى إلى نوعين:

١- الجماعة المحلية كوظيفة للإرادة العاطفية وتعبيراً عنها. ويمثل تلك الإرادة المجتمعات التقليدية والمحلية القائمة على أساس العلاقات الأسرية، ومعايير الحب والتفاهم واللغة المشتركة.

٢- المجتمع العام كوظيفة الإرادة العقلية التحكمية ويمثلها بصفة خاصة المجتمعات الصناعية القائمة على أساس علاقات لا شخصية ونفعية، ومعايير القيم الاقتصادية، والروابط هى روابط الطبقات الاجتماعية والتعاقدات الاقتصادية.

مثل هذا التقسيم يشابه تقسيم دوركيم للمجتمعات على أساس نمطى التضامن الاجتماعى.

الوظيفية البنائية

STRUCTURE FUNCTIONALISM

الظروف الاجتماعية

تعتبر النظريات الوظيفية البنائية رد فعل المنظرين لحاجات السياسة والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المعاصر، ولقد نشأت هذه الحاجات عن الحرب العالمية الأولى والثانية، وكذلك الأزمة العالمية التي وقعت سنة ١٩٣٠، وكان لها آثار اجتماعية واقتصادية واضحة على الحياة الاجتماعية، وأيضًا المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الناشئة عن النمو السريع في التكنولوجيا، والتي عادة تسمى بالمشاكل التكنولوجية.

أما المنظرون أنفسهم فأغلبهم من فئة المثقفين من الصفوة الذين كان معظمهم يحاول استخدام فلسفة القرن التاسع عشر التي تركز على أهمية القوانين الطبيعية والتغيير الاجتماعي الذي يتصف بالتقدم، وكذلك نزعة الإصلاح الاجتماعي، والمناظرة العضوية للمجتمع في داخل محتوى نسق قيم نفي وعملي وغير مثالي.

هذه النظرة تعتبر المجتمع كنسق ذي علاقات متبادلة ومتساندة بين أجزائه، ويتطور، ولديه ككل موجهات نحو التوازن، ويمثل حاجات النسق المهمة أو وظائفه.

وهكذا تعتبر الوظيفية البنائية محاولة عملت من أجل إنشاء نظرية عامة عن المجتمع تقوم على أساس افتراض أن المجتمع يوجد ويمتلك حقيقة مستقلة، أو بمعنى آخر، وجودًا كنسق اجتماعي له خواص تشبه خواص الإنسان الأخرى الموجودة في الكون، أي مثل الأنساق الطبيعية والأنساق الحيوية.

ومن ثمَّ يصبح بؤرة علم الاجتماع طبقًا للوظيفية البنائية هو اكتشاف الخواص الأساسية للنسق الاجتماعي وأسلوب تطورها وذلك من أجل الوصول بالتغيير الاجتماعي إلى أقصى درجة من النظام.

ويلاحظ أن أصحاب النظرة الوظيفية البنائية لا يتفقون جميعًا حول الوظائف الأساسية التي يتضمنها المجتمع فمنهم من يذهب إلى أن المجتمع له نفس الخواص والصفات التي للأنساق العضوية، وخاصة مبدأ التجانس والتوازن، بينما آخرون اعتبروا المجتمع نسق معياري يوجد في داخل الأفراد أكثر من خارجهم.

وهكذا نجد أن النظرية الوظيفية البنائية تعطين كبيرين النمط الطبيعي من ناحية، والنسق المعياري من ناحية أخرى، وعلى أي حال فكل منهما يعتبر المجتمع نسق أو وحدات كبرى macroscopic يتطور، وقائم على وظائف مهمة معينة. والفرق الرئيسي بين نظرية وأخرى هو الاختلاف حول تلك الوظائف أكثر من الاختلاف بين أشكال النظريات.

***

تالكوت بارسونز

TALCOTT PARSONS

(١٩٠٢ - ١٩٧٩)

ولد تالكوت بارسونز في كلورادو بالولايات المتحدة في سنة ١٩٠٢. ولقد اهتم في بدء حياته بعلم البيولوجي Biology، حيث كان يدرس في كلية امهرست Amherst. وقد اتصل بعلماء الأنثربولوجيا الوظيفية Anthropological Funtionalism في مدرسة لندن الاقتصادية امثال مالينوفسكي Malinowisk الذي أثار فيه الاهتمام بالمدرسة الوظيفية، كما درس على أيدي علماء الاجتماع الإنجليزي أمثال هوبهوس Hobhouse وجنزبرج Ginsberg. وعندما اتجه إلى ألمانيا ليدرس في جامعة هايدلبرج التي حصل منها على درجة الدكتوراه. تأثر بأفكار علماء الاجتماع الألمان أمثال: فيبر Weber وزمبارت Sombart. ثم عاد إلى الولايات المتحدة وعمل مدرسًا في كلية امهرست، ثم انتقل إلى جامعة هارفرد، وانضم إلى قسم الاجتماع، وابتدأ من هنا تاريخه في علم الاجتماع. وقد عاصر بارسونز سنين الانطلاق في المعدلات العالية للصناعة الأمريكية، كما عاصر سنين الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٣٠-١٩٣٤م).

ولقد كان بارسونز غزير الإنتاج العلمي فقدم للمكتبة الاجتماعية مؤلفات كثيرة، أهمها:

١- بناء الفعل الاجتماعي وصدر سنة ١٩٣٧.

«The Stucture of Social Action»

٢- النسق الاجتماعي وصدر سنة ١٩٥١ «The Social System».

٣- المجتمعات: تطورها ومقارناتها صدر سنة ١٩٦٦.

Societies: Evolutionary and Comparative Perspectives.

٤- نسق المجتمعات الحديثة صدر سنة ١٩٧١.

The System of Modern Societies.

أهدافه:

كان هدف بـارسونز الرئيـسي هو بناء نظرية عامـة عن المجتمع، نظرية يمكن ان تستـخدم للمجتمعـات بصـفة عـامة، على أساس أن المجتمعـات هي جزء من كل الأنساق الحية. مـثل هذه النظرية الوظيفية عن التنظيم الاجتمـاعي مؤسسة على رؤية بارسونز للكائن الحي أنه صانع القرار، مدفوعًا في ذلك بعوامل معيارية وموقفية، أي أن للفعل الاجتماعي ثلاثة حدود (فاعل actor عوامل موقفية Situational Factors، عوامل معيارية Normative Factors) ويلاحظ أن هذين العاملين الأخيرين (المعايير- الموقف) هي التي تبرز حاجات النسق، كما تعمل وظيفيًا على فهم السلوك الإنساني، وأكثر من ذلك أنه طبقًـا لهذه النظرة، طالما ان المجتمعات تمتلك صفـات عالمية، فإنه من الممكن عمل نظريات يمكن أن تستخدم لكل المجتمعات في تطورها ونموها[1].

وهكذا حاول بارســونز عمل نظرية خاصـة عن المجتمع والتطور الاجتـماعي. ويلاحظ أنه كان يـعيش في ظل النظريات البـيولوجيـة وخاصة التي تـأخذ بفكرة النسق، وكذلك كـان متأثرًا بالوظيفـية الانثروبولوجيـة، وكذلك علم اجتمـاع فيبر Weber. وهكذا جاءت نظرية بارسونز ذات أساس بيولوجي وظيفي بنائي، والتي في مضـمونهـا تعتبر نسقـية وتوازنيـة وتطورية. وقد اسـتخدم المنهج الـتاريخي والاستدلال والقياس المنطقي.

وافـترض بـارسونز أن نظريـته (عند مـسـتـوى معـين هي نسق من القـضـايا الاستدلالية) مؤسسـة على (نظرية الأنساق الحية عامة)[2]. كما افترض أن نظريته هذه ملائمة (لمعالجـة الأنسـاق الأكثر تعقدًا) عن طريق التولـيـف بين العناصر الأكثر بساطة وأوليـة عند مـستويات متباينة)[3]. (وهكذا تأخذ دراسة إضـافية للحقـيقة الاجتماعية).

---

(1) Parsons. T.: "The System of Modern Societies"
Prentic-Hall. Englewood Cliffs. N. J. 1971. P. 1.

(2) Parsons. T.: "Some Problems of General Theory in Sociology P. 42.

(3) Ibid.: P. 35.

الأسلوب الذي استخدمه بارسونز ليوثق تطور للمجتمع يتكون من المزاوجة بين الخطة النظرية وتقارير الحقائق التجريبية التي اختارها ليثبت ويؤكد التفسير النظري[1].

ويجمع هذه النقاط السابقة معًا يمكن بسهولة النظر إلى منهج بارسونز على أنه استدلال تاريخي عن نماذج العلاقات المجتمعية مؤسسة وقائمة على المناظرة البيولوجية التي درست بدقة وإتقان كبير، وعمل على تأييدها وإثباتها بواسطة المزاوجة والمطابقة بين الخطة النظرية والحقائق التجريبية.

بهذا الأسلوب وصل بارسونز إلى نظرية بنائية وظيفية متقنة ومحكمة للمجتمع، وذلك من خلال التعريف البيولوجي للحقيقة الاجتماعية.

نظرية النسق الاجتماعي

كان بارسونز غزير المفاهيم، فقد صاغ فيضًا من المفاهيم، حتى أن أشد الصعوبات التي يعانيها القارئ لمؤلفات بارسونز هي كثرة المفاهيم التي ابتدعها. وعلى أي حال سنحاول في هذا المقام أن نركز على أهم المفاهيم التي تساعد على فهم نظرية بارسونز، أما لو حاولنا أن نذكر كل ما صاغه بارسونز من مفاهيم فهي تحتاج إلى كتاب مستقل قائم بذاته. وسنحاول أن نقدم فكر بارسونز من خلال نظريته عن النسق الاجتماعي إذ أنها تتضمن في طياتها تقريبًا معظم أفكاره عن الفعل الاجتماعي والأنساق الفرعية (المنظمات الاجتماعية).

أولاً: اعتبر بارسونز أن النسق الاجتماعي العام يوجد بذاته sui generis بمعنى أن المجتمع يملك واقعًا وحقيقة اجتماعية مستقلة كنسق اجتماعي، عن وجود الأفراد.

ثانيًا: يبرز البناء الاجتماعي أو الأنساق الفرعية التي يتكون منها البناء (المنظمات organizations)، عددًا من الوظائف الأولية المهمة وتتكون هذه الوظائف من:

أ- التكامل integration بمعنى أن النسق يعتمد على مجموعة من المعايير التي تربط الفرد بالمجتمع فينتج التكامل المعياري normative integration في نسق المجتمع العام ككل.

---

(1) Parsons. T.: "The System of Modern and Societies" Ibid.: P. 139.

كما ينصب التكامل داخل الأنساق الفرعية على العلاقات التي تتم داخل النسق الفرعي. ويصبح النسق متكاملاً إذا تحقق التوازن بين ثلاثة عناصر وهي: الوسائل الثابتة (المكانة والدور)، والأهداف الشخصية للفاعل التي يريد تحقيقها من اشتراكه في هذا النسق (مثل المركز الاجتماعي، الأمن... إلخ)، وأخيراً الأهداف التي وجد من أجلها النسق- أي الإنتاج.

وحتى يكون الفاعل متكاملاً في البناء الاجتماعي يعمل النسق على أن تتضمن عملية التنشئة الاجتماعية لأعضائه غرساً للأدوار في شخصية الفاعلين حتى تقترب من خصائص المكانات الموروثة، فيحدث استدماج الفاعلين للأدوار، ومن ثَمَّ ينجز الدور على أكمل وجه بل ويرضى وسعادة[1].

ب- نمط المحافظة Pattern maintanance ويعنى به أن النسق بما يتضمنه من معايير وقيم لها عموميتها، يؤدى إلى المحافظة على نمط التفاعل فلا يخرج أو ينحرف عن حدود النسق.

ولكن النسق الاجتماعي العام يتضمن إلى جانب هذه المعايير ذات العمومية، معايير خاصة بجماعات اجتماعية أو أنساق فرعية مما قد يؤدى إلى وقوع الصراع بين هذه الجماعات أو الأنساق الفرعية أثناء تفاعلها داخل النسق العام، ونفس الشيء قد يحدث داخل بناء النسق الفرعي أي بين الوحدات المكونة له. ومن ثَمَّ فإن وظيفة نمط المحافظة سواء في المجتمع العام أو الأنساق الفرعية، العمل على المحافظة على عملية التفاعل فلا تخرج أو تنحرف عن حدود النسق، وذلك بواسطة ما يتضمنه المجتمع العام من معايير وقيم لها صفة العمومية ويمتثل لها كافة أعضاء المجتمع. ونفس الشيء بالنسبة للنسق الفرعي فإنه وإن كان يتضمن وحدات متباينة ذات معايير متباينة فإنه أيضًا يتضمن معايير يمتثل لها كافة أعضاء النسق الفرعي (قوانين ولوائح المنظمة مثلا) وهذا ما يضمن إدارة وحفظ التوتر والصراع في داخل حدود النسق ومن ثَمَّ يتوفر الاستقرار للنسق.

---

(١) لمزيد من الاطلاع يرجع إلى كتاب البناء الاجتماعي (المكانة والدور) للمؤلف والناشر.

وتتضح العلاقة بين الوظيفة الأولى (التكامل) والوظيفة الثانية (نمط المحافظة) من أن كل منهما يعتمد على فكرة المعايير ومدى تشرب وتمثل أعضاء النسق لمعاييره، فكلما تشرب وتمثل الأعضاء معايير النسق كلما قل التوتر والصراع وزاد التكامل سواء في داخل النسق الفرعي أو بين الأنساق الفرعية في المجتمع العام.

جـ- التكيف adaptation ويعني أن كل نسق اجتماعي عليه أن يتكيف مع البيئة الاجتماعية والمادية التي يوجد فيها. فالنسق الاجتماعي العام القومي عليه أن يتكيف مع المجتمع الدولي، كما يعني التكيف أيضًا أن يتكيف كل نسق اجتماعي فرعي داخل البناء الكلي، أي للمجتمع، أي أن أهم عمليات التكيف هذه هي التكامل مع الأنساق الفرعية الأخرى، بمعنى أن تصبح الوظيفة الأولية للبناء الفرعي هي التكيف مع البيئة المحيطة به، ولكي يستطيع بل ويصبح من السهل عليه تحقيق هذا الهدف هو محاولة سيطرته على البيئة الخارجية (بواسطة التكنولوجيا مثلاً).

وأيضًا تتعلق وظيفة التكيف بالعضو الفاعل للسلوك والدور الذي يشغله، وتفاعله مع النسق الاقتصادي بمعنى محاولة العضو التكيف مع البيئة الخارجية.

د- تحقيق الهدف Goal attainment، ويقصد به أساليب الأفراد الفاعلين من أجل تحقيق الهدف، بمعنى أن الأفراد أثناء إشباعهم لحاجاتهم يختلفون من حيث مكونات شخصية كل منهم، فنمط الشخصية يختار، بين البدائل المتاحة في النسق الثقافي، الأسلوب المتفق مع نمط الشخصية للحصول على الهدف.

وهذه البدائل عبارة عن خمسة بدائل سماها المتغيرات النمطية:

١- العاطفية في مقابل الحياد العاطفي: أي أن الفاعل إما أن يسعى إلى إشباع حاجته مباشرة وذلك هو النمط العاطفي، أو أن الفاعل يجبره الموقف على التخلي عن إشباعاته وهذا النمط يسمى نمط الحياد العاطفي.

٢- المصلحة الذاتية في مقابل المصلحة الجمعية. قد تسمح المعايير الاجتماعية في موقف ما يسعى الفاعل وراء مصالحه الذاتية، وقد تحرم في مواقف أخرى ذلك وتدفعه نحو تحقيق المصلحة الجمعية.

٣- العمومية فى مقابل الخصوصية، ويعنى بالعمومية القيم التى على درجة كبيرة من العمومية، أى لا تقتصر على جماعة من الجماعات بل يشترك فيها معظم أعضاء المجتمع، بينما يعنى بالخصوصية تلك المواقف التى يكون الفاعل فيها مشتركًا معه أحد أعضاء جماعته أو جيرانه. فيبدو واضحًا فى مثل هذا الموقف أن أنواعًا من القيم الخاصة بجماعة الجيران ستلعب دورًا رئيسيًا فى اختيارات الفاعل.

٤- النوعية فى مقابل الأداء، وكان بارسونز يسميها أولاً الوراثة فى مقابل الاكتساب ويعنى بها تلك المعالجة الأولية لشيء على أساس ماهيته فى حد ذاته أى حقيقة مواصفات الشيء، أو أن يكون الفعل على أساس تحقيق أهداف معينة موضوعة وهذا هو الأداء.

٥- التخصص فى مقابل الانتشار. يعنى أن العلاقة إما أن تكون محددة نوعيًا فى مجالها بحيث لا يكون هناك إلزامًا على الفاعل أكثر من تلك الحدود، أو تكون العلاقة غير محددة ذات مجال واسع، بحيث تتجاوز الالتزامات الحدود المرسومة والمتوقع من الفاعل إتيانها.

ثالثًا: ويتركب النسق الاجتماعى بدوره من أربعة أنساق فرعية:

أ- المشاركة المجتمعية Societal community، ويعنى بها تكامل المعايير integrative noms.

ب- نمط المحافظة ويعنى به تكامل القيم.

جـ- السياسة polity وتستخدم للحصول على الهدف أو تحقيقه.

د- الاقتصاد economy وتستخدم للتكيف.

وبصفة عامة تكون البؤرة الرئيسية للنسق الاجتماعى (طبقًا لرأى بارسونز) التكامل الداخلى والتكامل المعيارى، بينما تصبح أسس المجتمع هى مستوى الإشباع والاكتفاء الذاتى بالنسبة لبيئاتها[1].

(1) Ibid.: P. 11.

هذه النظرة للمجتمع أقامها بارسونز على أساس الطبيعة الجوهرية للأنساق الحية على كل مستويات التنظيم والتطور والنمو، مع الادعاء بأن هناك استمرارية قوية أكثر من فئة الأنساق الحية[1]. وهكذا يبدو الاتجاه البيولوجي في نظرة بارسونز للمجتمع.

وأكثر من ذلك، في خط متوازي مع هذه المناظرة بين النسق البيولوجي والنسق الاجتماعي، يعتبر بارسونز أن أساس للمجتمع هو الميل نحو التوازن أو الانسجام. العمليات الرئيسية في داخل هذا الميل هي تلك التي تربط وتعمل على تداخل الأربعة أنساق الفرعية للفعل. وتعمل على تخللها المتبادل وتشابكها وتعمل على غرس الظواهر الثقافية والاجتماعية في الشخصية، وأخيراً تأسيس Institutionali-zation أن العناصر المعيارية كبناءات. بمعنى أن العناصر المعيارية من كثرة ممارسة مظاهرها الوظيفية لمدة طويلة، تتأسس -أي تتحول إلى نظام، وتصبح على درجة عالية من التنظيم ومن ثمَّ تتطلب تطابقًا دقيقًا مع توقعات الوظيفة. ذلك لأنها تتضمن درجة عالية من التقنين، حتى لا تترك لأداء الوظيفة مجالاً للصدفة أو الاجتهادات الفردية.

إذن يكون بين أيدينا أشخاصًا قد غرست فيهم الظواهر الثقافية والاجتماعية أي استدمجوا الأدوار الاجتماعية، أي مؤهلون لأدائها على أكمل وجه، ومن ناحية أخرى أدوارًا اجتماعية على درجة عالية من التنظيم والتقنين. عند ذلك يمكن اعتبار النسق الاجتماعي على درجة عالية من التكامل وموجه نحو التوازن Equilibrium-orianted.

وهذا النسق لا يمكن النظر إليه على أنه ساكن static، إذ أنه يمتلك قدرة فائقة على التكيف للتطور والنمو بطريقة تؤدي إلى مزيد من تحقيق الهدف (حاجات جديد) للمجتمع ككل، وفي نفس الوقت وبالتوازي زيادة في التكامل الداخلي للمجتمع.

---

(1) Parsons. T.: "Some Problems of General Theory in Sociology in Tiryakian (eds) Theoretical Sociology" Appleton Centure Crofts. N. Y. 1970. P. 35.

وتصبح العمليات الرئيسية للتغيرات تتكون من الفروق والاختلافات أى المزيد من التقسيم أو التخصص فى البناءات الوظيفية Functional Structure، ومزيد من الحرية للوحدات الاجتماعية من منابع القيود، وإدخال وتضمين بناءات جديدة فى النسق المعيارى، ومزيد من عمومية القيم، أى نمو أنساق القيم إلى عمومية أكثر من أجل المحافظة على التكامل أثناء عملية التطور[1].

***

(1) Parsons. ; "The System of Modern Societies"P. 26, 27.

والتر بكلي

WALTER BUCKLEY

(١٩٢٢-٢٠٠٦)

ولد بكلي سنة ١٩٢٢ وتعلم في جامعة براون Brown ثم جامعة وسكنسن Wisconsin. وعمل في جامعات مختلفة منها جامعة كاليفورنيا California وكان اهتمامه الأولى ينصب على علم الاجتماع، والتدرج الاجتماعي Social stratification، والحراك الاجتماعي Social mobility. وكتب في هذه المواضيع مقالات عديدة في معظم الصحف العلمية، ولكن يعتبر أهم ما قدمه في مجال النظرية كتابه «علم الاجتماع ونظرية الأنساق الحديثة «Sociology and Modern System Theory» .

أهدافه:

كان أهم أهداف بكلي استخدام منظور نظرية الأنساق الحديثة لعلم الاجتماع في محاولة تنمية إطار عمل من المفاهيم عن الحقيقة السيوثقافية Socioculture يتميز بمزيد من الديناميكية. ذلك أن بكلي رأى أن النظريات الموجودة تركز على النماذج الميكانيكية والعضوية، فمن ثمَّ حاول بكلي الانتفاع بديناميكيات تحول المعلومات وهي أسس الدراسة السيبرناتيكية Cybernetic approach لتنمية نظرة جديدة عن العمليات الموجهة للتنظيم الاجتماعي، وهذه الدراسة لها ملامح معينة تشترك مع الملامح العامة للبنائية الوظيفية.

نظريته عن الأنساق

افترض بكلي Buckkley أن دراسة الأنساق تنصب على مجموع العمليات الضرورية كوظيفة لعمليات التغذية Feedback المحتملة سواء الإيجابية أو السلبية التي صهرتها القرارات المنتخبة وجعلتها وسطًا، أو اختيارات الأفراد أو الجماعات المتضمنة مباشرة أو غير مباشرة عند اتخاذ القرار[1]. وطبقًا لهذه

(1) Buckley, W.: "Sociology and Modern Systems Thoery", Prentice-Hall. Englewood Cliffs. N. J., 1967, P. 80.

النظرة يصبح التنظيم حالة وقتية، تعتمد على خواص التغذية بالمعلومات Information Feedback وصنع القرار عند لحظة معينة من الزمن.

وباستخدام هذه النظرة فى علم الاجتماع، قسم بكلى Buckley المجتمع إلى قسمين رئيسيين، البناء Structure والعمليات Process.

الأول يتكون من البناء على مستويين، البناء السيكولوجى Psychological structure والبناء السيوثقافى Sociocultural structure.

وطبقًا لرأى بكلى، يتكون النسق السيكولوجى Psycological system من أربعة عناصر رئيسية:

أ- الفرد البيولوجى Biological individual.

ب- الأشياء البيئية موضع اهتمام الفرد.

جـ- فرد آخر.

د- الاتصالات والمعلومات المتبادلة.

هذه العناصر الأربعة تمثل نسق مركب متكيف، وهذه العناصر الأربعة كنسق من العناصر المترابطة والمتشابكة تمثل نسق اتصالات ضرورى وديناميكى، والذى يعتبر أساس التنظيم الاجتماعى عند المستوى السيكولوجى.

وعند المستوى السيوثقافى، عمل بكلى محاولة للوصول إلى المستوى الأمثل من الاستقرار والمرونة من أجل التكيف مع أنساق البيئة. وهناك خمسة عناصر رئيسية فى عملية التكيف هذه.

أ- منبع لتقديم التنوع فى النسق.

ب- المحافظة على مستوى أمثل لكل من توترات النسق وإشباع العضو.

جـ- أسلوبان -أى خطان- من شبكتين للاتصالات مع البيئة، أحدهما لتحقيق الهدف والحصول عليه، والثانى لتوفيق وملاءمة أنساق النظم الاجتماعية الرئيسية مثل: (العلم، التكنولوجيا، الدين).

د- نسق لصنع القرار.

هـ- ميكانيزم لنشر المعاني ورموز الأنساق ومجموعة الأخبار.

في داخل هذا البناء كلما زاد ارتفاع المستوى كلما كان الاعتماد أكبر على الاتصالات من الاعتماد على صلة الطاقة. وهكذا يقوم التنظيم على مجموعة من القرارات تعتمد على تغذية بمعلومات معينة وفي لحظة معينة من الزمن.

العملية في داخل نموذج الأنساق تتكون من انفتاح، ومدد معلومات، ومصادر للتغذية، وهدف، وعمليتان رئيسيتان:

أ- Morphostasis، شكل من العمليات المحافظة على التكيف بين المستوى السسيوثقافي والبيئة.

ب- Morphogenesis، ويعني عمليات تتجه نحو تنقية النسق أو تغييره.

هذه العمليات تعتمد على عناصر في عملية التكيف عند المستوى السسيوثقافي مثل (التنوع، والتوتر، والتعلم... إلخ).

ولتوضيح ديناميكيات النسق، استخدم بكلي أمثلة مثل عمليات نظام المفاوضة Negotiated order، وحل توترات الدور، وصنع الدور.

وهكذا يمكن القول أن بكلي قدم نمطاً سيبرناطيقي للوظيفة البنائية. وبتطبيق نظرية الأنساق في السسيولوجيا، اعتبر بكلي أن المجتمع مجموعة من الأنساق السيكولوجية والسسيوثقافية تقوم على أساس عملية التغذية بالمعلومات. هذه الأنساق الفرعية تتركب من بناء عملية، توازن وتطور، محافظة وتغيير، وهي متكيفة وتحاول الوصول إلى المستوى الأمثل من الاستقرار والمرونة.

مثل هذا النموذج واضح انه متوازي مع عمل بارسونز، فهذا النموذج يركز على الفرد البيولوجي، والحصول على الهدف، والاتصالات، والتكيف، والاستقرار، والنظم، وميكانيزمات النشأة الاجتماعية، وحفظ النسق تماماً مثل

التطور، والفرق هنا يكمن في الوظائف الأساسية كونها سيبرناطيقية أكثر منها بيولوجية، بينما اعتبر التنظيم الاجتماعي وقتي وديناميكي أكثر منه مستقراً وساكناً.

كما يلاحظ أن عمليات الوحدات الكبيرة Macroscopic مثل Morphostasis وMorphogeness ليست واضحة تماماً من حيث تعريفها وأسسها. وكذلك معظم الأمثلة التي ضربها بكلي عن الديناميكية كلها من نوع الوحدات الصغيرة Microscopic.

***

إدوارد ترياكيان
EDWARD TIRYAKIAN

[- ١٩٢٩]

تعلم ترياكيان في جامعة برنستن Princeton ثم جامعة هارفرد Harvard، وعمل في أقسام الاجتماع في جامعات برنستن وهارفارد وديوك Duke. وكان محور اهتمامه هي العلاقة بين الوجود وعلم الاجتماع، والتطور والتغير في الأنساق الاجتماعية. وكذلك النظرية الاجتماعية.

وفي هذا المقام نحن نهتم بما قدمه من محاولة جادة في إقامة نظرية ظاهراتية (فينومينولوجية Phenomenological theory) للوظيفة البنائية[1].

أهدافه:

حاول صياغة نظرية ظاهراتية عن النظام الاجتماعي من أجل الكشف عن الأبعاد المؤثرة في الوسط الثقافي للحقيقة الاجتماعية. وبذلك يجعل من الممكن إيجاد الضبط المناسب حتى يمكن أن يؤمن تغيراً سسيوثقافياً تقدمياً [٢].

نظريته الظاهراتية

في تضاد مع الوظيفيين السابقين، افترض ترياكيان وجهة نظر تختلف تماماً عن سابقيه فهي نظرة فينومينولوجية عن البناءات الاجتماعية، فهو يعاملها (كظواهر معيارية لضمائر ذوات متداخلة، والتي تصنع إطاراً للأفعال الاجتماعية في مجال اجتماعي)[٣]. ويلاحظ أن هذه الفكرة تشبه فكرة الضمير الجمعي عند دوركيم مع تحوير فيها، مما يكشف عن تأثر ترياكيان بدوركيم.

---

(1) Tiryakian, E. A.: "Structural Sociology" in Mckinney and Tiryakian (eds), Theoretical Sociology, Perspectives and Developments" Appleton Century Crofts, New York, 1970. P. P. 111- 135.

(2) Ibid.: P. 135.   (3) Ibid.: P. 115.

وهكذا يصبح البناء الاجتماعي عند ترياكيان عبارة عن بناء داخلي، بمعنى أنه داخل عقول الأفراد أي جزء من تركيب شخصيتهم، وكائن أي موجود، ومعياري Normative بمعنى أنه يتكون من مجموعة من المعايير التي ارتضتها ضمائر الذوات المتفاعلة. ومن ثَمّ يقدم هذا البناء الاجتماعي أسس تعريفات الحقيقة عند الأفراد والجماعات، بمعنى أن الأفراد والجماعات يرون الحقيقة الاجتماعية من خلال هذا البناء المعياري.

اعتبر ترياكيان (أي الظواهر الاجتماعية لهـا مظهر الإتيان ......) وهو يعني أن الظواهر الاجتماعية ليست لها صفة الدوام السرمدي، ولكنها في حالة تغير دائم، فما هو كائن منها آخذ في الزوال ويحل مكانه بالتدريج ظواهر جديدة، (وهذه الظواهر تستمد واقعيتها وظهورها من أرضية موجودة من الإمكانيات، وتلك الأرضية هي التي نشير إليها كبناء اجتماعي)[1].

الانتظام institutionalization أو التشكل Formalization تمثل العملية التي بها تطفو الظواهر الاجتماعية على السطح من أرضية الإمكانيات، وتصبح مرئية وتنتظم في البناء الاجتماعي.

واعتبر ترياكيان أن هذه الأرضية من الإمكانيات مقسمة إلى منطقتين الأولى المقدس Sacred والثانية العلماني Secular وقد نظمت المنطقتان في توازن متناقض Antithetical equilibrium بمعنى كلما زاد العلماني تناقص المقدس بنفس القدر، والعكس صحيح.

والمقدس عند ترياكيان يمثله المعتقدات والممارسات الدينية بينما العلماني يتركب من المناشط الاقتصادية والسياسية أو مناشط تحقيق الأهداف.

وتبعا لذلك افترض ترياكيان أن النظام الاجتماعي ينبعث كترتيب وتعقيد للجانب اللاعقلي Irrational من المقدس. وهي العملية البنائية الاجتماعية Social Structuration[2].

---

(1) Ibid.: P. 118.

(2) Ibid.: P. 123.

واعتبر أنه عند مستوى الوحدات الكبرى macroscopic تمثل الثقافة مجموعة من الرموز المتكاملة والتى تؤثر فيها ديناميكيا عمليات البناء والانحلال وذلك عند ظهور عناصر جديدة على السطح من أرضية الإمكانيات. وهذا أثناء حركة المجتمع من المقدس نحو مزيد من الترشيد للجانب اللاعقلى.

وهكذا يمكن القول أن ترياكيان حاول عمل علم اجتماع بنائى Steuctural sociology، دراسة نظرية تعتبر تحليلا ديناميكيا واسعًا للأنساق الاجتماعية، والتى اعتبرها نقطة البداية إذ هى تحليل الجواهر الأساسية للمجتمع كله كما هى موجودة فى إطار عملها الثقافى، والتى تعبر عن ماهية وواقعية تلك الإمكانيات المنبعثة منها)[١].

وبذلك اعتبر ترياكيان أن المجتمع نسق ثقافى ديناميكى رمزى موجود فى داخل الفرد، وهذا المجتمع فى تحول دائم من المقدس فى جانبه اللاعقلى إلى العلمانى فى توازن متناقض. هذا النسق من القوى يخضع لتأثير البناء الاجتماعى والأخلاقيات والترشيد. وكلها محتواه فى حدود نسق ثقافى متكامل.

وهكذا يمكن رؤية أن مثل تلك الدراسة من نوع دراسات الوحدات الكبرى ونسقية وتطورية. وإن كانت هذه الدراسة افترضت أن الوظائف الأساسية للمجتمع ظاهرتية وليست بيولوجية كما عند بارسونز ويكلى. وفى الحقيقة قرر ترياكيان بوضوح (أنا أرى دراستى تجديد للتحليل البنائى الوظيفى)[٢].

***

(1) Ibid.: P. 131.

(2) Ibid.: P. 131.

تحليل

وهكذا يمكن اعتبار هذا النمط من الوظيفية البنائية يتكون من النقاط الآتية:

١- يهدف إلى عمل نظرية عامة عن التطور الاجتماعي من أجل الوصول إلى أعلى ضبط وترتيب للتغير الاجتماعي.

٢- يعمد إلى اعتبار المجتمع نسق وإلى تقسيمه إلى أنساق فرعية.

٣- يعتبر نمط ظاهراتي معياري للوظيفية البنائية.

٤- يحاول عمل تنميط للتطور الاجتماعي.

إلا أنه يؤخذ على هذه النظرية بعض الملاحظات الآتية:

١- المفاهيم الظاهراتية مثل: أرضية الإمكانيات، والمقدس، والعلماني والبنائية والانحلالية تعريفاتها غير واضحة.

٢- الأمور الاجتماعية التي تعمل وراء هذه الظواهر غير واضحة التحديد والتعريف.

٣- خواص التوازن المتناقض أيضًا غير واضحة.

٤- عمليات البنائية والترشيد بالمثل غير واضحة ومبهمة.

وباختصار يمكن القول أنه بينما نظرية ترياكيان تسترعي الانتباه إلا أنها تتطلب مزيدًا من التوضيح، ومع ذلك فإنها تقدم أفكارًا جديدة عن أنماط الخارجية والرسمية التقليدية، وإن كانت فضفاضة كما بينا.

***

الفصل الثالث

نظريات الصراع

أولا: نظريات الصراع الكلاسيكية

- الظروف الاجتماعية

نسقي:
- ماركس
- بلوك

طبيعي:
- بارتو
- فيلن

ثانيا: نظريات الصراع المعاصرة

- الظروف الاجتماعية

نسقي:
- ميلز
- داهرندورف

طبيعي:
- ريسمان
- كوزر



نظريات الصراع الكلاسيكية

تنظر نظرية الصراع إلى المجتمع كنسق من جماعات متصارعة تمثل الكفاح من أجل الحصول على منابع الحاجات المادية الأساسية. والعوامل القابعة وراء هذا الصراع تتضمن مشاكل التنظيم الاجتماعي نفسه، مثل تغير السكان وأنساق تقسيم العمل، أو مشاكل الطبيعة البشرية ذاتها مثل سمات الشخصية والغرائز البشرية.

هذا النموذج، على ما سنرى، يتخذ نمطين في التفسير إما طبيعي أو نسقي وكل منهما تطوري في نفس الوقت مثل النظرية العضوية، وأيضًا نشأ ونمى إلى حد كبير في ظل فلسفة تقاليد عصر التنوير.

على أي حال نظرية الصراع تمامًا جماعة من المفكرين الذين كانت خلفيتهم وأيضًا خبراتهم الاجتماعية - تختلف كلية عن جماعة النظريات العضوية الذين كان اهتمامهم ينصب على الحاجات الإنسانية والتغير الاجتماعي أكثر من اهتمامهم بمشاكل النسق أو مشاكل التنظيم الاجتماعي، بل كانوا يحاولون إعادة النظام الاجتماعي. بينما بالنسبة لمنظري نموذج الصراع كان يتميز ذلك النموذج بأساسه الأيديولوجي، وهكذا أصبحت النظرية الاجتماعية عندهم عبارة عن رد فعل للمشاكل الاجتماعية كما يراها هؤلاء المفكرين.

الظروف الاجتماعية

عند دراستنا لنظرية الصراع سنجد أنها تشمل مفكرين أبعد ما يكونوا عن التجانس فهم مختلفون كل الاختلاف، ومع ذلك فإن هؤلاء المنظرين يجمعهم متشابهات عامة معينة، فأصولهم الاجتماعية تميل إلى الانتماء إلى الطبقة المنخفضة أو الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى، أكثر منها إلى الشرائح العليا من الوسطى أو الطبقة العليا، ولقد تلقى معظمهم نوعًا من تعليم عصر التنوير في مواضع معينة مثل الكلاسيكيات، والفلسفة والتاريخ والقانون والاقتصاد، وكان ينصب اهتمامهم على السياسة والنشاط العمالي، ولقد عانوا من وطأة الضغط السياسي،

والصراع في مجتمعاتهم، ولقد نشأوا في ظل فلسفات ومثل عصر التنوير من الطبيعية والمثالية والتطور والمذاهب العقلية والتقدمية والاشتراكية.

وهنا يجدر الإشارة إلى ملاحظة هامة وهي أن نظريات الصراع ليست وحيدة النمط في التطرف الأيديولوجي، إذ نرى بينها أشكال متعددة من النماذج، فنظريات الصراع تميل إلى الاختلاف في الأيديولوجية طبقًا للأنماط الهامة التي تستخدمها في التفسير، فـفكرة المشاكل الاجتماعية عند ماركس وبارك هي أكثر تطرفًا في التطبيق، بينما النظرية الطبيعية وبصفة خاصة التي أنشأها باريتو Pareto أكثر محافظة في نغمتها وهدفها، ومع ذلك فكل من النمطين يؤكد على الصراع والتغير في صياغاتها لمفاهيم المجتمع.

يمكن شرح الاختلافات السابقة بين نظريات الصراع سواء من ناحية التطرف الأيديولوجي أو من ناحية العوامل المستخدمة في التفسير وذلك في النقاط الآتية:

١- طبقًا للنظر إلى المشاكل الاجتماعية. يصبح الصراع من أجل إشباع الحاجات يؤدي إلى الصراع والتغير، بينما الدراسة التي تتخذ العوامل الطبيعية كأداة لتفسير نفس العمليات تفترض أنه هناك خصائص معينة متنوعة في الطبيعة البشرية (رواسب Residues) أو (سمات Traits).

٢- فمثلا يعتبر ماركس Marx وبارك Park أن الظروف الاقتصادية والبيئية تفسر اتجاه سلوك الصراع، بينما باريتو Pareto وفبلن Veblen يعتبران الأفكار والقيم أكثر فاعلية في تفسير نفس العمليات أي التغير والصراع، مما يفصح بوضوح عن أن نظرة باريتو وفبلن نظرة معيارية.

على أي حال كل من النمطين لنظريات الصراع نسقي وتطوري وطبيعي، مؤسسة على نظرية للمجتمع تراه وكأنه قائم على نوع من التوازن سواء كان مؤقتًا أو غير مستقر.

وهكذا تقدم نظرية الصراع نموذجًا نسقيًا للمجتمع وتشبه النظرية العضوية في بناء شروحها وتفسيراتها إلا أنها تختلف في نظرتها إلى المجتمع على أنه مؤسس على المنافسة والسيادة والصراع بدلا من الاتفاق والتكامل عند النظريات العضوية

والبنائية الوظيفية. كما أن نظريات الصراع تختلف فيما بينها فيما تركز عليه من عوامل اجتماعية ذات وحدات كبرى Macroscopic أو عوامل طبيعية ذات وحدات صغرى Microscopic، وتفترض أنها الأسس الهامة لعمليات التغير والصراع، وأخيرًا يمكن القول أن نظريات الصراع تختلف بشدة عن النظريات العضوية في تركيزها بصفة عامة على الحاجات الإنسانية أكثر منها على الأولويات الاجتماعية أو النسقية، أي أن نظريات الصراع تركز على الحاجات الإنسانية بينما النظريات العضوية والوظيفية تركز على حاجات النسق. وهكذا بينما قد يتشابه بناء هذه النظريات فإن المضمون الأيديولوجي لكل منهما يختلف تمامًا.



كارل ماركس
KARL MARX

(١٨١٨ - ١٨٨٣)

ولد ماركس في ألمانيا، وهو ابن محامي يهودي، ودرس التاريخ والفلسفة والقانون وشارك في الصحافة والسياسة المتطرفة، وشارك في الاتحاد الدولي للعمال وكذلك مجلس المنظمة الشيوعية، وكان سلوكه عبارة عن رد فعل للضغط السياسي والاقتصادي الحادث في ألمانيا.

أهدافه:

كان هدف ماركس تحليل العلاقة بين ظروف الحياة ويقصد بها الأبنية الفرعية الاقتصادية للمجتمع، وبين الأفكار ويقصد بها الأبنية العليا المعيارية في المجتمع، وذلك على أسس من الاستمرارية والتغير خلال التطور التاريخي للمجتمع، مثل هذه العلاقة المتبادلة كانت الأساس لأفكار ماركس، وهو يفترض أن الإنسان تحت تأثير التصنيع والاستغلال الرأسمالي تحول من رجل طبيعي إلى رجل مغترب Alienated man.

ومن ثَمّ فالهدف الأيديولوجي لماركس هو إعادة تحويل المجتمع إلى حالة يوجد فيها الرجل الطبيعي بدلا من الرجل المغترب، وذلك بإعادة تركيب البيئة الطبيعية والاجتماعية، وكرد فعل للضغط السياسي والاقتصادي في عصره نمى نظرية جدلية لتوجيه التغيير في المجتمع مع التركيز بصفة خاصة على البناءات الفرعية الاقتصادية، ولذلك سميت بالمادية الجدلية التاريخية.

النظرية المادية التاريخية

لقد كان ماركس متأثرا بشدة بفلسفة هيجل[١]. وافترض ماركس أن ديالكتيك هيجل هو أوسع مذهب من مذاهب التطور وأقرها مضمونا وأشدها عمقا.

(١) هيجل الفيلسوف الذي كانت فلسفة الجدلية المثالية واسعة الانتشار في عصر ماركس.

وفى الحقيقة لا يمكن فهم نظرية ماركس إلا إذا عرضنا بإيجاز لنظرية هيجل فى هذا الصدد، أراد هيجل أن يفسر التطور أو الصيرورة من الناحية الصورية المجردة. وأراد أن يستخدم فى هذا التفسير المنهج الجدلى أو التحليل الديالكتيكى، وفى هذا الصدد يقول إن كل فكرة تحمل فى طياتها عناصر نقيضها، ويطبق هذه الفكرة على الوجود، فإذا جردنا الوجود من كل صفة موضوعية بحيث يصبح وجوداً مطلقاً من الناحية الصورية، فإنه يصبح وجوداً خاليًا من الصفات والخواص وبذلك يستحيل الوجود إلى لا وجود أى أن الوجود المطلق واللاوجود شىء واحد، فكان كل فكرة تحمل فى طياتها عناصر نقيضها، واجتماع النقيضين على هذا النحو هو الذى يفسر ظاهرة التغير، فلو لم تكن عناصر النقيضين موجودة فى الشىء على حالته الأصلية لما تصورنا تغيره من حالة لأخرى[1].

هذا المنهج استخدمه هيجل ليكشف خلال أى عقل أو روح تتم العملية التاريخية نفسها فى المجتمع، عند هيجل الروح هى المحدد للتغير، فأحل ماركس محلها الظروف المادية بمعنى العامل الاقتصادى، نزعة المادية هى الجزء المقابل لنزعة المثالية عند هيجل. لقد كانت فلسفة هيجل تعالج تطور العقل والأفكار، كانت مثالية تجعل تطور الطبيعة والإنسان وعلاقات الناس الاجتماعية ناتجة عن تطور العقل، وقد احتفظ ماركس بفكرة هيجل عن حركة التطور الدائم، أعنى منهجه الديالكتيكى، أى نظرية التطور.

ولكن ماركس طرح وجهة النظر المثالية جانبًا، واعتبر أنه ليس تطور العقل هو الذى يفسر الطبيعة بل أن الأمر على العكس.. لقد كان هيجل يعتبر أن حركة الفكر، هذه الحركة التى يطلق عليها اسم الفكرة هى الصانع للواقع، بينما ماركس يرى حركة الفكر ليست إلا انعكاسًا لحركة المادة منقولة إلى فكر الإنسان ومتحولة فيه، فالحركة عند ماركس شكل وجود المادة.. فمثلا ذوبان الثلج وتحوله إلى ماء، هذه الحركة من الجامد إلى السائل أعطت العقل فكرة ان الثلج يذوب بالحرارة، فكأن كل المعانى والأفكار التى يحتويها العقل الإنسانى هى من حركة المادة فى الطبيعة، واعتبر ماركس أنه لم يوجد ولا يمكن أن يوجد فى أى مكان مادة بدون

---

(١) دكتور مصطفى الخشاب: علم الاجتماع ومدارسه - الجزء الثالث ص ٤٦.

حركة ولا حركة بدون مادة. ومن ثمّ اعتبر ماركس أنه بما أن إنتاج العقل الإنسانى هو آخر التحليل نتاج الطبيعة، وهكذا لا يوجد فى رأى ماركس إلا المادة أما الأفكار والوعى فهى مظاهر لاحقة وناتجة عن تحول حركة المادة فى العقل إلى أفكار ووعى.

وهكذا اقتنع ماركس بأنه يجب جعل علم الاجتماع متسجمًا مع الأساس المادى وإعادة بناءه استنادًا إلى هذا الأساس، فالمادية هى لب النظرية الماركسية، ولكن ماركس -لم يتوقف على حد تعبيره- عند مادية القرن التاسع عشر، إذ اعتبر أن المادية القديمة كانت تتوقف عن معرفة الطبيعة وهو انتقل بها إلى معرفة للمجتمع البشرى. وبذلك اعتبر ماركس أنه بتوسيع المادية لتشمل الظواهر الاجتماعية قضى على عيوب النظريات التاريخية السابقة له، إذ لم تكن تلك النظريات فى رأيه تأخذ فى اعتبارها غير الدوافع الفكرية لنشاط الناس التاريخى، دون أن تبحث عما يولد هذه الدوافع، ودون أن تدرك القوانين الموضوعية التى تحكم وتطور نظام العلاقات الاجتماعية، ودون أن ترى جذور هذه العلاقات فى درجة تطور الإنتاج المادى.

فالمادية هى لب النظرية الماركسية، فهى تنتمى إلى نزعة الحتمية الاقتصادية التى تذهب إلى أن العامل الاقتصادي هو المحدد الأساسى لبناء المجتمع وتطوره، وأنها أوضحت عملية ظهور جماعات المجتمع الاقتصادية وتطورها وانهيارها، وذلك من طريق تحليلها لمجموعة الاتجاهات المتناقضة وردها إلى ظروف المعيشة والإنتاج لمختلف طبقات المجتمع.

ويعبر ماركس عن ذلك فى عبارته المشهورة فى مقدمة كتابه مساهمة فى نقص الاقتصاد السياسى (أن الناس أثناء الإنتاج لحياتهم، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن إرادتهم، وتطابق علاقات الإنتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية، وتؤلف مجموعة علاقات الإنتاج البناء الاقتصادى للمجتمع، أى الأساس الواقعى الذى يقوم عليه بناء أعلى تشريعى وسياسى وتطابقه أشكال معينة من الوعى الاجتماعى. إن أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط

تفاعل الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بصورة عامة. فليس إدراك الناس هو الذي يعين معيشتهم بل على العكس من ذلك معيشتهم الاجتماعية هي التي تعين إدراكهم. وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها، تدخل في تناقض مع علاقات الإنتاج الموجودة أو مع علاقات الملكية -وليست هذه سوى التعبير القانوني لتلك- التي كانت إلى ذلك الحين تتطور ضمنها. فبعد أن كانت هذه العلاقات أشكالاً لتطور القوى المنتجة، تصبح قيودًا تهيله القوى. وعندئذ يتفتح عهد الثورة الاجتماعية، ومع تغير الأساس الاقتصادي يحدث انقلاب في كل البناء الأعلى الهائل بهذا الحد أو ذلك من السرعة[1].

هذه الفكرة هي محور النظرية الماركسية في التغير، فهي تعتبر أن الأسلوب الاقتصادي السائد في الإنتاج والتبادل يشكل في كل حقبة تاريخية معينة مع التنظيم الاجتماعي المنبثق بالضرورة عنه، الأساس الذي يقوم عليه تاريخ هذه الحقبة السياسي والفكري، والذي يمكن بالاعتماد عليه فقط تفسير التاريخ. فالماركسية تعتبر أن مرحلة النمو التكنولوجي تحدد أسلوب الإنتاج والعلاقات والنظم التي تكون النسق الاقتصادي. هذه المجموعة من العلاقات بدورها هي المحدد الرئيسي لكل النظام الاجتماعي.

ولكن في رأى ماركس أن النظامين الاجتماعي والاقتصادي لا يتطابقا لأن النظام الاقتصادي يتغير نتيجة النمو التكنولوجي، والنظام الاجتماعي باق على ما هو عليه فقد أنشأ أيديولوجيته وأصبحت له مصالح مختلفة، ومن ثمَّ يقاوم التغير. وهكذا يقع التناقض بين النظام القديم، وبين التصورات الفكرية التي انبعثت من تغير قوى المجتمع المنتجة وعدلت مفاهيم الناس عن أدوارهم فتقع الثورة.

وهكذا طبقًا لهذه النظرية التي يسميها أيضًا الماركسيون نظرية الصراع الطبقي افترض ماركس أن كل تاريخ البشرية هو تاريخ للصراع بين الطبقات بين الطبقة

---

(1) Marx, Karl: "A Contribution to Critique of Political Economy" trans. by N. I. Stone. New York. International Library Publishing Co. 1914. P. 11.

المستقلة والطبقة المستغَلة[1]. ذلك أن ماركس يفترض أنه في مرحلة الإنتاج الرأسمالي حيث صاحب رأس المال يملك وسائل الإنتاج ويحقق أرباحًا طائلة من فائض قيمة عمل العمال. فصاحب رأس المال هذا يأخذ النصيب الأكبر من الربح ولا يعطي العامل إلا ما يقيم حياته.

إذن المشكلة كلها عند ماركس تتلخص في عدم عدالة توزيع عائد الإنتاج بين صاحب رأس المال والعمال.

ويلاحظ أن عدم عدالة التوزيع مفهوم يتضمن عنصرًا أخلاقيًا. إذ أن التوزيع هو مفهوم اقتصادي، ولكن عدالته أو عدمها فعل أخلاقي، ومفهوم التوزيع بذاته مجردًا من كل صفة، أمر غير موجود في الواقع الاجتماعي، ولكن ما يعطيه الوجود الاجتماعي هو إضافة صفة العدالة أو عدمها، ومن ثَمَّ فعدالة التوزيع أو عدمها فعل اقتصادي قائم على قاعدة أخلاقية توجهه. إذ أن الإنتاج بذاته لا يقوم بعملية التوزيع، ولكن القائم بعملية التوزيع هو صاحب رأس المال، ومن ثَمَّ فعدالة التوزيع أو عدمها فكرة أخلاقية في تصورات الرجل الرأسمالي الذي يملك ويؤدي دور الموزع في النظام الرأسمالي الذي أعطاه هذا الحق. ومن ثَمَّ يتضح بجلاء أن مفهوم عدالة التوزيع أو عدمها، هي علاقة اجتماعية ذات طابع اقتصادي أساسها لا مادي. وذلك عكس ما ذهب إليه ماركس، ومن ثَمَّ فإن التغير في العلاقات الإنتاجية لم يؤد إلى تغير في البناء الأعلى، ولكن البناء الأعلى بما يحتويه من تصورات فكرية وعناصر أخلاقية هو الذي يشكل العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادي، أي هو الذي وجه عملية توزيع الربح، أي أن هناك عنصرًا أخلاقيًا سلبيًا عند أصحاب رؤوس الأموال هو الذي أدى إلى سوء عدالة التوزيع. فلو أنه وجد العكس أي عنصرًا أخلاقيًا إيجابيًا في تصورات البرجوازيين يؤدي إلى توجيه عملية التوزيع نحو العدالة، لما وجد ماركس مادة يستخرج منها نظريته.

والدليل على ذلك أن هذه العملية تغيرت في اتجاه عكس ما ذهب إليه ماركس، فقد افترض أن (نتيجة لاتساع استعمال الآلات ولتقسيم العمل، ضاع

(1) المستغِلة: الأولى بكسر الغين، والثانية بفتحها.

من عمل البروليتاريا كل صبغة شخصية، وضاع بذلك عنصر الإبداع فتلاشى من العمل جاذبيته وأصبح العامل عبارة عن ملحق بسيط للآلة لا يطلب منه إلا القيام بعملية بسيطة رتيبة سهلة التلقين. وبذلك أصبح اليوم، تكلفة العامل هي تقريبًا تكلفة وسائل المعيشة اللازمة للاحتفاظ بحياته والإبقاء على نوعه. إلا أن ثمن العمل كثمن أي بضاعة يساوي تكاليف إنتاجه، إذن كلما أصبح العمل باعثًا على الاشمئزاز هبطت الأجور)[1]. فالمشاهد أن أجور العمال لم تنخفض بل ارتفعت، أي أن أسلوب التوزيع في القرن العشرين اتجه في اتجاه مخالف لما تنبأ به ماركس، ومن ناحية أخرى لم يكن ذلك نتيجة لعوامل مادية، بل كان نتيجة لعوامل لا مادية أهمها انتشار التعليم والتضامن بين العمال، ونمو الاتحادات العمالية، وتدخل الحكومات في العلاقة بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال من أجل مصلحة المجتمع، ذلك كله أدى إلى مزيد من الديمقراطية وأدى إلى تغير في التصورات الفكرية عند كل من أصحاب رؤوس الأموال والعمال عن العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادي، وخاصة وضوح فكرة أن كل منهما يؤدي دورًا في مجتمع واحد يهم كل منهما نموه ورخاءه، وكل هذه عوامل لا مادية.

ومن الغريب أن ماركس نفسه أشار إلى أن المغير الحقيقي للبناء الأعلى ليس هو العلاقات الاقتصادية ذاتها ولكن هي عملية التثقيف والتدريب على ممارسة الحياة السياسية بين صفوف العمال فيعمل ذلك على تعديل تصوراتهم الفكرية ولكن استغراقه في إعجابه بماديته ستر عنه الحقيقة التي جرى بها قلمه. فهو عندما يتحدث عن صراع البرجوازية ضد الإقطاع، واستغلال البرجوازية للعمال يقول: (وترى البرجوازية نفسها مضطرة، في كل ميادين النضال هذه، إلى الالتجاء للبروليتاريا وطلب معونتها، فتجرها بذلك إلى مضمار الحركة السياسية وهكذا تقدم البرجوازية بيديها إلى البروليتاريا عناصر ثقافتها، أي أنها تسلمهم السلاح الذي سيحاربونها به)[2]. وفي موضع آخر يتحدث فيه ماركس عن الصراع الطبقي يقول: (يتخذ انحلال الطبقة الحاكمة والمجتمع القديم بأسره طابعًا يبلغ من حدته

---

(1) بيان الحزب الشيوعي- ٤٦.

(2) المرجع السابق- ص ٥٠.

وعنده أن جزءاً صغيراً من الطبقة الحاكمة نفسها ينفصل عنها وينضم إلى الطبقة الثورية، فكما انتقل فيما مضى قسم من النبلاء إلى جانب البرجوازية، كذلك في أيامنا هذه ينتقل قسم من البرجوازية إلى جانب البروليتاريا، وخصوصاً القسم المؤلف من البرجوازيين المفكرين الذين تمكنوا من الإحاطة بمجموع الحركة التاريخية وفهمها بصورة نظرية).

ومن ثمّ فالتحول في البناء الأعلى أى التصورات الفكرية طبقاً لأقوال ماركس هذه، لا يتبع في العلاقات المادية ولا تحدثه عوامل مادية، ولكن يعتمد أساساً على عملية التدريب والممارسة السياسية التى يباشرها العمال، فيتكون لديها عناصر ثقافتها. ذلك بالإضافة إلى عمليات التثقيف والتوعية التى يعمل بها مفكرو الحركة على تغيير مفاهيم العمال وتصوراتهم، فتدرك الطبقة العاملة التناقض فى علاقات الإنتاج أى تدرك عدم عدالة التوزيع.

وهكذا يلاحظ أن عدم عدالة التوزيع هى الفكرة المحورية فى النظرية الماركسية، وهذه الفكرة كما بينا تابعة من سلبية أخلاق البرجوازيين فى عصره، ولكن تعنت ماركس المادى أو أيديولوجيته أعمته عن هذه الحقيقة، وافترض أن عدم عدالة التوزيع راجعة لأن صاحب رأس المال يملك وسائل الإنتاج، واعتبر الملكية الخاصة هذه هى سبب استغلال أصحاب رؤوس الأموال لطبقة العمال. وبذلك أراد أن يمحو هذه الملكية الخاصة ويحولها إلى ملكية جمعية، ومن أجل هذا افترض أن هناك علاقة وثيقة بين النظامين الاقتصادى والسياسى حتى جعلهما كوجهى العملة لا يمكن فصلهما، فهو يقول: (إن كل الطبقات التى كانت تستولى على السلطة فيما مضى كانت تحاول تثبيت أوضاعها المكتسبة بإخضاع المجتمع بأسره لأسلوب التملك الخاص بها)[1]. ومن ثمّ جعل الطريق إلى تحويل الملكية الخاصة إلى ملكية عامة هو استيلاء البروليتاريا على السلطة، (ثم تستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لأجل انتزاع الرأسمال من البرجوازية شيئاً فشيئاً ومركزة جميع أدوات الإنتاج فى أيدى الدولة أى فى أيدى البروليتاريا المنظمة فى طبقة حاكمة)[2].

---

(١) المنشور الشيوعى– ص٤٢.

(٢) المرجع السابق– ص٦٦.

ومعنى هذا أن البروليتاريا، طبقًا لرأى ماركس ستخضع للمجتمع بأسره لأسلوب التملك الخاص بها، ولكن ماركس لم يفته هذا التناقض الواضح، ولكنه لم يستطع أن يجد له الحل العلمى الموضوعى، ولكنه حل هذا التناقض بعبارة خلت من الواقعية وامتلأت بالشطحات الخيالية اليوتوبية إذ يقول: «ما أن يصبح كل الإنتاج متمركزًا فى أيدى جمعية واسعة تشمل الأمة بأسرها، حتى تفقد السلطة العامة صبغتها السياسية. إذ أن السلطة السياسية بالمعنى الصحيح هى السلطة المنظمة لطبقة من أجل اضطهاد طبقة أخرى، فإذا كانت البروليتاريا فى نضالها ضد البرجوازية تبنى نفسها حتمًا فى طبقة. وإذا كانت تحمل نفسها بواسطة الثورة طبقة حاكمة، ثم بصفتها طبقة حاكمة، تهدم بالعنف والشدة علاقات الإنتاج القديمة، فإنها بهدمها علاقات الإنتاج القديمة تهدم فى الوقت نفسه ظروف وجود التناقض والتناحر بين الطبقات بصورة عامة، وبذلك تهدم أيضًا سيادتها ذاتها من حيث هى طبقة»[1].

إن قول ماركس (يصبح كل الإنتاج متمركزًا فى أيدى جمعية واسعة تشمل الأمة بأسرها) قول يجافى الواقع، إذ كيف يتم ذلك فى مجتمعات يتراوح تعدادها بين عشرات ومئات الملايين؟؟. ومن ثَمّ فهو قول يتصف بالخيال، إذ من الناحية الواقعية يصبح المجتمع سياسيًا واقتصاديًا خاضعًا لجماعة معينة من البروليتاريا وليس للأمة بأسرها أو حتى البروليتاريا بأسرها. ومن ثَمّ ينشأ السؤال الآتى طبقًا لرأى ماركس نفسه، ما هى الضمانات حتى لا تتحول هذه الجماعة التى وصلت إلى السلطة إلى طبقة جديدة تحل محل البرجوازية، أعنى لا توفر عدالة التوزيع، لأن التوزيع واقعيًا سوف يكون بيدها حيث أصبحت تملك واقعيًا وسائل الإنتاج وخاصة أنها أيضًا تملك السلطة؟!

وإذا كان ماركس يظن أن الضمان، كما صوره له خياله المثنوى الذى لا يريد مواجهة الحقيقة. أن هدم علاقات الإنتاج القديمة هو هدم فى الوقت نفسه لظروف وجود التناقض والتناحر بين الطبقات بصورة عامة فإن هذا ليس إلا ضمان وهمى ليس له أساس علمى، فهو أحل طبقة مكان طبقة أخرى، كما يمكن أن تكون

---

(١) المنشور الشيوعى- ص٦٧.

مستقلة كما كانت سابقتها، كما أن هدم العلاقات القديمة إذا كان يضمن هدم التناقض القديم على حد قوله، فإنه لا يضمن البناء الاجتماعي الجديد أو يحدد شكله أو اتجاه التغير فيه. فكأن النظرية الماركسية قد استطاعت أن تهدم القديم، ولم تستطع أن تخطط لبناء المجتمع الجديد، أعنى أن تضع ضمانات عدالة التوزيع فى المجتمع الجديد.

ذلك كله يرجع إلى تعنت ماركس المادى، وعدم رغبته في الاعتراف بأثر العوامل اللامادية، والأخلاقية بالذات فى توجيه الحياة الاجتماعية. ومن ثَمَّ تصبح الشيوعية أو الاشتراكية التى دعى إليها ماركس ما هى إلا أسلوبًا سياسيًا واقتصاديًا مثله مثل أى أسلوب اقتصادى أو سياسى وضعه البشر لا يستقيم أمره إلا إذا توفر لدى القائمين عليه أخلاقيات إيجابية تضمن عدالة التوزيع.

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر: ١-٣].

صدق الله العظيم

***

روبرت بارك

ROBERT PARK

(١٨٦٤ - ١٩٤٤)

ولد بارك في بنسلفانيا Pennsylvania، ابن رجل أعمال، وتعلم في جامعات هارفارد ومينيسوتا Minnesota وبرلين، وكذلك تعلم الفلسفة وعلم النفس ولقد تأثر بجورج سمل George Simmel أثناء دراسته في برلين ولقد تضمن تاريخ حياته العلمية اشتغاله بالصحافة، وأيضًا كان له دور قيادي في قسم الاجتماع بجامعة شيكاغو. ولهذا كان لأعماله مقام في الفكر والتقدم الامريكي مثل ما كان لأعمال جون دوى John Dewey وسمل. ولقد كان لبارك اتجاه إيكولوجي ecology في دراسة المجتمع. وكان يركز انتباهه على المنافسة والصراع على أنهما أساس التغير الاجتماعي. وتتضمن مؤلفاته ضغط الهجرة وضبطها صدر ١٩٢٢ The Immigrat Press and its Control وكذلك مقدمة لعلم الاجتماع.

أهدافه:

كان بارك يعتبر أن علم الاجتماع يبحث عن (الوصول إلى قوانين طبيعية natural lawe وتعميمات generalizations فيما يختص بالطبيعة الإنسانية والمجتمع، بغض النظر عن الزمان والمكان... قانون طبيعي يكون تقرير بصف سلوك فئة من الأشياء)[1].

وكان بارك يعتبر المجتمع مثله مثل الأنساق الاخرى في الطبيعة، ومن ثَمَّ ركز على أساسه الأيكولوجي وبصفة خاصة التوزيع المكاني للأفراد والجماعات. وكانت وجهة نظره فيما يختص بنظرية الصراع conflict theory تكمن في تركيزه على الكفاح البيئي للإنسانية من أجل الوجود والبقاء، التي تؤدى إلى عملية

---

(1) Park, R.E. and Burgess, E.: "Introduction to the Science of Sociology" University of Chicago Press, Chicago 1921.

ديناميكية مثل الصراع والتكيف والتى تصبح حالات مؤقتة فى النمو المستمر للمجتمع. وهكذا قدم بارك لنا نظرية فى الصراع أيكولوجية تشبه نظرية ماركس فى تركيزها على الدور الرئيسى للمشاكل الاجتماعية.

ومن أجل ذلك استخدم بارك أسلوب التاريخ الطبيعى، مع توليفة من دراسة الحالة والدراسة لتاريخ الحياة. هذا المنهج استخدم لتقفى آثار مراحل تتابع التطور والنمو عند جميع مستويات النسق الاجتماعى. وهنا يظهر أيضًا التشابه مع منهج ماركس من ناحية الاستقرار التاريخى.

النظرية

افترض بارك أن أساس الاستقرار الاجتماعى يكمن فى عملية التطور، وكان يرى أن التوازن الاجتماعى Social equilibrium يقوم على أساس التطور الاجتماعى.

وافترض أن الكائنات البشرية دائمًا منشغلة وباستمرار فى الكفاح من أجل الوجود والبقاء، وتصبح المنافسة بينهم من أجل الحصول على هذا الهدف، وتلك هى العملية التى يتميز بها المجتمع الإنسانى.

واعتبر أنه من ذلك الكفاح ينبعث نظام طبيعى يمكن رؤيته فى التوزيع المكانى للأفراد والجماعات، وأيضًا فى اعتمادهم بعضًا على بعض أى فى تساندهم.

فى داخل نظام الحياة biotic order السابق شرحه تؤدى المنافسة إلى العملية الأيكولوجية من السيادة والتعاقب.

وتصبح العمليات الاجتماعية الرئيسية فى داخل هذا النظام تتكون من المنافسة Compitition والصراع والتكيف accomodation والتمثيل assimilation. تكمن الأولى فى العملية التطورية التى تؤدى إلى اللاحق من العمليات الاجتماعية المتابعة، وتؤدى واقعيًا إلى التمثيل الثقافى Cultural assimilation. وهكذا تصبح العمليات الاجتماعية مؤسسة على القوى الطبيعية وخاصة المنافسة من أجل المصادر

وهذه تؤدى إلى تتابع تلك العمليات وهكذا يصبح الصراع عامل حياة وتطور ويؤدى إلى نتائج اجتماعية معينة. هذه الفكرة ليست مختلفة كلية عن فكرة الاغتراب عند ماركس التى تؤدى إلى الصراع من أجل المصادر وتؤدى إلى أشكال معينة من السيادة وفى النهاية تؤدى إلى أشكال معينة من التمثيل الثقافى.

واعتبر بارك أن النسق الاجتماعى يتكون من أسسه الايكولوجية التى يقوم عليها نظمه الاقتصادية والسياسية والأخلاقية. وهذه النظم تتأثر بالقوى الهامة (المنافسة- الصراع). وفى مركز هذا النسق وظيفة الضبط الاجتماعى وهى المشكلة الرئيسية للمجتمع.

من خلال هذه النظرية الديناميكية للمجتمع تعتبر نظرية بارك أن التغير الاجتماعى يتقدم خلال تتابع معين، أولاً عدم الرضى ثم القلق (أهمية القلق الاجتماعى أنه يقدم تحطيمًا للروتين المؤسس وإعدادًا لعقل جمعى جديد)[1]،

ومن ثمّ تنبعث الحركات الاجتماعية Social movements لتؤدى إلى تحسين النظم وإعادة بنائها (فالقلق الاجتماعى يأخذ شكلا فى حركات الجمهرة والجماهير وأخيرًا يتبلور فى نظم)[2].

وافترض بارك أن مفهوم الفرد عن ذاته ناتج عن موقفه الاجتماعى فى تدرج مكانات المجتمع.

وأخيرًا قدم لنا بارك هرمًا من المفاهيم عن مستويات التنظيم، عبارة عن نموذج أيكولوجى للنسق الاجتماعى. وجعل أساس ذلك النسق نظامه الأيكولوجى (المدنية والمجتمع)، ويتكون من التوزيع المكانى للأفراد والجماعات أثناء كفاحهم من أجل المكان الصحيح للاستخدام (المصادر) وأوضح مثل على ذلك الصراع المرير الذى دار بين الهنود الحمر والأمريكيين البيض المهاجرين، وتلك بورة العملية الأيكولوجية. ثانيًا: النظام الاقتصادى ويهتم بالإنتاج والاستهلاك للسلع والخدمات. ثم بعد ذلك النظام السياسى ويركز على إيجاد حل للصراع من خلال

---

(1) Ibid: P, 686.

(2) Ibid: P, 874.

تفسير الجزاءات الاجتماعية وتحديد ما إذا كان فعل ما يقع تحت طائلة الجزاءات الاجتماعية. وأخيراً النظام الأخلاقي الذى يكون فى أعلى مستوى وينظم ويرتب النظم التى أسفله من خلال عمل المعايير والتراث الاجتماعى للمجتمع بصفة عامة.

والنسق العام للتنظيم الاجتماعى يتأثر بالقوى الأيكولوجية من السيادة والتعاقب، وكذلك يتأثر بالمراحل المتتابعة للاحتكاك وهى المنافسة والصراع والتكيف ثم أخيراً تمثل الثقافة، وهذه المراحل المتتابعة من الاحتكاك تعمل أيضاً عند مستوى الوحدات الصغرى من خلال مفهوم الفرد عن ذاته.

ويلاحظ أن المراحل المتتابعة عند بارك واسعة جداً وعامة جداً حتى أنها تجعل فائدتها واستخدامها النظرى والتطبيقى مستحيل، إذ أنه من الصعب جداً أن نفرق تجريبياً بين كل مرحلة.

كما أن مرحلة التمثيل عند بارك فجة وغامضة، ويمكن أن يقال إنها تركز حول الفئات فى تأكيدها على تمثل الأقليات فى ثقافة الصفوة.

***

فلفريدو باريتو
VILFAREDO PARETO

(١٨٤٨ - ١٩٢٣)

ولد باريتو ابنا لأحد النبلاء الإيطاليين وأم فرنسية، ولهذا كان يتقن الإيطالية والفرنسية. ولقد تعلم الاقتصاد والعلوم والفلسفة، وكان تاريخ حياته العلمية فريداً فقد تقلب في وظائف متباينة كل التباين فمن مهندس استشاري بالسكة الحديد، إلى مراقب مناجم الحديد، إلى أستاذ للاقتصاد في جامعة لوزان، إلى عضو في مجلس الشيوخ الإيطالي. وإلى جانب ذلك شارك في الحياة السياسية، فمارس ألوان الصراع السياسي في إيطاليا والكفاح من أجل الحرية والوحدة، وأيضًا الصراع بين أحزاب اليسار واليمين. وكان شارحًا لأفكار مكيافيللي والوضعية والداروينية الاجتماعية. ومن أهم منشوراته: دروس في الاقتصاد السياسي (٩٦- ١٨٩٧) Course in Political Economics، والنظم الاشتراكية (١٩٠١) The Socialist Systems، ومقدمة عامة في علم الاجتماع (١٩١٥) General Treatise on Sociology.

أهدافه

كان هدف باريتو الرئيسي تحديد وتفسير القوى الحقيقية التي تحدد حالة التوازن في النسق الاجتماعي، بمعنى البحث عن العوامل التي تعمل في النسق والعناصر التي ترد عليها من النسق وبذلك يتحقق التوازن. هذه النظرة تتضمن تركيزًا على الديناميكيات الاجتماعية للصراع والتغير، وتغض النظر كثيرًا عن المواقف الاستاتيكية. ويقع وراء الصراع والتغير عناصر أولية تتعلق بالوحدات الصغرى وتتكون من حالات نفسية، وعقلية اجتماعية Social rationales التي بدورها تحدد الفعل الاجتماعي والعمليات الاجتماعية: فنظريته معيارية واستقرائية، وذات أساس طبيعي يظهر فيه فكرة الرواسب residues القائمة على الطبيعة البشرية، كعناصر أولية في فهم المجتمع.

نظريته

الافتراض الرئيسي عند باريتو هو تقسيمه النشاط الاجتماعي إلى نمطين كبيرين:

١- منطقي Logical الذي فيه النهاية الموضوعية Objective end والغرض الذاتي Subjective Porpose متطابقان، بمعنى أن يستطيع الفاعل أن يحقق غرضه الذاتي بأسلوب موضوعي. وهذا يتطلب أن تكون الوسائل لتحقيق الهدف أيضًا موضوعية في إطار الفعل معرفة متاحة.

٢- النمط الثاني الذي فيه تختلف النهاية الموضوعية عن الغرض الذاتي.

واعتبر باريتو أن معظم كتلة النشاط الاجتماعي تتكون من الأفعال اللامنطقية nonlogic actions المؤسسة على حالات نفسية (عواطف Sentiments)، وقائمة على الطبيعة البشرية مع غريزة التآلف Instinct for combination، بمعنى غريزة التوليف بين الأشياء والأفكار وتكوين رواسب residues أو قوى اجتماعية.

واعتبر أن الأفكار اللامنطقية هي أسس لعدد من أنماط القوى أو الرواسب التي تحدد التوازن الاجتماعي. وتنقسم هذه الرواسب إلى ستة فئات:

١- غريزة التآلف وهي تعمل على اندماج الأنواع المتشابهة، والأشياء والأفكار وتكون رواسب توجه الفعل الإنساني.

٢- الجماعات الدائمة Group Persistences مثل الأسرة والعلاقات الأسرية، والميل إلى المحافظة على هذه التجمعات.

٣- الحاجة إلى التعبير عن المشاعر بالأفعال الخارجية. مثل الصلاة أو التصفيق عند الاستحسان.

٤- الرواسب المتصلة بالاتصال بالجماعات البشرية Residues connected with Sociability وهي تتعلق بالرغبة في التطابق مع الجماعة والامتثال لتقاليدها، ويدخل ضمنها الشفقة، والقسوة والتضحية بالنفس.

٥- رواسب تكامل الفرد مع أقرانه، وتتعلق بالمساواة والتكامل، أي محافظة الفرد على عدم اغتصاب حقوقه مما يخفض من مكانته عن أقرانه، أو يخفض من قوميته بين القوميات الأخرى.

٦- رواسب الجنس، وهى غريزة عند الإنسان.

واعتبر باريتو أن هذه الرواسب أو القوى الاجتماعية تحدد الفعل الاجتماعي، والتوازن الاجتماعي.

واعتبر أن الرواسب يقويها اجتماعياً مشتقاتها التى ما هى إلا تبريرات عقلية للرواسب، فالمشتقات وظيفتها إضفاء المعقولية أو الرشد الاجتماعي Societal rationalizations، فإذا كانت الرواسب وراء السلوك الإنساني غير المنطقي في معظمه، فإن الحاجة الإنسانية إلى المنطق أى إلى إضفاء المعقولية على أفعالهم تدفعهم إلى هذه التبريرات أى إلى المشتقات drivations.

ولقد صنف باريتو المشتقات إلى فئات:

١- التأكيد assertion، أى ذكر حقائق واقعية أو متخيلة لتبرير الفعل.

٢- السلطة authority الاعتماد على مصادر لها هيبة وسلطة مثل أى نوع من العادات له سلطة لتبرير الأفعال من خلال ما تقوله هذه السلطة.

٣- التطابق مع المشاعر والمبادئ تبرير الأفعال لأنها تسر الآخرين أو تواسي الآخرين، أو تحقق مصالح الآخرين.

٤- براهين لفظية والتى تعنى استخدام الألفاظ البلاغية أو الأمثلة الشعبية.

وهكذا تعمل الرواسب فى الواقع الاجتماعى مستندة إلى مشتقاتها أو تبريرها أو ترشيدها المعيارى.

واعتبر باريتو أن هذه الرواسب تتوزع فى المجتمع خلال البناء الطبقى، وتعمل من أجل التوازن والتساند. وبما أن توزيع هذه الرواسب يتغير، وبصفة خاصة الفئتين:

١- غريزة التآلف. ٢- الجماعات الدائمة.

على أى حال يتغير هذا التوازن فى شكل من الدوران بين الصفوة الحاكمة، والصفوة غير الحاكمة. التغير فى توزيع الرواسب عند الصفوة الحاكمة بأن تمتص مزيدا من العناصر المتدهورة، والصفوة غير الحاكمة تنمى بينها عناصر أكثر من النوع المتفوق، ذلك يصنع الثورة، وتؤدى إلى الدوران بين نوعين من الصفوة الحاكمة وتلك هى الأسود التى تحركها فئة الجماعات الدائمة، أى التى تتميز بالمحافظة، والذئاب التى تحركها غريزة التآلف، وتصبح دورة الأسود والذئاب مستمرة ودائمة، وتعتمد على تغير توزيع فئات الرواسب(١، ٢).

ذلك يعنى أن الدورة عبارة عن الصفوة الحاكمة يغريها الحكم على امتصاص عناصر منحطة فتظهر عيوبها وتهتز مكانتها، بينما جماعة الذئاب تمتص عناصر مرتفعة فترتفع إلى صفوة حاكمة، وبدورها يغريها الحكم فتمتص عناصر منحطة وليست بالضرورة من النوع الذى يؤدى إلى تدهور الأسود، لأن كل منهما تختلف رواسبه عن الآخر. وهكذا يكون للمجتمع فى توازن ديناميكى معتمداً على تغير توزيع الرواسب، التى تؤدى إلى استمرار المنافسة والصراع، وبالتالى دورة الصفوة.

ويلاحظ هنا أن باريتو قسم الصفوة إلى حاكمة وغير حاكمة، ومن ثمّ فمجموع الشعب ليس له وجود فى هذه الدورة وجعل منه مجرد تابع، يستغله كل فريق. بل دعى باريتو الصفوة أن تحافظ على ما فيه الجماهير من جهل، وأن تستغل الخرافات التى تسود بين الجماهير الجاهلة، ولكن يجب أن لا تصدق الصفوة هذه الخرافات، بل أن تستغلها فقط فى التغرير بالجماهير.

وهكذا نرى أن نظرية باريتو تقدم لنا نمطين من الصفوة الاجتماعية الأسود والذئاب. الأسود تسود بواسطة الراسب رقم (٢) الجماعات الدائمة فلديهم مشاعر قوية بالولاء للتجمعات الدائمة مثل الأسرة والقبيلة والمدينة والأمة. وتتمثل فى الصفوة العسكرية، وتركز على الولاء والتماسك والوطنية والمحافظة وتعتبرها القيم الأساسية، وهى مستعدة ومجهزة لاستخدام القوة عند الضرورة، وفى ظلهم يحدث الثبات للمجتمع أى تسود نزعة المحافظة.

أما القشاب فهم عكس ذلك يتميزون بالرواسب الخاص بغريزة التآلف، وهم غالبًا رجال أعمال وماليين ويتميزون بالمغامرة، فيحدث التغير السريع فى المجتمع، فلديهم القدرة على النمو للتزايد للإمبراطورية السياسية.

ومن ثمّ تعتبر نظرية باريتو طبيعية (الغرائز) نسقية (المجتمع) ديناميكية (دورة الصفوة) ذات اتجاه يميل نحو الصراع، وتختلف عن نظريات ماركس وبارك، وفى أنها طبقية أكثر منها اجتماعية، والاختلاف الرئيسى يكمن فى اعتباره أن الظواهر المعيارية تحدد الظواهر المادية وليس العكس كما عند ماركس.

***

ثورشتين فبلن
THORSTEIN VEBLEN

(١٨٥٧ - ١٩٢٩)

ولد فبلن فى واشنجتن Washington، عن أبوين من النرويجيين المهاجرين. وتعلم في كلية كارلتون Carlton الكلاسيكيات والفلسفة والاقتصاد. ولقد كانت حياته العملية شديدة التنوع، فإلى جانب حياته الأكاديمية باشر كثيراً من أعمال الخدمة المدنية. ويلاحظ أنه فى طفولته نشأ منتميا إلى طبقة منخفضة بحكم أنه ابن لمهاجرين جاءا إلى الولايات المتحدة سعيًا وراء حياة أفضل، كما أنه فى فترة حياته الأولى عاش تحت وطأة التوسع الصناعى الأمريكى فكانت حياته القلقة سببًا فى دفعه إلى المشاركة فى الحياة السياسية.

ولقد ركز فبلن فى دراساته على العلاقة المتبادلة بين الاقتصاد والتطور الاجتماعى، وكان فى ذلك متأثرًا بالنظريات التطورية والنظريات العملية Pragmatism، ولهذا يعتبر تطوريًا عمليًا. وأهم مؤلفاته هى نظرية الطبقة المترفة (١٨٩٩) The Theory of the Leisure Class ونظرية مشاريع الأعمال (١٩٠٤) The Theory of the Business Enterprise والغريزة الصنعية (١٩١٤) The Instinct of Workmanship.

أهدافه:

كان هدف فبلن الرئيسى هو دراسة تطور البشرية باستخدام الأسباب الاجتماعية أكثر من أسباب الاقتصاد البحت الكلاسيكى. وتبعًا لذلك فقد وضع نظرية عن التطور التكنولوجى متتبعًا تأثير غريزة الإنسان الاقتصادية فى العمليات الاجتماعية مثل المنافسة والتغير الاجتماعى. ومثل ما فعل بارتو، استخدم العوامل الطبيعية فى وضع نظرية استقرائية عن الصراع الاجتماعى، ولكن يختلف فبلن عن بارتو، فى أن فبلن ركز على الاقتصادية بينما بارتو ركز على العوامل المعيارية. ولهذا كان تركيز فبلن على دراسة الآثار الاجتماعية للتكنولوجيا،

مستخدماً دراسة علمية من وجهة نظر الشك skeptic. وكانت معظم مادة البحث تاريخية واقتصادية، واستعان بعلم الآثار إذ أنه كان يهتم بتتبع عمليات التطور التكنولوجي خلال مراحلها العظمى في عدد مختلف من المجتمعات فهو كان معتمداً على الاستقراء التاريخي.

نظريته في التطور الاجتماعي

كان افتراضه الرئيسي أن الطبيعة البشرية تتكون من ثلاث سمات:

١- رابطة أبوية Parental bent.

٢- غريزة الصناعة أو الكفاءة العملية

The instinct of workmanship or Practical efficiency.

٣- فضول Idle curiosity.

واعتبر أن هذه السمات الثلاث تمثل أسس النظم الاجتماعية بل اعتبر فيلن أن الفضول الناقل لحركة هو الذي يؤدي إلى التغيير التكنولوجي وأنه للمحرك الأول في التطور الاجتماعي والتغير الاجتماعي.

واعتبر أن عملية التطور الاجتماعي تبدئ بتغير في القيم الإنسانية التي تؤدي إلى التطور التكنولوجي. والتكنولوجيا بدورها تؤدي إلى تغير في القيم والأفكار. وهكذا اعتبر أن عملية الحياة الاقتصادية تؤدي إلى تراكم عمليات تكيف الوسائل للغايات، وذلك بصفة دائمة ومستمرة.

وجعل فيلن أساس نظريته فكرة المصالح الاقتصادية economic interest الإنسانية التي تفسر عملية النمو الثقافي cultural growth وتفسر أيضاً توالي تراكم العناصر الثقافية في النظم الاقتصادية. ولهذا يمكن اعتبار فيلن من أصحاب نظريات الحتمية الاقتصادية Economic determinizm.

واعتبر فيلن أنه في داخل عملية النمو الثقافي يكون التطور عضوي ومتساند، وكل مرحلة تبرز وتمثل توازناً تكنولوجياً، الذي فيه يكون للأدوار المتبادلة للأجزاء خصائص التأييد المتبادل والتساند، حتى أن أي إضافة أو نقص بجزء جوهري في

أى نقطة يؤدى إلى الارتباك سواء كان قليلاً أو كثيراً، وذلك فى كل جوانب المنطقة الحادث فيها الإضافة أو النقص. وهنا يبدو واضحًا أن فبلن فى هذه النقطة يميل إلى الاتجاه التكنولوجى الوظيفى، إذ يستخدم فكرة التساند والاعتماد المتبادل لأجزاء الكل، وتلك أفكار أصحاب المدرسة الوظيفية.

وأيضًا اعتبر أن التطور ما هو إلا تراكم وعمليات كرد فعل لمشاكل المواد المتغيرة، ويمثل التطور تكيفًا مختاراً وتنافسياً مع البيئة.

واعتبر أن هذه العملية التطورية تتقدم خلال عدد من المراحل المتمايزة:

١- يبتدأ المجتمع بمرحلة التوحش السلمية وهى تمثل الفترة الأولية والأكثر طبيعية للوجود الإنسانى. وفى هذه المرحلة كان الناس مرتبطين عن قرب بالطبيعة، وهناك قليل جداً من تقسيم العمل، وكانت غريزة الصنعة تعمل فى حرية تامة، وكان الدين المحور الرئيسى للمجتمع، وكان هناك أعلى مراحل التضامن الاجتماعى والجمعية.

٢- ومع النمو الاقتصادى جاءت مرحلة البربرية المنخفضة. وفى هذه الفترة ابتدأ تقسيم العمل، وانبعث تمايز بغيض تبعًا لظهور الملكية الخاصة.

٣- وفى المرحلة البربرية الأعلى، كانت أكثر سلبية، إذ زادت الثروة والملكية الخاصة، وظهرت طبقة المترفين، كما ظهرت طبقة الصفوة من الاحتكاريين، وهكذا تولدت الأسس الاجتماعية للرأسمالية.

٤- وفى المرحلة الرابعة والتى تعتبر أكثر المراحل سلبية، إذ وصل فيها المجتمع إلى المرحلة المالية، والغرائز الطبيعية وصلت إلى أكثر مراحلها انحرافًا، وأصبح الترف والاستهلاك واضحًا للعيان، ويسود النظام الاقتصادى التشهير والحرب، والعلاقات الاجتماعية آلية، ولا شخصية، وأصبحت القيم شديدة المادية، والدوافع سواء عند مستوى الأفراد أو النظم أساسها المكاسب الفردية، ومن ثمَّ تؤدى هذه الحالة إلى أن يسود المجتمع صفوة من رجال الأعمال،وهكذا تصل الرأسمالية والبيروقراطية إلى أعلى مراحلها، وهى أعلى مراحل اللاطبيعية unnatural.

في هذه المرحلة تكون سمات الطبيعة البشرية قد تشوهت وانحرفت تمامًا. وفي هذه الحالة يقود الفضول للحرك إلى تغييرات تكنولوجية التي تؤدي إلى المنافسة والصراع ونسق اقتصادي وطبقة استغلاليين.

وأخيراً كان يهتم فبلن بالعمليات الاجتماعية المتبادلة مثل التثقيف acculturation والاستعارة الثقافية cultural browing، وتهجين الأفكار crossbreeding of ideas وبهذا الخصوص كان فبلن يرى أن بعض المجتمعات أكثر قدرة من الأخرى في تكييف الأفكار الخارجية لأغراضهم الخاصة، ومن ثَمَّ يكون لديهم مزيدًا من القدرة على الإسراع في تطورهم التكنولوجي.

وهكذا يمكن القول أن نظرية فبلن تمثل رد فعل عملي لآثار التصنيع خلال فترة حياته أي في عصره. ولذلك أنشأ نظرية عن الصراع الاجتماعي طبيعية (استخدم فيها العوامل الطبيعية) وتطورية وحتمية اقتصادية، والعملية الرئيسية في هذه النظرية تتكون من التطور التكنولوجي والاستعارة الثقافية.

***

نظريات الصراع المعاصرة

الظروف الاجتماعية

بينما تسود النزعة الوظيفية البنائية معظم النظريات المعاصرة في علم الاجتماع إلا أن نظريات الصراع المبكرة والتي تعتبر جزءاً من علم الاجتماع استمرت في إظهار انعكاساتها على نظريات علم الاجتماع، وخاصة حول صراع الطبقات المعاصر وما أفرزته التأثيرات السلبية للتصنيع والتحضر من مشاكل في داخل المجتمع الحديث.

وهكذا نرى أن نظريات الصراع الحديثة المعاصرة تمثل رد فعل جماعة معينة من المثقفين لعدد من الظروف الخاصة، تتضمن هذه الظروف المستوى العالي من الصراع الاجتماعي بصفة عامة وصراع الأجناس بصفة خاصة كما في الولايات المتحدة ووسط وجنوب أفريقيا، وكذلك معالجة التأثيرات الضاغطة والكابتة للبيروقراطية bureaucratization والتصنيع indnstrialization، وتطبيق الاتجاهات الإصلاحية لمعالجة المشاكل الحديثة للتصنيع والتحضر. وعلى أي حال فهي تعتبر محاولة لتطبيق تقدمية القرن الثامن عشر في حل مشاكل المجتمع الحديث، فهذه النظريات المعاصرة تمثل استخداماً لنموذج الصراع التقليدي (المبكر) لمشاكل المجتمع المعاصر.

وتعتبر هذه النظريات المجتمع كنسق، نسق في حالة تطور يتكون من جماعات تتنافس من أجل المصادر وتحكمها صفوة سائدة. وتحدد مختلف الظروف الاجتماعية والديموجرافية مدى كثافة واستمرار وشكل الصراع الاجتماعي. بينما البناء الاجتماعي يعبر عن نمط السيادة الموجود في المجتمع في مرحلة معينة من تطوره.

وتستخدم نظريات الصراع المعاصرة هذا النموذج للمجتمع الحديث برسم الظروف الاجتماعية التي تحدد الصراع، والبناء النظامي للسيادة وتأثيرات الصراع، وكذلك العملية عند المستوى السيسيوسيكولوجي. ومن ثمَّ إلى مدى بعيد يمكن

القول إنها تشبه نظريات الصراع التقليدية فى أساسها ولكنها نسقية فى شكلها، ولهذا فهى تشبه البنائية الوظيفية فى الشكل ولكنها تختلف تماماً فى محتواها الأيديولوجى.

وسوف نعرض نمطين من نظريات الصراع المعاصرة:

الأول: النمط النسقى: الذى يركز على العوامل الاجتماعية التى تحدد عملية الصراع.

الثانى: النمط الطبيعى: الذى يصف المحتوى اللااجتماعى والديموجرافى للصراع.

ويمثل كل من داهرندروف Dahrendorf وميلز Mills النمط الأول، بينما كوزر Coser فى اعتماده على سمل Simmel والمناظرة العضوية، وريسمان Riesman فى تركيزه على العوامل الديموجرافية يمثلان النمط الثانى.

ويلاحظ أن مثل هذا التصنيف ما هو إلا مسألة درجة فقط، وبصفة خاصة فى نظريات الصراع المعاصرة حيث لا يوجد التفسير الطبيعى الخالص، إنما الاختلافات هنا تتعلق بنوع العوامل التى ركز عليها المنظر كعوامل أولية من أجل فهم الصراع الاجتماعى.

***

تشارلز رايت ميلز
G. WRIGHT MILLS
(١٩١٦-١٩٦٢)

حصل ميلز على شهادة الدكتوراه من جامعة وسكنسن Wisconsin سنة ١٩٤١، وعمل مع هانز جيرث Hans Gerth وهو عالم اجتماع ألمانى وكذلك مع هوارد بيكر Howard Baker. وقد ترجم مع زميله جيرث أهم أعمال ماكس فبر. وفى سنة ١٩٤٦ عمل أستاذاً للاجتماع فى جامعة كولومبيا Colombia. وكان موضع اهتمام ميلز دراسة الصراع أنماط التطرف. وقد اشتهر بنقده التحليلى لرأسمالية المجتمع الأمريكى.

وتضمنت أعماله الرئيسية مؤلفه الياقات البيضاء (١٩٥١) White Collar ومؤلفه قوة الصفوة (١٩٥٦) Power Elite. وكذلك كتاب الخيال السسيولوجى (١٩٥٩) Sociological Imagination.

أهدافه:

كان اهتمام ميلز يتركز حول تنمية ما أطلق عليه اصطلاح الخيال السسيولوجى من أجل فهم المنظر التاريخى، وذلك فى مصطلحات من معانى (الحياة الداخلية والمسيرة الحياتية (الخارجية) لأفراد متباينين)[١].

وتتضمن نتائج هذا النمط من الفهم الانشغال والاهتمام بالمواضيع العامة فى المجتمع، ووعيا وانتباهاً أكبر للعلاقات بين التاريخ والبيوجرافى biography، وكذلك الوعى بفكرة البناء الاجتماعى، وأيضاً الفهم المرتب للناس وللمجتمعات[٢].

ولهذا يسأل ميلز ثلاثة أنواع من الأسئلة:

١- ما هو بناء هذا المجتمع المعين ككل؟

---

(1) Mills: Sociological Imagination" Grove Press, New York, 1961, P.5.

(2) Ibid.: P. 7.

٢- أين يقف هذا المجتمع في المجتمع الإنساني؟

٣- أي النوعيات من الرجال والنساء السائدة في هذا المجتمع وفي هذه الفترة؟[1].

وتعطى هذه النظرة اهتمامًا كبيرًا، بل وتركز على الفهم المقارن للبناءات الاجتماعية التي تظهر والتي توجد الآن في تاريخ العالم[2].

وفي دراسته هذه حاول استخدام هذا المنظور في الفهم السيسولوجي للقوة والتدرج الاجتماعي في المجتمع الامريكي المعاصر من أجل (استيعاب ثم إلى مدى بعيد يمكن القول أنها تشبه نظريات الصراع التقليدية في أساسها ما يجري في العالم)[3]. وهكذا كانت محاولته إلى جانب أنها نظرية فهي أيضًا تطبيقية عملية.

ومن أجل هذا استخدم ميلز الأفكار المبكرة التي ولدها ماركس وفيبر، وصنع ميلز تحليلاً لاتجاه القهر للرأسمالية الأمريكية الحديثة، والذي تظهر فيه تأثيرات الترشيد المتزايد وتوالي المايد من التركيز، والصفوة، والضبط، واغتراب الأفراد.

نظريته

وضع ميلز عدة افتراضات تدور حول طبيعة الحقيقة الاجتماعية والتأثيرات الاجتماعية للرأسمالية الصناعية (industrial capitalism).

افترض ميلز أن الحقيقة الاجتماعية تمثل توليفة من البيوجرافي والتاريخ، وتقاطعاتها في داخل البناءات الاجتماعية[4]، وهو يعني بذلك (استيعاب التاريخ والبيوجرافي والعلاقة بين الاثنين)[5]. ويلاحظ ان هذه الوضعية هي ماكروسكوبية macroscopic وأيضًا ميكروسكوبية microscopic (ذلك لأنها تأخذ في اعتبارها أن تقلب خبرات الأفراد اليومية في الإطار المرجعي لفهم للمجتمع الحديث)[6].

---

(1) Ibid.: P. 7.
(2) Ibid.: P.134.
(3) Ibid.: P. 7.
(4) Ibid.: P.134.
(5) Ibid.: P. 6.
(6) Mills. "Whist Coller, The American Middle Classes" Oxford University Press, New York, 1956. P. XX.

وافترض ميلز أن التأثير الرئيسي للترشيد هو زيادة في التركز centralization، وما يتبعه من نزعة الصفوة elite، وفي مؤلفه قوة الصفوة، وصف ميلز هذه الصفوة على أنها تتركب من قمة الشريحة المنفذة للمشاريع الكبرى والنظام السياسي والمؤسسة الحربية. ويمتلك أعضاء هذه الصفوة صفات معينة متشابهة وأصول اجتماعية متشابهة، وقابلية تبادل الأدوار، وقدرة العمل في سرية، كما تملك أيضًا مقام ومكانة وثقة في نفسها عالية جداً، ولكن ينكرون ويخفون قوتهم، وهكذا يتخذ المجتمع تحت ضبطهم شكلاً معينًا عبارة عن

١- الصفوة.

٢- مستويات متوسطة من القوة (شبه منظمات مينة).

٣- وعند مستوى القاع يوجد جمهرة المجتمع ويمثلون سوق مضبوطة تمامًا[1].

وتتكون نتائج المزيد من الترشيد من مستويات عالية من تركيز النظم وضبط الصفوة.

واعتبر ميلز أن الترشيد يؤثر في البناء المهني، وتنهار المشاريع الفردية بحدة، وفي الوقت نفسه تتزايد بحدة نسبة الموظفين المستخدمين أي الذين يعتمدون في حياتهم على وظائفهم. وهذا بدوره يؤدي إلى زوال الأفراد المستقلين ونشأة فكرة الرجل الصغير الضئيل في العقل الأمريكي[2]. وفي هذه الحالة يستخدم مزيد من الضبط لكل مستويات البناء الاجتماعي.

واعتبر ميلز أن النتائج التالية لهذه العمليات عند المستوى الفردي، تتكون من زوال الحرية الفردية، وزيادة في الاغتراب alienation، والتي ترزح فيها الطبقة الوسطى بصفة خاصة تحت وطأة عدم الراحة والقلق، وتعاني من الاغتراب عن النفس والعمل، والحرم من الترشيد الفردي حيث لا يملك الفرد حرية توجيه نفسه، ذلك كله يؤدي إلى فقد الشعور السياسي.

---

(1) Mills: The "Power Elite" Oxford University Press New York, 1956, Chap. 1.

(2) White Coller: op. cit., P. XII.

وهكذا يؤدى الترشيد إلى ضبط سيكولوجى وضبط نظامى، والذى ينجم عنه زوال الحرية عند كل مستويات المجتمع.

وفى الحقيقة يمكن النظر إلى مثل هذه الدراسة على أنها تمثل انعكاسات لايديولوجية شخصية أكثر منها علم اجتماع موضوعى.

ويؤخذ عليه أنه ركز على النتائج السلبية للترشيد إلى حد أنه أبعد أى وظائف إيجابية للترشيد.

كما أن منهجه يكاد يكون بعيدًا عن اختبار، علميًا فهو يميل إلى الوصف، كما أن بياناته غير مرتبة. ورغم هذا فإن ميلز يظل أحد أهم منظرى نظريات الصراع فى علم الاجتماع المعاصر. ويقدم إغراءات لمثل هذا النمط من علم الاجتماع.

***

رالف داهرندورف
RALF DAHRENDORF

(١٩٢٩ - ٢٠٠٩)

تعلم داهرندورف أولا فى جامعة هامبورج حيث نال شهادته الجامعية الأولى ١٩٥٢ ثم نال الدكتوراه من جامعة لندن ١٩٥٦ وخلال حياته الجامعية شغل كراسى علم الاجتماع فى عدد من جامعات ألمانيا، كما عمل فى مدرسة لندن للاقتصاد ثم فى جامعة استانفورد. ومن مؤلفاته الرئيسية بالإنجليزية الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى وصدر فى ١٩٥٩[1].

أهدافه:

فى كتاب داهرندورف «الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى»، اهتم داهرندورف بالحقيقة المحيرة وهى (أن البنامات الاجتماعية.. لديها القدرة على أن تنتج فى داخل ذاتها عناصر الإحلال بالقوة والتغيير)[2]. وتبعا لذلك حاول داهرندورف أن يعرض كيف يتشغل بل وتستغرق الجماعات والعمليات فى هذه الظاهرة (التى يمكن أن تحقق نظريا وأن تحلل امبيريقيا)[3]. ولقد حاول داهرندورف وضع نظرية عامة عن صراع الطبقات والتغير الاجتماعى مستفيدا من نظريات القهر.

ولتحقيق هذا الهدف تقدم إلى اختبار النظرية الماركسية عن الطبقات فنقدها، ثم عمد إلى التعامل مع مشاكلها باختبار الصراع الصناعى والسياسى فى المجتمع الصناعى الحديث.

وعند إنشاء نظريته الخاصة به عن الصراع الطبقى استخدام أيضًا مفاهيم فبر Weber عن السلطة authority، والحادات التعاون الإجبارية ولهذا يمكن النظر إلى

---

(1) Dahrendorf, R.: "Class and Class Conflict in industrial Society", Stanford University Press, Stanford, Calif 1959.

(2) Ibid.: P. VIII.

(3) Ibid.: P. VIII.

منهج داهرندورف على أنه مزج بين أفكار ماركس وفيبر ثم طبقها على الصراع الطبقي في المجتمع الحديث.

نظريته

أقام داهرندورف نظريته على أساس نظرية القهر التي تفترض وجود التغيير الاجتماعي والصراع الاجتماعي والقهر، (ومساهمة كل عنصر في المجتمع في تفككه وتغيره)[1]. وتعتبر هذه الافتراضات أسس نظرية الصراع في المجتمع.

وبقبول داهرندورف لهذا النموذج عن الحقيقة الاجتماعية، تقدم إلى افتراض أن الاتحادات associations مجبرة على التعاون إذ أن تعاونها يحدث تحت وطأة الأوامر، وهو يعني بذلك أن أعضاء هذه الاتحادات يشكلون منظمات رسمية ومن ثمّ فهم خاضعون لعلاقات السلطة. والعاملان في بناء هذه الاتحادات هما تجمعين من المراكز، وهما السيادة domination والخضوع subjection[2]، وهو يعني أن جماعة تملك السلطة فهي تأمر، وجماعة لا تملك سلطة فهي مأمورة.

ويمتلك كل تجمع من هذين التجمعين مصالح كامنة Latent مشتركة، وهو يعني أن كل جماعة لديها توجيهات لا شعورية متغرسة في أوضاع اجتماعية معينة والتي تمثل الأسس لشبه جماعات quasi- groups جماعات غير منظمة يشارك أعضاؤها في مصالح مشتركة كامنة[3].

هذه المصالح الكامنة قد تفصح عن نفسها في شكل مصالح ظاهرة manifest، ويعني داهرندورف تحول المصالح الكامنة اللاشعورية إلى اتجاهات ظاهرة واعية شعورية، والتي تواجه وتتعارض مع مصالح الاتحادات الأخرى. ومن ثمّ تصبح تلك الشبه جماعات طبقات اجتماعية، ويعني داهرندورف اتحادات تشترك في مصالح ظاهرة وكامنة ولها علاقة ببناء السلطة في الاتحادات المتعاونة بالأمر[4].

---

(1) Ibid.: P. 162.
(2) Ibid.: P. 237- 238.
(3) Ibid.: p. 237- 238.
(4) Ibid.: P. 238- 239.

ذلك الإعلان والإفصاح عن المصالح يعتمد على حضور عدد من عوامل معينة أو (ظروف التنظيم)، والظروف الفنية ويعنى بها هيئة التنظيم وإجراءات التنظيم، والظروف السياسية ويعنى بها الحرية أو التحزب أو التعصب، والظروف الاجتماعية ويعنى بها الاتصالات communication، والظروف السيكولوجية ويعنى بها استدماج أدوار المصالح -أى مدى تشرب أعضاء الجماعة لأدوارها[1].

فإذا وجدت هذه الظروف فإن كثافة وحدة الصراع الطبقى الناتج تتوقف على (إلى أى مدى وجدت هذه الظروف)، ويعنى مدى اكتمال وجودها أو أنهما ما زالت فى دور التكوين، ويعنى المدى الذى فيه صراع الطبقات والجماعات قد ظهر على السطح، ومدى توزيع السلطة والمكافآت، ومدى انفتاح النسق الطبقى[2].

وأخيراً يتوقف انفجار الصراع الطبقى وعنفه على مدى تواجد الظروف السابق ذكرها، وإلى مدى تحول الحرمان المطلق للمحرومان النسبى ويعنى بها تحرر أعضاء الجماعة أو الطبقة من الإذعان والخضوع للطلق وتحولهم إلى خضوع نسبى. وكذلك يتوقف الانفجار والعنف على المدى الذى وصل إليه ترتيب وتنظيم الصراع[3].

وهكذا يمكن القول أن داهرندورف أخذ بنظرية القهر، واعتبر أن جماعات المجتمع تتعاون ويتم بناؤها مجبرة على ذلك بواسطة المصالح الكامنة. وتحت ظل ظروف اجتماعية معينة تفصح هذه المصالح الكامنة عن نفسها فى شكل مصالح ظاهرة، تتعارض هذه المصالح بعضها مع البعض الآخر، فيتلو ذلك الصراع الطبقى، ويتوقف كل من كثافة وعنف هذا الصراع على ظروف موقفية معينة.

وبما أن المجتمع ما هو إلا عبارة عن مجموعة من الاتحادات المتنافسة والمتعاونة إجبارياً والتى تبنيها المصالح ويحيط بها ظروف إجتماعية، فإن مثل هذا المجتمع يصبح مجهزاً بمنبع للديناميكية والتغير الاجتماعى المستمر.

---

(1) Ibid.: P. 239.

(2) Ibid.: P. 239.

(3) Ibid. : P. 239.

ويلاحظ أن محاولة داهرندورف لتركيب أفكار ماركس وفيبر تعتبر وصلة هامة بين نظريات الصراع ونظريات السلوكيين الاجتماعيين، وخاصة أنها أيضاً تتعامل مع مواضيع التناقض بين جانبي النظريتين. ولقد حاول في نظريته تفسير ضرورة ولا ضرورة الصراع الطبقي، وانبعاث وعدم انبعاث الصراع الطبقي، وتلك كانت دراسة محكمة توضح مدى تعقد الصراع في المجتمع الصناعي.

ولكن يؤخذ على نظرية داهرندورف أن تعريفه لمفاهيمه الرئيسية المتعلقة بالطبقة والصراع الطبقي غير واضحة، ويعترف داهرندورف أن نظريته في الصراع وإن كانت حديثة إلا أنها غير كاملة وتحتاج إلى مزيد من التطبيقات والتدقيق.

***

تلخيص النمط النسقي

لنظريات الصراع المعاصرة

هذا النوع من النظريات يهتم بالظروف الاجتماعية التي في ظلها ينبعث الصراع، كما تهتم بالخواص السسيولوجية للسيادة في المراحل المختلفة للتطور، مثل هذه النظرية تقدم محاولة هامة لعمل تحليل ديناميكي للصراع والسيادة في المجتمعات المعاصرة، مستخدمة في ذلك الأفكار المبكرة عن الصراع.

نرى عند ملز وداهرندورف:

١- كل منهما كان متأثراً بنظريات الصراع المبكرة وخاصة أعمال ماركس وفبر.

٢- اهتم كل منهما بفهم الصراع والسيادة في داخل المجتمع الصناعي الحديث.

٣- كان كل منهما يعتبر أن القوة والسيادة هي بؤرة البناء الاجتماعي.

٤- استخدم كل منهما الاستقراء التاريخي.

٥- استخدم كل منهما تركيبات ماركس وفبر لتحليل الصراع والسيادة.

***

دافيد ريسمان
DAVID RIESMAN
(١٩٠٩-٢٠٠٢)

ولد دافيد ريسمان فى سنة ١٩٠٩ وتعلم فى جامعة هارفارد Harvard وعمل أستاذًا للقانون فى جامعة بفلو Buffalo من سنة ١٩٣٧ - ١٩٤٢، ثم عمل أستاذًا للعلوم الاجتماعية فى جامعة شيكاغو، ثم انتقل إلى نفس المنصب فى جامعة هارفارد منذ سنة ١٩٥٨. واهتم بعلم اجتماع التربية ودراسة الخصائص الاجتماعية، ومن أهم ما نشره كتاب الجمهور الوحيدة Lonely Crowed وكتاب إعادة النظر فى النزعة الفردية Individualism Reconsidered- وينصب اهتمامنا فى هذه الدراسة على ماأثاره من مسائل فى كتابه الجمهرة الوحيدة. فقد تحدث فى كتابه هذا عن التغير الديموجرافى كأساس للصراع الاجتماعى. ومن ثَمَّ فهو أسهم فى التفسير الطبيعى لنظريات الصراع المعاصرة.

أهم الأفكار

كان اهتمام ريسمان الرئيسى «بالأسلوب الذى به تحل تدريجيًا خاصية اجتماعية مختلفة تمامًا محل خاصية كانت سائدة فى أمريكا فى القرن التاسع عشر»[1].

ومن ثَمَّ فبؤرة اهتمامه هو التغير الاجتماعى فى النمط السائد من الخصائص الاجتماعية. وللوصول إلى هذا الهدف، تضمنت أساليب عمله تطبيق نظريات النمو الديموجرافى والاقتصادى فى دراسة التغير الاجتماعى وأنماط البناء الاجتماعى وأنماط الإلزام والتطابق الاجتماعى[2].

مستخدمًا فى ذلك الاستقراء التاريخى. ومن هنا نجد أن منهجه تضمن استخدام أطر فكرية من عمل الآخرين لدراسة مشكلة الصراع الاجتماعى والتغير الاجتماعى.

---

(1) Riesman: "The Lonely Crowed" Yale Universit press, New Haven, 1961. p.3.
(2) Ibid: p. 7-9.

نظريته

ابتدأ ريسمان بتعريف الخاصية الاجتماعية Social character «بأنها ذلك الجزء من الخصائص الذى يكون مشترك «انه عمومية» بين الجماعات الاجتماعية الهامة.. وأنها نتاج خبرات هذه الجماعات»[1].

الصلة بين هذه الخاصية والمجتمع «يمكن أن نجدها فى الأسلوب الذى يؤمن المجتمع به درجة من التزام والتطابق conformity عند الأفراد الذين صنعوه»[2]. ومن ثمّ تمثل الخاصية الاجتماعية إلزاماً معيارياً.

هذه النماذج من الإلزام أو التطابق بدورها تعتمد على عوامل ديموجرافية معينة أو «تبدلات سكانية معينة فى المجتمعات الغربية منذ العصور الوسطى»[3]. وعلى حد تعبير ريسمان «أخذت هذه التبدلات شكل حرفS «فى اللغات الاجنبية»[4]. ويمثل الخط الأفقى فى قاع حرف S للمجتمعات التقليدية التى كانت فيها نسب كل من المواليد والوفيات متساوية واعتبرها ريسمان مجتمعات فى طور احتمالية النمو العالى hiegh growth potential. وعندما تبتدئ هذه الاحتمالية فى العمل يحدث نمو انتقالى transitional يمثله فى حرفS الخط الرأسى والذى خلاله يكون معدل المواليد أعلى من معدل الوفيات. وفى المرحلة الثالثة ينحدر معدل النمو إلى أسفل. وهى بداية التناقص السكانى، ويمثلة الخط الأفقى فى قمة حرفS، والتى فيها تكون نسبة كل من المواليد والوفيات منخفضة.

وبعد أن رسم ريسمان منحنى النمو الذى يمثله عنده حرف S، ابتدأ فى إقامة نظريته فاعتبر «أن كل من هذه الأطوار الثلاثة المختلفة فى منحنى السكان يشغله مجتمع يلزم أعضائه على التطابق ويصوغ خصائصه الاجتماعية بأسلوب مختلف كل عن الأخرى»[5].

---

(1) Ibid: p. 4. (2) Ibid: p. 5.

(3) Ibid: p. 7.

(4) Ibid: p. 7.

(5) Ibid: p. 8.

وصف ريسمان العلاقة بين الخاصية وبين النمط الاجتماعي كالآتي:

النمط الأول «نمط احتمالية النمو العالي»:

١- في هذا النمط توجه التقاليد الناس.

٢- ومن ثَمَّ يتميز المجتمع بالسلوك التقليدي الموروث الذي عرفه وحدده نسق القرابة.

٣- تتم عملية التنشئة الاجتماعية عن طريق تمثل العادات والتقاليد في داخل نظام اجتماعي جامد ومحكم وثابت.

٤- وتمارس الجزاءات ضبطها عن طريق شعور الفرد بالقلق والخوف من الانحراف عن التقاليد.

٥- النظام الاقتصادي مستتب ومن ثَمَّ فالأشخاص لديهم استقرار وأمان اقتصادي لاتساع رقعة الأرض المنتجة.

٦- ساد هذا النمط في المجتمعات البدائية. والعصور الوسطى في أوربا.

النمط الثاني «النمو الانتقالي» حيث نسبة المواليد أعلى من الوفيات:

١- يكون الناس موجهون داخلياً «أي من داخل أنفسهم» إذ أنهم قد استدمجوا أهدافهم. ولكن ليس بالضرورة أن تكون الوسائل أيضا مستدمجة.

٢- تتم عملية التنشئة الاجتماعية عن طريق غرس الخصائص الاجتماعية داخل الفرد بواسطة كبار السن.

٣- تمارس الجزاءات ضبطها عن طريق إحساس الفرد بالذنب لعدم قدرته على التطابق مع الخصائص الاجتماعية.

٤- يتميز النظام الاقتصادي بالتوسع الاستعماري.

٥- ساد هذا النمط في أوربا خلال العصر الفيكتوري.

النمط الثالث «بداية تناقص السكان»:

١- يوجه الناس أناس آخرون أي يكون هناك أناس يوجهون وأناس موجهون أي أناس يأمرون وأناس يأتمرون.

٢- يكون الناس غير متأكدين من أى من القيم الصواب وخاصة فيما يختص بالقيم الأساسية.

٣- ولهذا يجد الناس أنفسهم يتجهون إلى الجماعات المتشابهة معهم أى جماعة الند أى تكوين طبقة.

٤- وتمارس الجزاءات ضبطها من خلال إحساس الفرد الخوف من الانعزال.

٥- الاقتصاد يسوده التصنيع والتحضر.

٦- يوجد هذا النمط فى مجتمع الميتروبوليتان المعاصر فى أمريكا وأستراليا وأوربا.

واعتبر ريسمان أن الرابطة لهذا النموذج من التغير تكمن فى داخل العلاقة النشطة المتبادلة بين السكان والبناء الاجتماعى، بمعنى عندما يحدث التغير فى السكان وبصفة خاصة فى معدلات المواليد والوفيات، يولد المجتمع أشكالاً جديدة من الإلزام والتطابق ليؤمن إشباع الحاجات، وتبعًا لذلك يصبح الصراع الاجتماعى والأشكال المتغيرة من الإلزام والسيادة وظيفة لعوامل التغير السكانى. فمثلاً مجتمعات النمو الانتقالى يحتمل أن تكون عنيفة وتثير الاضطراب فى الأساليب المستقرة للموجود الاجتماعى التى كان فيها توجيه التقاليد هو النموذج الأساسى لتأمين الالتزام والتطابق. فعدم التوازن فى معدلات المواليد والوفيات يصنع ضغوطًا على أساليب المجتمع المعتادة، مما يستدعى ويتطلب شريحة جديدة من خصائص البناء»[1].

وهكذا يعتمد الصراع الاجتماعى والسيادة على معدلات المواليد والوفيات فى المجتمع، والتى تمثل ضغوطًا ديموجرافية معينة، والتى تؤدى إلى أشكال معينة من البناء الاجتماعى وأنماط من السيادة والإلزام والتطابق.

***

---

(1) Ibid: p. 14.

لويس كوزر
LEWIS COSER
(١٩١٣-٢٠٠٣)

ولد كوزر فى ألمانيا سنة ١٩١٣ وحصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا Co-lumbia سنة ١٩٥٤، وعمل أستاذاً لعلم الاجتماع بجامعة ولاية نيويورك، وقد تتلمذ كوزر على يد ميرتون Robert Merton. ويتركز اهتمام كوزر الرئيسى حول النظرية الاجتماعية. ومن اهم مانشره كتاب وظائف الصراع الاجتماعى The Functions of Social Conflict، وكذلك كتاب تكملة فى دراسة الصراع الاجتماعى سنة ١٩٦٧. Continuities in the Study of Social Conflict، وكذلك كتابه أساتذة الفكر السيولوجى سنة ١٩٧١ Masters of Sociological Thought. واهتمامنا فى هذا المقام يتركز حول أفكاره عن الصراع الاجتماعى.

أهدافه:

فى كتاباته عن الصراع هدف كوزر إلى «توضيح وتدعيم المفاهيم المناسبة لبيانات الصراع الاجتماعى... ومركزاً على الوظائف Functions أكثر من المعوقات الوظيفية Dysfunctions للصراع الاجتماعى.. والتركيز أيضا على النتائج اللاحقة للصراع الاجتماعى والتى تعمل على الزيادة أكثر من التناقص فى التكيف وترتيب العلاقات الاجتماعية والجماعات»[١].

واعتبر كوزر الصراع هو «كفاح حول القيم والدعاوى لتعزيز المكانة والقوة والمنابع، ويتجه هذا الكفاح إلى اهداف الخصوم لإبطال مفعولها أو تحييدها أو تقليل منافستها»[٢].

---

(1) Coser, L.A: "The Functions of Social Conflict" Free press, Chicago. 1956, p. 7-8.
(2) Ibid : p.8.

ومن أجل هذا الهدف فحص كوزر القضايا الأساسية لنظريات الصراع الاجتماعي وبصفة خاصة عند سمل Simmel، وعمل على إمدادها بوقائع أخرى سواء ذات طبيعة نظرية أو عملية، وأيضا مثل ما فعل باقي أصحاب نظريات الصراع المعاصرة، فعل كوزر إذ استخدم نظريات المنظرين الأوائل في دراسة الصراع الاجتماعي المعاصر.

نظريته

افترض كوزر الرئيسي أن الصراع ربما يزيد أكثر من أن ينقص التكيف والترتيب الاجتماعي. والمحافظة على حدود الجماعة، بمعنى أن الصراع إذا كان يعتبر معوقًا للوظائف dysfunctional فإنه أيضا له وظائف[1].

ثم تقدم ليرسم ويوضح منبع الصراع، والمواقف الطارئة المؤدية للصراع والوظائف المحتملة للصراع.

واعتبر كوزر أن الصراع ينشأ عندما فيوجد زيادة في عدد الطالبين عن الفرص المتاحة لإعطاء المكافآت المناسبة[2]. بمعنى أنه استخدم هنا الفكرة الاقتصادية التي تحدث عن العلاقة بين العرض والطلب، فإذا كان عدد طلاب العمل أكثر من فرص العمل المعروضة، هذا منبع للصراع وفي نفس الوقت اعتبره موقفًا طارئًا مولدا للصراع. ولكن فيما يختص بالنتائج التالية لهذه الظاهرة يحددها نمط البناء الاجتماعي الذي في داخله تحدث تلك العملية، وأيضا يحددها نمط المسائل موضع اهتمام أعضاء المجتمع، كل ذلك يؤثر في وظائف هذه العملية في داخل المجتمع.

واعتبر كوزر أن الأبنية الاجتماعية تختلف في أنماط الحراك الاجتماعي[3]. وتختلف الأبنية الاجتماعية أيضا في أنواع نظم صمام الأمان Safty- valve institutions الموجودة بها، وأيضا تختلف في مدى السماح بالصراع والتظاهره، وكذلك تختلف الأبنية

---

(1) Ibid : p.8.

(2) Coser: "Continuities in the Study of Social Conflict" Free press, New . york, 1967, p.27.

(3) Ibid: p. 26.

الاجتماعية فى درجة التحام الجماعات ومستوى المشاركة الجمعية وكذلك طول الصراع [1].

ومن ثَمَّ اعتبر كوزر أنه كلما زاد انغلاق نسق التدرج الاجتماعى، وكلما قل عدد نظم صمام الأمان، وكلما قل التسامح والنظامية الصراع، وكلما زاد انغلاق الجماعات كل على نفسها وكلما طال كفاح الجماعة، كلما زادت كثافة وشدة التمزيق والانهيار الذى سوف يحدثه الصراع الاجتماعى فى داخل المجتمع.

وكذلك اعتبر كوزر أن انماط المواضيع التى يقع حولها الصراع هى أيضا عامل رئيسى فى تأثيراتها، فمثلاً المواضيع التى تدور حول الشرعية الاجتماعية وتتضمن عدم الاتفاق حول الدعاوى الأساسية تؤدى إلى مستويات عالية من الصراع. وكذلك قد تكون المواضيع واقعية وحقيقية مثل الفشل فى إشباع متطلبات معينة، أو غير واقعية مثل المواضيع التى تتضمن حاجة إلى خفض توتر عام، النمط الأخير يؤدى إلى صراع أكثر شدة وكثافة.

ولكن أيضا اعتبر كوزر أن توليفة إيجابية من كل العوامل السابقة يمكن أن تؤدى إلى صراع يقدم للنسق الاجتماعى وظائفا Functions مثل أنه قد يقدم استقرارا للعلاقات الاجتماعية، ويعيد الحيوية للمعايير الموجودة، ويساهم فى بعث معايير جديدة، ويقدم ميكانيزم لاستمرار إعادة تكيف ومواءمة ميزان القوة، وينمى المحادات والتلاقيات جديدة، ويقلل العزل الاجتماعى، ويساهم فى المحافظة على خطوط حدود الجماعة، وبصفة عامة تحت ظل ظروف معينة، قد يؤدى الصراع إلى نسق اجتماعى أكثر مرونة واستقرار وتكامل.

وهكذا اعتبر كوزر أن الصراع حول مواضيع واقعية فى داخل بناء اجتماعى مفتوح قد يساهم فى مزيد من التكيف والمرونة والتكامل للبناء الاجتماعى، بينما الصراع اللاواقعى فى بيئة مغلقة وغير مرنة قد يؤدى إلى العنف والتفكك.

---

(1) Coser : Fun. of Soc. Conflict: p. Chap. IX.

مثل هذه المحاولة لإنشاء نظرية تساعد على فهم الظروف والآثار لهذه العملية الديناميكية في المجتمع المعاصر، هي مساهمة عظيمة للنظرية السسيولوجية المعاصرة[1].

وبالرغم من ذلك فإن هذه النظرية يؤخذ عليها بعض المسائل:

١- عن محاولة كوزر الاستعاضة عن البنائية الوظيفية التي اعتبرها ذات جانب واحد، إلا أنه سقط في نفس الفخ إذ أنه اعتبر الصراع تكيف وتكامل.

٢- أفرط كوزر في تبسيط منابع الصراع الاجتماعي.

٣- كما يمكن اعتبار قضاياه عامة وماكروسكوبية حتى أنه يصعب استخدامها، بل وغير ملائمة لفهم مواقف معينة.

٤- يمكن اعتبار نظريته أكثر قربًا من الوظيفية البنائية منها إلى نظريات الصراع.

***

(1) Ibid., Chapt. IX.

تلخيص لنظريات الصراع المعاصرة

سبق أن أشرنا إلى أن نظريات الصراع المعاصرة تعتبر رد فعل جماعة من المثقفين على الصراع الاجتماعي بصفة عامة والعنصري بصفة خاصة. وكذلك كرد فعل لآثار الضغوط العالية للزيادة الكبيرة في عمليات البيروقراطية والتصنيع.

واعتبرت هذه النظريات المجتمع كنسق، نسق متطور من جماعات متنافسة من أجل الحصول على المنابع، ويحكمهم نوع معين من سيادة الصفوة.

واعتبرت الظروف الاجتماعية والديموجرافية المختلفة كمحدد لكثافة واستمرار وشكل الصراع الاجتماعي، بينما يمثل البناء الاجتماعي نمط السيادة الموجود في المجتمع في مرحلة معينة من تطوره.

ويلاحظ أن دراستها لكل من مليز وداهرندوف وريسمان وكوزر قدمت لنا عدداً من المتشابهات بينها، لجميعهم وإن كانت لهم حياتهم الأكاديمية إلا أنهم انشغلوا بالسياسة. ومعظمهم قد لاحظ الصراع الاجتماعي في داخل المجتمع الأمريكي الذي يمر بمرحلة تتميز بمعدلات عالية من التصنيع والبيروقراطية. وقد تركز اهتمامهم جميعا على دراسة الصراع وأنماط السيادة في داخل المجتمع الصناعي المعاصر.

كما يمكن رؤية التشابهات الآتية في نظرياتهم:

١- كان هدفهم التحليل للصراع والسيادة في داخل المجتمع الصناعي الحديث.

٢- اعتبروا أن المجتمع يمثل نسقًا من الجماعات أو المصالح المتنافسة.

٣- ينبعث الصراع الاجتماعي أو الطبقي في ظل ظروف اجتماعية أو تنظيمية معينة.

٤- يساهم التصنيع والبيروقراطية في صنع الأشكال الرأسمالية من السيادة والمركزية والصفوة.

٥- يساهم الصراع الاجتماعي في مزيد من التطور والتكيف الاجتماعي، وهكذا يمكن اعتبار أن نظريات الصراع المعاصرة تمثل رد فعل راديكالي للأشكال المعاصرة من الصراع والسيادة. كما يلاحظ أن التواصل بين نظريات الصراع المبكرة والمعاصرة واضح جداً في أسلوب الصياغة وفي استخدام الأفكار المبكرة.



الفصل الرابع

السلوكيون الاجتماعيون

أولاً: السلوكيون الأوائل

- فيبر
- ميد

نسقي

- سمل
- سمنر

طبيعي

ثانياً: السلوكيون المعاصرون

- بلومر
- جوفمان

نسقي

- جارفنكل
- بلاو

طبيعي



السلوكيون الاجتماعيون

الظروف الاجتماعية

يعتبر السلوكيون الاجتماعيون مجموعة من المفكرين تمثل أفكارهم رد فعل لمشاكل معينة في ظل نوع من التفكير المشترك إذ أنهم من البروتستانت فيما عدا سمل Simmel. وقد نالوا تعليما واسعًا في التاريخ والفلسفة واللاهوت. وكان مسارحياتهم أساسًا أكاديميًا، ولقد كابدوا الآثار الدينامكية للتصنيع والتحضر. ولقد نشأ معظمهم متأثرًا بمثالية عصر التنوير، والنظريات التطورية، والداروينية، والمذهب العملي الحديث.

وهكذا يمكن اعتبار أن المذهب السلوكي الاجتماعي هو رد فعل جماعة من مفكري البروتستانت كمحاولة لمواجهة المشاكل الحديثة للتغير الاجتماعي. فهذه النزعة تعتبر بشكل جديد من المذهب العضوي ولكن يتجه إلى دراسة الوحدات الصغرى، حيث تدرس العوامل الفردية كمحدد للسلوك الاجتماعي، وحيث تنظر إلى المجتمع من ناحية منظور الفرد، إذ تعتبره مجموعة من القيم من ناحية، ومن ناحية أخرى كمجموعة من الأشخاص المتفاعلين، فهذه النظرة انبعثت كاستجابة لحاجات النسق عند مستوى الوحدات الصغرى.

وهكذا أصبحت الظواهر المعيارية والثقافية عند مستوى الوحدات الصغرى موضع اهتمام هؤلاء المفكرين وبؤرة دراساتهم. وذلك في محاولة لفهم المجتمع عند المستوى الفردي، وخاصة ما لاحظه هؤلاء المفكرين من تزايد الوعي الاجتماعي نتيجة لتأثيرات التصنيع. وبتقدم التحضر والنمو الاقتصادي، حاول علم الاجتماع فهم هذا البناء الاجتماعي المتغير عند المستوى الفردي في ضوء قيم عصر التنوير مثل المثالية. تمامًا مثل ما يحدث حديثًا من التركيز على القيم الفردية للأخلاق البروتستانتية والمذاهب التابعة لها.

والنزعة السلوكية الاجتماعية مثلها مثل النظريات الأخرى لديها عدد من الأنماط الفرعية، فهناك نموذج التفاعل الاجتماعي المتبادل، والنموذج الطبيعي، بمعنى

النمط النسقي والنمط الطبيعي. فالنمط النسقي يمكن مشاهدته في أعمال فيبر Weber وميد Mead فهما يعتبران أن الفرد نتاج المجتمع ومن ثَمَّ يركزان على العمليات الاجتماعية المهمة. بينما النمط الطبيعي يعتبر الغرائز الإنسانية أو الحاجات الإنسانية أساساً للعمليات الاجتماعية عند مستوى الوحدات الصغرى، التي يعتقدون أنها أساس المجتمع.

وإن كان النمطان يختلفان في أساسهما فإن نماذجهما متشابهة، فهي دراسات للحقيقة الاجتماعية عند مستوى الوحدات الصغرى وتطورية واستقرائية.

السلوكية الاجتماعية المبكرة

النموذج النسقي

تعتبر هذه الدراسة أن الفرد رشيد ويمثل نتاجاً لمجموعة معينة من العلاقات الاجتماعية. فهي تعتبر أن المجتمع ما هو إلا مجموعة من العلاقات والقيم، وأهم عمليات المجتمع هي التنشئة الاجتماعية والتفاعل المتبادل بين أعضائه. وطبقاً لهذه الفكرة اعتبرت الفرد كتاباً خطه المجتمع، ويعكس توجيهات القيم السائدة التي نشأت في داخل محتوى اجتماعي معين. مثل هذه النظرة المعيارية النسقية عن الحقيقة الاجتماعية نجد لها تعبيراً صادقاً فيما كتبه كل من فيبر Weber وميد Mead.

***

ماكس فيبر
MAX WEBER
(١٨٦٤ - ١٩٢٠)

ولد ماكس فيبر من أسرة بروتستانتية فى ألمانيا من الجناح اليمينى للأحرار. ولقد تلقى فيبر تعليما واسعاً فى الاقتصاد والتاريخ والقانون والفلسفة واللاهوت، وتربى فى ظل الفلسفة المثالية الألمانية. وعمل فيبر أستاذاً للاقتصاد فى جامعة فرايبورج Freiburg، ثم أستاذاً فى جامعة هايدلبرج Heidelberg أستاذاً للاقتصاد. ولقد كان فيبر منشغلا بالسياسة الألمانية من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يحاول صنع علم اجتماع موضوعى أى متحرر من القيم Value-Free. فقد كان فيبر مهتما بروح الإنسانية وخاصة بالقيم، معتبرا الفرد فاعلا أكثر من مجرد صنيعة للتاريخ.

ويلاحظ أن كثيراً من كتابات فيبر لا تنتمى إلى ميدان علم الاجتماع بنطاقه المعروف فأغلبها يعالج مشكلات ملموسة أكثر مما يعالج موضوعات أساسية فى النظرية العامة لعلم الاجتماع. ومع ذلك فقد كان فيبر يتمتع بقدرات تحليلية فائقة مكنته من تقديم إسهامات خطيرة إلى النظرية فى علم الاجتماع، وذلك من خلال دراسته المتعمقة لهذه المشكلات، بل ولقد أسهم فى النظرية بدراسته لمشكلات وموضوعات لا ترتبط بشكل مباشر بالنظرية[١].

وكانت أهم كتاباته تعكس اهتمام فيبر بتطور نسق قيم النوع البشرى، ومن أهم ما كتبه فيبر الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية (١٩٠٥) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism وكذلك كتابه علم الاجتماع الدينى (١٩٢٠) Sociology of Religion وكذلك كتابه الاقتصاد والمجتمع (١٩٢٣) Economics and Society.

---

(١) نظرية علم الاجتماع -نيقولا تيماشيف- ترجمة دكتور محمود عودة وزملاؤه- دار المعارف ١٩٧٧ ص ٢٥٣.

عرف فبر علم الاجتماع على أنه (العلم الذي يحاول شرح وفهم الفعل الاجتماعي من أجل الوصول إلى التفسير السببي causal explanation لسبب حدوث الفعل وآثاره)[1]. ويلاحظ أن هذا التعريف يتضمن عدة عناصر محورية: (أ) محاولة التفسير أو الفهم، (ب) التركيز على الفعل الاجتماعي أي السلوك المتصل به المعنى الذاتي subjective meaning وهو يعني بذلك التركيز على القيم الاجتماعية كعنصر أولي في توجيه السلوك الفاعل، (جـ) وأخيراً محاولة صنع تفسير سببي لهذه الظاهرة.

وهكذا نجد أن فبر كان مهتما بالفهم العلمي للسلوك الاجتماعي إذ اعتبره بؤرة علم الاجتماع. ومن ثمَّ ركز فبر على الفهم الموضوعي للقيم الاجتماعية في محتوى تاريخي، وحاول تقدير وطأتها الاجتماعية على المجتمع. ومن أجل ذلك درس فبر مواضيع متعددة، مثل الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، والسلطة الكاريزماتية charismatic authority، والبيروقراطية bureaucracy، والترشيد rationality. وذلك أنه كان يعتبر أن علم الاجتماع لابد أن يهتم بدراسة القيم المتقاطعة crucial values أي المتشابكة التي تحدد السلوك الاجتماعي عند نقطة معينة من تاريخ تطور المجتمع.

وهكذا يمكن ملاحظة أن هذا النوع من الدراسة يختلف تمامًا عن دراسات الوحدات الكبرى والنواحي البنائية للمجتمع.

نظرية الفعل الاجتماعي
SOCIAL ACTION

يعتبر فبر أن الفعل الاجتماعي له معنى عند الفاعل عندما يفترض الفعل معنى ذاتي كما أنه يأخذ في حسبانه سلوك الآخرين، ومن ثمَّ فالفعل يعتبر موجه نحو الآخرين.

---

(1) Weber, Max: "Basic Concepts in Sociology" Peter Owen. London. 1962.

واعتبر فبر أن هناك عدداً من الأنماط المتمايز للمعنى Meaning:

١- معنى مقصود واقعى للفعل الفردي الثابت، ويعنى به المعنى الذاتى.

٢- مستوى الواقعية للفعل المقصود، ويعنى به المستوى المعيارى للجماعة.

٣- المعنى الملائم للصياغة العلمية الخالصة، مثل التجريد والنماذج النظرية.

وكل الأنماط الثلاثة تتعلق بأنماط متعددة من التفسير السببى.

اعتبر فبر أن الفعل الاجتماعى مختلف فى مستوى الرشد rationality ولقد وضع فيبر أربعة أنماط من الفعل الاجتماعى تتراوح بين أقل وأعلى مستوى من الرشد وهى:

١- الفعل الاجتماعى الموجه بالتقاليد traditionally Orianted social action، ويعنى به السلوك التقليدى taditional behaviour، وهو يقع قريباً من حدود ما يمكن أن يقال عنه فعل يوجه معنى، وإن كان فى الغالب يقع فى الجانب الآخر، لأنه غالباً ما يكون رد فعل تلقائى automatic للمنبهات المعتادة، فهو عبارة عن السلوك المعتاد الذى تحدده التقاليد، إنه ذلك الحجم الكبير من الأفعال المعتادة يومياً التى ألفها الناس.

٢- الفعل الاجتماعى الموجه بالعاطفة، ويعنى به السلوك العاطفى الخالص Purely affectual behavior، وهذا الفعل يقع أيضاً عند حدود المعنى meaninfully وغالباً ما يعبر هذه الحدود. فمثلا قد يتضمن هذا الفعل رد فعل غير مضبوط لبعض المنبهات غير العادية. إنها حالة من التسامى sublimation عندما يحدث الفعل المحدد عاطفياً فى شكل تحرر الوعى من التوتر العاطفى. وعندما يحدث هذا نكون على الطريق نحو الترشيد.

٣- توجيه رشيد نحو قيم مطلقة absolute value، ويعنى به الفعل الاجتماعى الذى يحدده مجموعة معينة من الأخلاق والقيم. ويتمايز هذا الفعل عن النمط العاطفى، بوعى الفاعل التام بالصيغة النهائية للقيم الحاكمة للفعل. وفى الوقت نفسه كل من النمطين (٢، ٣) لهما عناصر مشتركة، أعنى أن معنى

الفعل لا يكمن في إنجاز نتيجة خلفه، ولكن في إنجاز وإتمام نمط معين من الفعل من أجله وحده. والأمثلة على الفعل العاطفي هو الإشباع لضغط مباشر للانتقام، تكويس الإنسان نفسه لشخص أو فكرة، أو أخيراً العمل على التخلص من التوتر العاطفي.

والأمثلة على التوجيه الرشيد الخالص نحو قيم مطلقة، هو الفعل لأشخاص الذين بغض النظر عما قد يقع عليهم من التكاليف المحتملة، يفعلون ليمارسوا معتقداتهم التي يشعرون أنها من متطلبات الواجب والشرف والجمال الخالص والدعاوى الدينية والولاء الشخصي.

وعندما يكون الفعل موجه إلى قيم مطلقة، فإنه يتضمن دائمًا أوامر commands أو متطلبات demands، التي يشعر الفاعل أن عليه واجب القيام بها. إنه فقط في الحالات حيث يحرك الأفعال البشرية إنجاز مثل هذه المتطلبات غير المشروطة، تلك هي الأفعال التي يمكن أن توصف بأنها موجهة إلى قيم مطلقة.

٤- فعل موجه عقليًا نحو نسق من الغايات الفردية مميزة، عندما تكون الغايات والوسائل والنتائج قد أخذت كلها في الاعتبار عقليًا وقدرت. وذلك يتضمن التأمل العقلي للوسائل والغايات البديلة، وكذلك إمعان النظر العقلي لعلاقات الغايات بالنتائج المتوقعة من استخدام أي وسيلة متاحة، وأخيراً الأهمية النسبية لمختلف الغايات المحتملة. الاختيار بين البدائل والغايات والنتائج المتصارعة قد يحددها التقدير للقيمة المطلقة. وفي هذه الحالة يكون الفعل موجهًا عقليًا إلى نسق من الغايات الفردية المميزة فقط بالنسبة إلى اختيار الوسائل. ومن ناحية أخرى ربما الفاعل بدلاً من أن يبت بين البدائل والغايات المتصارعة في عبارات من التوجيه الرشيد إلى نسق من القيم، فإنه ببساطة يأخذها كرغبات ذاتية ويرتبها بوعي في سلم حسب أهميتها.

ويلاحظ أن فيبر ختم هذا التصنيف بقوله إنه من النادر جداً أن نجد أفعالا اجتماعية قد وجهت فقط تبعًا لواحد أو آخر من هذه الأساليب، وأكثر من ذلك

أن هذا التصنيف من أساليب التوجيه لا يعني بأي شكل أنه يستوعب إمكانيات المجال الاجتماعي، ولكن فقط هو عبارة عن صياغة مفهومية لأشكال خالصة من الأنماط ذات أهمية اجتماعية. والتي بالنسبة لها الفعل الحقيقي قد يقترب منها كثيراً أو قليلاً.

كما أنه وإن كان هذا التنميط طبقًا لرأي فيبر ليس شاملاً ولا مانعًا إلا أنه يمثل بالأحرى أنماط من التوجيه الاجتماعي تدور من الثقافة ذات النزعة الفردية القليلة والضبط العالي للتقاليد، إلى تلك الثقافة ذات النزعة الفردية العالية ويقل فيها نسبياً ضبط التقاليد[1].

ولقد حمل فيبر على رسم وتوضيح أنواع الشرعية والعلاقات والاتحادات والجماعات، والضبط المتغرس في كل شكل من أشكال التوجيه، من التقليدي إلى العاطفي إلى التوجيه الرشيد الذي تحدده القيم المطلقة، إلى التوجيه الرشيد الذي تحدده الغايات الفردية كالآتي:

١- في النوع التقليدي، تكون الشرعية مؤسسة على الميول والاتجاهات الدينية، وعلاقات التضامن جمعية، والاتحادات إجبارية، والجماعات المشتركة سياسية، والضبط قائم على النظم الدقيق.

٢- في النوع العاطفي، مؤسس على الولاء العاطفي والمشاركة جمعية، وفيه يكون الاتحاد اختياري والجماعات المشتركة ثورية، والضبط يقوم على أساس القوة.

٣- التوجيه الرشيد المحدد بقيم شرعيتها مستمدة مما تقوله هذه القيم، وفيها تكون العلاقات اتحادية، وتكون الاتحادات إجبارية والجماعات المشتركة مقدسة والضبط قائم على النظام.

٤- التوجيه الرشيد نحو نسق من الغايات الفردية يكون مؤسسًا على المصالح الذاتية والعلاقات اتحادية، واتحادات إجبارية، والجماعات المشتركة سياسية والضبط قائم على القوة.

---

(1) Weber: "The Theory of Social and Economic Organization", Trans. A.M. Henderson and Tallcot Parsons, ed. Parsons. Glencoe, Ill.: The Free Press, 1947. Part I P.P. 88, 112-23.

وهكذا تكون الأنماط المختلفة من المجتمعات أو الأفعال الاجتماعية مؤسسة على أنماط مختلفة من القيم أو من مستويات الرشد.

نظريته في التغير

بعد أن صاغ فيبر نظريته في الفعل الاجتماعي وموجهاته أقام على أساسها نظريته في التغير الاجتماعي وخاصة أنه (قد بدت لفيبر الماركسية نظرية حتمية وحيدة العلية لا يمكن الدفاع عنها أو تأييدها، ومن ثَمَّ تصبح مجحفة وغير مناسبة لإعادة بناء العلاقات الاجتماعية أو التاريخية. وشعر فيبر أن ماركس كاقتصادي قد ارتكب نفس الخطأ الذي يفعله الانثروبولوجيون في أيام فيبر، من إقامة نظريات جزئية لما هو عظيم الأهمية، واختصار تعدد العوامل العلية إلى نظرية عامل وحيد)[1].

فقد كان فيبر يدرك أهمية العلاقات المتبادلة في كل الوضع النظامي الذي يصنع البناء الاجتماعي، ولهذا كان من أهم وجوه النقد التي وجهها إلى الماركسية هي أنها فشلت في التمييز بين ما هو اقتصادي بحت وبين ما هو له ارتباط اقتصادي، ويضرب فبر مثلا على ذلك أن الحجاج إلى روما هم بالتأكيد لهم علاقة بسوق النقود، ولكن لا يجعلهم ذلك مشاريع اقتصادية. فأهمية الأفكار الدينية أو السياسية للنظم الاقتصادية لا تحول تلك الأفكار إلى عوامل اقتصادية، إنما المسألة تختص بعلاقاتهم الاقتصادية[2]. فقد فسر فبر الديناميكية الاجتماعية على أساس تحليل تعدد العوامل التي يمكن عزلها وقياسها تبعًا لأهمية أسبابها الخاصة، وفعل ذلك بالتحليل المقارن للوحدات القابلة للمقارنة التي توجد في مختلف الثقافات.

ولكن يلاحظ أن فبر كان شديد الميل لإعطاء العوامل اللامادية وخاصة العامل الديني أهمية أكبر، (فيما يختص بالتأثيرات الأولية المختلفة على أنماط الثقافة

---

(1) Gerth, H. Mills, C.W.: "From Max Weber, Essays in Sociology" A Galaxy Book, Oxford University Press, New York, 1958. P.P. 46-47.

(2) Ibid.: P. 47.

والمجتمع، بلا ريب أثبت فيبر الأسبقية لأنساق التوجيه الديني، وتنبعث هذه النتيجة بوضوح من سلسلة دراسته المقارنة في علم الاجتماع الديني)[1].

فلقد أكد فيبر في علم اجتماعه الديني أن المعتقدات الدينية هي القوى الدافعة للتغيير الاجتماعي، ففي رأيه لا شيء أثر في مجرى التاريخ الإنساني بأسلوب ثوري كما فعلت الديانات العالمية الكبرى من حيث النتائج الاجتماعية لتعاليمها. فقد اعتبر فيبر أنها تنتمي للقوى الديناميكية الحقيقية للتاريخ.

إذ يعتبر فيبر أن انبعاث ديانة جديدة في مجتمع يحدث كسرا كبيرا وهاماً للنمو التاريخي، وذلك أنه (إذا انبعث مجتمع ديني في ظل نبي أو داعية مخلص، أو لا يقع الضبط للسلوك المعتاد في أيدي الخلفاء المؤهلين بمواهب والتلاميذ وأتباع النبي أو المخلص. وكقاعدة يقف النبي أو المخلص شخصياً في تعارض مع القوى التقليدية المقدمة للسحرة أو الكهنة)[2].

(إن النبي في هذه الحالة يضع إلهامه الشخصي Personal charisma في صراع ضد مراكز السحرة والكهنة المؤسسة، ومقاماتهم المؤيدة بالتقاليد، بهدف تحطيم قوتهم أو إجبارهم على اتباعه)[3].

ولهذا يعتبر فيبر أن حالات الديانات النبوية عاشت ليس فقط في حالة حادة من التوتر بل ودائمة بالنسبة للمجتمع الذى تظهر فيه. وتزداد حدة هذه التوترات كلما زادت الديانات صدقًا كديانات إنقاذ. ويتضخم أيضًا التوتر كلما كانت الأخلاق أكثر رشدا rational، وكلما زاد توجيهها للقيم المقدسة كوسيلة للخلاص.

ويبدو أن دراسات فيبر في الديانات وخاصة السماوية جعلته يكتشف العنصر الفعال أو الديناميكي في النبي. وأطلق على هذا العنصر اصطلاح الإلهام Charisma

---

(1) Parsons, T.: "Evaluation and Objectivity in Social Science: an interpretation of Max Weber's Contobution" International Social Science Journal, Unesco, Volume VII 1965, P. 59.

(2) Gerth and Mills: From Max Weber, P. 327.

(3) Ibid.: P. 328.

(فمفهوم الإلهام كمنبع للحركات الروحية ذات الكثافة العظمى، وجد مناسبًا لوصف الظواهر العالمية)[1].

وعمل فبر على توسيع مفهوم الإلهام ونقله من المتن الديني إلى الحياة الإنسانية بأسرها. فالقواد الملهمين عنده، هم أولئك الذين يتبعهم من هم في كرب وشدة ويكونوا في حاجة إلى اتباع قائد لاعتقادهم فيه أنه ذو مؤهلات فوق العادة.

وإن كان فبر يؤكد على سيادة الرجل الملهم، فإن فبر لم يقلل من ميكانيكيات النظم، ومن ناحية أخرى لا يعني ذلك تفسيره ما هو اجتماعي بما هو سيكولوجي، وخاصة مفهوم الشخصية. (فقد كان فبر يرى في مفهوم الشخصية فكرة سيئة الاستعمال جدًا، إذ تشير إلى مركز لا عقلي للإبداع، مركز يتوقف عنده البحث التحليلي)[2]. ولهذا كان فبر ينظر دائمًا إلى الفرد في متن اجتماعي، (فبالنسبة لعقل الفرد، المعنى والحصول على المعنى لظواهر العالم كانت دائمًا مسائل يقررها الفرد في اختياره الحر بين مختلف الأرباب)[3].

وهكذا كان موقف فبر العقلي واضحًا أثناء عملية نقده لبناء فلسفة التاريخ في عصره، فعنده الفرد يفوق ويعلو العالم التجريبي، بواسطة قدرته على اتخذ موقف عقلي فيما يختص بالعالم، وأن يختار بين القيم المختلفة، ويستطيع الفرد قيادة أفعاله إلى أعلى المثل.

فعند فبر الأمانة العقلية كانت في عملية الانتخاب العظيمة التي تجريها الشخصية للاختيار بين القيم. فلقد كان يعتبر أن قانون الحياة لأي نمط عقلي كأسلوب للحياة، هو عبارة عن اختيار مسؤول من بين مختلف مجموعات القيم التي تقدم نفسها في أي وقت. فعملية الحسابات الرشيدة للدافع والنتائج، أي عملية الاختيار، ترفع الشخصية في ذاتها فوق الطبيعة السفلية الفريزية النامية بلا فروق. واعتبر أن هذا هو العمل الحقيقي لكل العلوم، فعملها هو مساعدة كل فرد في جلاء أفكاره عن المعنى النهائي لأفعاله، بإبلاغه عن الوسائل المناسبة لتحقيق

---

(1) Mommsen, Wolfgang: "Max Weber's Political Sociology and his Philosophy of World History" International Sociology: op. cit. P. 33.

(2) Greth and Mills: op. cit. P. 55.

(3) Mommson: op. cit. P. 28.

مثله، وقبل كل شيء، توضح له الآثار المحتملة لهذه الوسائل على المثل المتناقضة وتضع أمامه النتائج الكاملة لقراراته.

ومن ثمَّ فجوهر الشخصية عند فيبر هو فعل عقلي رشيد في خدمة الأهداف الأساسية، ومهما كانت هذه الأهداف شخصية خالصة في الأصل، فإنها تنتمي للمجالات الرفيعة للشخصية. وهذه المجالات الرفيعة تقف في تعارض مع العمليات العقلية للعالم الجامد. ومن ثمَّ يقوم صراع مستمر بين المبادئ المتعارضة، وفي الوقت نفسه ينعكس هذا الصراع في الواقع الاجتماعي، في التضاد بين الرجل الثقافي والرجل التكنيكي. فالشخصية المبدعة التي تحمل وتوجه نحو قيم تعتبر خيالية بالنسبة للواقع الاجتماعي، ولهذا تكون حرة من شروط البيئة (وخاصة التقاليد)، ومن ثمَّ تكون في صراع مستمر مع الرجل التكنيكي (أي الرجل المحكوم بالآلة) والرجل النظامي (أي الرجل المحكوم باللوائح والقوانين)، أولئك الذين تحدد الظروف الموجودة أفعالهم. هذه الشخصية المبدعة ذات الديناميكية الاجتماعية التي تظهر عندما تتجمد أشكال الحياة الروتينية وتثبت عدم إشباعها وعدم كفاءتها للسيادة على حالة نامية من التوتر والمعاناة، وضع فيبر لمثل هذه الشخصية مفهوم الإلهام. وهكذا نجح فيبر في انتزاع مفهوم الشخصية من منته السيكولوجي وأقامه على أساس اجتماعي.

وبذلك يصبح الإلهام charisma عند فيبر عبارة عن شكل من الطاقة الروحية تؤدي إلى انبعاث مثل أخرى غير الموجودة في المجتمع الذي يظهر فيه الشخص الملهم. ومن ثمَّ تتضاد بشدة حقائق الحياة اليومية، ولهذا إما أن تصبح ثورية أو أن يتخلص منها المجتمع سريعاً. هذا التوتر بين القيم التي يبشر بها الشخص الملهم وبين الواقع اليومي يتصف بالحلة المتناهية، فهو موقف يتمثل في التعارض بين الحياة اليومية للنظم القديمة وبين الطبيعة التلقائية للقائد الملهم، أي الروتين ضد المشاريع الإبداعية وتقاليد الناس العاديين ضد الحرية الداخلية للرجل الملهم الصاعد وغير العادي، والقواعد النظامية ضد الفرد المنبعث.

ولكن هذا الموقف لا يتضمن ثباتًا أو دوامًا، لأن الإلهام في الأيام الأولى ربما يحرك أتباع بطل محارب أو نبي تحت تأثير الحماس والإخلاص الذي حركه القائد الملهم عند الناس للتخلي عن أنماطهم وتقاليدهم الموروثة من أجل الأفكار والقيم التي أعلنها، فإذا أريد لهذه الأفكار والقيم دواما وثباتًا فلابد من إجراء عملية اجتماعية وهي تحويل هذه القيم إلى أشكال وأساليب في الحياة اليومية. ولما كانت هذه القيم بالمقارنة مع ظروف الحياة اليومية عبارة عن يوتوبيا، فمن ثمّ في بدء الحركة، يصبح أي تفكير عن التكيف والتكامل مع الظروف الموجودة غريبًا عن طبيعتها، ولهذا لا يسأل الأتباع عن النتيجة، ولكن يكافحون بالاقتصار على طاعة وصايا القائد الملهم، وذلك هو السبب في أن حركات الإلهام Charisma ثوراتها تنتمي للقوى الديناميكية الحقيقية للتاريخ.

وقد وصف فبر تأثير الإلهام في الآتي: (تؤسس قوة الإلهام على الاعتقاد في بطل ملهم. وعلى الاعتقاد العاطفي لأهمية وقيمة إعلان ديانة أو أخلاق أو فن أو علم أو سياسة أو من أي نوع آخر، وعلى بطولة سواء نسكية أو حربية، وعلى حكمة قانونية وعلى هبات إعجازية أيًا كانت، وينشدون تشكيل الأشياء والمواقف طبقًا للإرادة الثورية - من الداخل- من مركز في العقل السائد تعلن قوتها الثورية. ومن ثمّ فهي تقف في تضاد حاد لأي نظام تقليدي أو بيروقراطي، وكقاعدة تدمر قوة الإلهام النظام إذا لم تستطع تطويعه لاتباعها، فالإلهام هو بصفة خاصة قوة التاريخ الثورية المبدعة. ويتركب تأثيرها الثوري من قدرتها على تحوير المعتقدات والاتجاهات نحو كل شيء في الحياة والعالم. فلقد وجد أن تأثيرات مختلف الأخلاق الدينية على وعي الفرد، وهي حالات خاصة بهذه الظواهر العالمية)[1].

ويتبين من هذا أن فبر يدحض آراء ماركس، إذ كان فبر يؤكد دائمًا على أن كل أخلاق دينية يجب على الأقل في مسلماتها العليا، أن تشتق أصولها من جذور دينية خالصة، وليست متأصلة في اعتبارات اقتصادية أو سيكولوجية، ولقد عارض فبر بشدة الهراء الماركسي من أن الدين كان مجرد بناء أعلى آيديولوجي يرقد فوق

(1) Mamouin: op. cit. P. 33.

الظروف الاقتصادية، ذلك يؤدى إلى عنصر جوهرى فى المفهوم التاريخى الفلسفى عند فيبر، وهو أن المعتقدات الدينية -فى شكلها الأساسى- أى الإلهام الدينى لأفراد قديسين وأنبياء هى القوة الدافعة الأساسية للتغير الاجتماعى.

وقد كرس فيبر جزءًا كبيرًا من عمله الاجتماعى للكشف عن العمليات التى تجريها ظهور كريزما دينية، ولقد بذل جهدًا كبيرًا فى تأسيس خطوط جديدة للتطور التاريخى.

واعتبر فيبر أنه لم تكن قوة المصالح المادية الموجودة كافية للتطور التاريخى، إنما فى رأيه ما كان مطلوبًا لإحداث التغيرات والتطور التاريخى، هو تأملات القوى الروحية من المنطقة السامية عند كريزما دينية، ولم يشأ فيبر أن يترك مفهومه ليفهم بمعنى جدلى، ولكن اعتبر أن المصالح -مادية ومثالية- وليس الأفكار، التى تحكم مباشرة أفعال الناس، ومع ذلك فوجهات النظر للحياة التى أبدعتها الأفكار كانت عادة توضح الخطوط التى طبقًا لها تقود القوة الديناميكية للمصالح الفعل، ويقرر فيبر أن ما يحدد وجهات النظر للحياة هو ما يرغب الإنسان فى أن يكون عليه أو ما يرغب الإنسان الحفاظ عليه، وتتضمن هذه الفكرة معارضة صريحة وهدمًا قويًا لوجهة نظر الماركسية التى تقرر أنه ليس إدراك الناس هو الذى يعين معيشتهم ولكن معيشتهم الاجتماعية هى التى تعين إدراكهم.

الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية

أراد فيبر أن يثبت تهافت النظرية الماركسية التى تدعى أن النظام الاقتصادى هو المحرك والمغير للحياة الاجتماعية، فقد استطاع فيبر أن يكشف عن أن أفكارًا معينة تكمن وراء شكل معين من الفعل الاقتصادى.

ففى علم الاجتماع الدينى كشف فيبر عن أثر السلوك الموجه بالدين على النظام الاقتصادى، وابتدأ هذا البحث بدراسة أثر ظهور الدين فى مجتمع، فأول ظاهرة يصطدم بها هى ظاهرة القرابة، والمعروف أن علاقات القرابة أشد أنواع العلاقات مقاومة، ورغم ذلك وجد فيبر أن علاقات الأخوة الدينية بين النبى والأتباع تخفض

من قيمة علاقة القرابة، إذ أنه على المعتنق للدين الجديد أن يقف وبصفة نهائية أشد التصاقًا بالنبى وأخوته فى الدين (ذلك يعنى أنه فى داخل المجتمع الجديد أنشأت الديانة النبوية أخلاقًا دينية للأخوة، هذه الأخلاق ببساطة اضطلعت بالمبادئ الأساسية للسلوك الاجتماعى والأخلاقى الذى منحه اتحاد الجوار، سواء أكان مجتمع فلاحين أو أعضاء قرابة دموية، أو أعضاء طائفة، أو الشركاء فى الملاحة والصيد، فعرفت تلك الجماعات عنصرين أساسيين: الأول: ثنائية أخلاق الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية، ثانيًا: أخلاق الجماعة الداخلية، ونتيجة لهذه المبادئ فى الحياة الاقتصادية، فبالنسبة لأخلاق الجماعة الداخلية وجد الواجب الأساسى للأعضاء وهو المساعدة الأخوية فى الأزمات، وأجبر الغنى والنبيل على الإقراض بدون فوائد وإعطاء السلع لمنفعة الفقراء الذين لا يملكون وإعطاء السلف بدون مصلحة، ونشر الضيافة والمعونة بدون مقابل، ويدلون تعويض آخر غير المعارنة، كل هذا نتج من مبدأ احتياجك اليوم قد يكون احتياجى غدًا، هذا المبدأ لم يكن بالطبع موروثًا عقليًا (اقتصاديًا)، ولكن أدى دورًا فى المشاعر، وتبعًا لذلك كانت المساومة فى مبادلة السلع ومواقف التسليف مثل الاسترقاق الناتج عن الديون مقصورة على الجماعة الخارجية)[1].

وفى بحثه عن الطوائف البروتستانتية وروح الرأسمالية، يكشف فيبر عن أثر الدين فى توجيه العلاقات الاقتصادية، فقد لاحظ أنه رغم الفصل الشديد بين الدولة والكنيسة فى الولايات المتحدة منذ منتصف القرن التاسع عشر، حيث يعتبر سؤال المواطن عن ملته ضد القانون، ورغم أنه توجد أعباء مالية كبيرة على المنتمين للكنيسة عن مثيلتها فى أوروبا، ومع ذلك كان يوجد ٩٩٪ ينتمون لكنيسة، وكذلك كان سؤال المواطن إلى أى كنيسة ينتمى، يحدد مدى الثقة فيه، وكان السؤال يسئل بصراحة وبلا خجل. وعلى ذلك (إذا نظر الإنسان فى الحالة فى الولايات المتحدة، يمكن للإنسان أن يرى بسهولة أن السؤال عن البنوة الدينية كان دائمًا يوضع فى الحياة الاجتماعية وحياة الأعمال التى تعتمد على علاقات دائمة وائتمان وتصديق)[2].

---

(1) Gerth and Mills: op. cit, P. 329.

(2) Ibid.,P. 303.

وأورد فبر في بحثه ملاحظات كثيرة رآها بنفسه، وأهمها ملاحظتان:

(الأولى عن بائع مسافر معه في القطار يذكر لفبر دون أن يسأله، أن كل فرد قد يعتقد أو لا يعتقد كما يحب، ولكن إذا رأيت فلاحًا أو رجل أعمال لا ينتمي إلى أي كنيسة على الإطلاق، لن أثق فيه في خمسين سنت، ثم يقول البائع: لماذا يدفع لي إذا كان لا يعتقد في شيء)[1].

والملاحظة الهامة الثانية يذكر فبر فيها (أنه حضر حفل تدشين لأعضاء من طائفة البابتست وفي هذا الحفل رأى أعضاء الطائفة وقد أتوا من أماكن بعيدة إلى مكان التدشين، وهو عبارة عن حوض ماء يغذيه نهير صغير ينحدر من الجبال الزرقاء، وكانت باردة ومتجمدة، ورأى القسيس في حلة سوداء غارقًا في هذا الحوض حتى صدره. ورأى حوالي عشرة أشخاص في أبهى حلل يوم الأحد، وخطوا في البركة واحدًا وراء الآخر، واعترفوا بعقيدتهم البابتستية وغاصوا تمامًا ثم وقفوا مرتعشين يرتجفون في ملابسهم المبللة، وخرجوا من البركة وهنأهم كل الحاضرين، وكان أحد أقارب فبر معه، وأشار إلى رجل كان غارقًا في البركة، وقال له: انظر إليه لقد قلت لك ذلك، ولما سأله فبر، لماذا توقع قدومه؟ أجاب قريبه: لأنه يريد افتتاح بنك في مدينة M، فسأله فبر هل هناك بابتستيون عديدون حوله حتى يمكنه أن يعيش؟ فأجابه قريبه: ليس على الإطلاق، ولكن مجرد أن يصبح بابتست سوف يحصل على رعاية وتأييد كل المنطقة وسوف ينتصر في المنافسة على كل واحد)[2].

وأورد فبر ملاحظات أخرى كثيرة من هذا النوع، مما دفعه إلى تحليل هذه الظاهرة. ولقد وجد أن الانتماء إلى طائفة دينية معروف لدى المجتمع على أنه ضمان مطلق للكيفيات الأخلاقية للرجل، وخاصة تلك النوعيات المطلوبة للأعمال، وبذلك يضمن الانضمام إلى طائفة البابتست تسليم كل الإقليم وتصديق غير محدود وبلا أي منافسة، (فبصفة عامة هؤلاء الرجال الفنيين الذين نجحوا في الأعمال هم أولئك الذين ينتمون إلى ميثودست Methodist أو بابتست أو الطوائف الأخرى)[3].

---

(1) Ibid.,P. 303.

(2) Ibid.,P. 304.

(3) Ibid.,P. 305.

وقد بحث فيبر عن سبب تصديق الناس لعضو الطائفة، فوجد أن الطائفة أولاً متمسكة بالتقاليد الدينية، ومن ثَمَّ فهي لا تسمح بالانضمام لعضويتها إلا بعد استفسار دقيق عن السلوك، قد يمتد إلى الوراء إلى عهد الطفولة، ومن ناحية أخرى أن عضو الطائفة إذا وقع في ضائقة اقتصادية نتيجة خطأ لا إرادة له فيه، فإن الطائفة تنظم وترتب له أموره، فتعطيه ضمانات لدائنيه وتساعده بكل أسلوب، ومن ثَمَّ يصبح توقع الدائنين والمتعاملين مع عضو الطائفة، الاطمئنان، مما يجعلهم يدفعون إليه بأموالهم لاستثمارها دون خوف، إذ أن الطائفة من أجل مكانتها وهيبتها سوف لا تسمح بأن يعاني الدائنون أي خسائر بسبب عضو الطائفة الذي وقع في خطأ لم تعتبره الطائفة حاسمًا بالنسبة لفرصه في النجاح، إذ المفروض أن الطائفة التي تعتبر نفسها ذات سمعة حسنة، لم تقبل في عضويتها إلا شخصاً ذا سلوك جعله مؤهلا أخلاقياً، ومن ثَمَّ فإن عضوية الطائفة تعني شهادة عن كفاءة أخلاقية، وخاصة أخلاق الأعمال عند الفرد)[1]. ويعتبر فيبر أن هذا عكس العضوية في الكنيسة التي يولد فيها الفرد وتضع بركتها على الصالح وغير الصالح، فالبنوة الكنسية هي في الأصل إجبارية، ومن ثَمَّ لا تدل على شيء بالنسبة لكيفيات ونوع العضو، ولكن الطائفة هي اتحاد اختياري للمؤهلين دينياً وأخلاقياً، وبالتالي: (الطرد من الطائفة لفرد بسبب جرائم أخلاقية يعني اقتصادياً خسارة الضمان والتأمين، واجتماعياً الخروج من الطبقة)[2].

وقد كرس فيبر جهداً كبيراً للكشف عن أصل هذه الظاهرة وتطورها، فيذكر أنه في القرون الوسطى كان المسيحيون هم فقط المواطنون بالكامل، وكان الحرمان من عضوية الكنيسة له أيضًا نتائج سياسية، ولما أصبحت أوربا كلها مسيحية، وترعى الكنيسة الصالح وغير الصالح، تطورت المسألة إلى مبدأ من مبادئ المسيحية، وهو المحافظة على نقاء العشاء الرباني، ونتج ذلك قضية من له الحق في اختيار أو طرد فرد من العشاء الرباني لضمان طهارته، ويذكر فيبر أن هذه القضية شغلت أوربا خلال القرن السابع عشر، وعند نشأة الطوائف الدينية وخاصة البيوريتان، اعتبرت

---
(1) Ibid.,P. 305.
(2) Ibid.,P. 306.

نفسها مسئولة عن نقاء العشاء الرباني، ووضعت أسساً للاختيار لعضوية الطائفة، تضمن بها أن لا ينضم لعضويتها إلا الأفراد ذوي النوعيات والكيفيات الأخلاقية الدينية التي تؤهلهم لحضور العشاء الرباني، ويذكر فبر أنه دار الصراع خلال قرون بين المبدأين، الأول الخاص بالكنيسة كاتحاد إجباري لإدارة عملية الصفح والبركة، والثاني الخاص بالطائفة كاتحاد اختياري لأشخاص مؤهلين دينياً.

ويركز فبر الانتباه على أثر مبدأ الاختيار ونتائجه العملية الهامة في التأثير على السلوك، بالإضافة إلى الفكرة الخاصة لحفظ العشاء الرباني نقياً، ومن ثمَّ طرد الأشخاص غير المتطهرين، فادت فبر إلى معاملة نظام الكنيسة على أنه فشل في تشكيل طوائف، واعتبر أن البيوريتانيين القدماء هم الذين اقتربوا من نظام الطوائف.

فلقد كان نظام كنيسة البيوريتان والطوائف يعمل من خلال فكرة ضرورة حاجة الفرد لامتلاك مقدراته، وكان نظام يربي ويختار النوعيات، فعضو الطائفة عليه أن يكون لديه نوعيات من نوع معين لدخول دائرة المجتمع، كون الفرد حائزاً لتلك النوعيات، كان مهماً لنمو الرأسمالية الحقيقة الرشيدة، إذ لكي يحافظ العضو على مصيره في هذه الدائرة، عليه أن يثبت باستمرار أنه حائز على هذه النوعيات، وأنها متولدة فيه باستمرار وثبات، وطبقاً لكل الخبرات لم يكن هناك وسائل أقوى لتربية السمات من تربيتها خلال ضرورة أن يثبت الفرد ذاته في دائرة اتحاداته، ولذلك كان النظام الأخلاقي المستمر والمؤدب العنيف للطائفة، مرتبط بنظام سلطة الكنيسة البيوريتانية كتربية واختيار رشيد، وذات علاقة بالمسموحات والممنوعات. ووضعت الطوائف البيوريتانية فكرة اهتمام الفرد بالاحترام الاجتماعي كأعظم قوة في خدمة تربية تلك السمات. وبذلك وضعت الدوافع الفردية والمصالح الذاتية للشخص أيضاً في خدمة المحافظة على الأخلاق البيوريتانية البرجوازية ونشرها، ويقوم هذا الأسلوب في التربية على أساس المكافآت المقررة على السلوك. وتعمل هذه المكافآت من خلال شكل وظروف الوسائل الخاصة بالخلاص، فكانت توضع المكافأة على إثبات الذات أمام الرب بمعنى الحصول على الخلاص، الذي يوجد

عند كل الطوائف البيوريتانية، والثانى إثبات الذات أمام الناس، بمعنى تملك مصير الذات اجتماعياً فى داخل طائفة البيوريتان، كل من المظهرين متبادلين ومتكاملين ويعملان فى نفس الاتجاه، فهما يساعدان على إعطاء روح الرأسمالية الحديثة.

ذلك بالإضافة إلى أن هذه الطوائف شكلت أحد أهم الأسس التاريخية لنزعة الفردية الحديثة التى تعتبر الحجر الأساسى فى المذهب الرأسمالى الحديث، ويتضح من ذلك أن فيبر يركز ليس على المذهب الأخلاقى فى الديانة فى ذاته، ولكن على ذلك الشكل من السلوك الأخلاقى الناتج عنه، ذلك السلوك عند البيوريتانيين كان أسلوبًا للحياة معين ومنهجى وعقلى، مهد الطريق لروح الرأسمالية الحديثة.

وأيضًا فى بحثه عن الخلفية الدينية لتلك الطوائف البروتستانتينية، وجد فيبر فى وثائقهم الأدبية، ما يؤيد أثر المبادئ الدينية لهذه الطوائف فى نشأة روح الرأسمالية الحديثة. فلقد وجد فى وثائق الكويكرز Quakers والبابتست تكراراً وتركيزاً على حقيقة أن الخطيئة ابنة العالم تعمل على فقد الثقة فى الأعمال بين الواحد والآخر، ولكن لهم ثقة فى الاستقامة الدينية للمتدين، ولهذا أعطى الناس الائتمان وأسلموا أموالهم فقط للمتدينين، وأجروا عمليات الشراء فى حوانيتهم، لأنه هناك، وهناك فقط، يجدون الائتمان للحدمة والأمينة، وكما هو معروف يقول دائمًا البابتستيون أنهم أول من رفع سياسة تحديد السعر إلى مبدأ، وبالإضافة للبابتست، أصلى الكويكرز صيحة تكشف عنها الفقرة التالية التى جذبت انتباه فيبر، عثر عليها وسيل له فى البحث فى وثائقهم (فلم يكن الأمر يتعلق بالقانون، إذ كان يتمسك الأعضاء الأوائل بكلماتهم وارتباطاتهم إذ يعتبرونها مقدسة.. هذه السمة لوحظ أنها صادقة لديهم فى أعمالهم التجارية، وعند بداية ظهورهم كمجتمع، عانوا كثيراً كرجال تجارة، لأن الآخرين استاءوا من أحوالهم الخاصة، إذ أخذوا زبائنهم من حوانيتهم، ولكن بعد قليل كانت الصيحة العظمى ضدهم أنهم أخذوا تجارة البلاد فى أيديهم، نشأت هذه الدعوى جزئياً من تحررهم الشديد من التعقيدات التجارية بينهم وبين الآخرين، وكلية لأنهم لم يطلبوا سعرين للسلع التى يبيعونها)[1].

---
(1) Ibid.,P. 312 - 313.

وكذلك وجد فيبر أن هذه الطوائف تعتقد في أن الرب يبارك ويتفضل بالغنى على من يسره خلال الشخصية أو خلال نوع سلوكه، وحولت الطوائف البروتستانتينية تلك الفكرة إلى مجال العمل، فكانت أحد مبادئ الرأسمالية المبكرة - وهو الأمانة خير وسيلة- هذه العلاقة بين المبدأ الديني والمبدأ الرأسمالي كانت توجد عند كل الطوائف، ولكن كصفة متميزة ومستمرة وثابتة، فإنها توجد فقط عند البروتستانت.

يعتبر فبر أن (كل النمط الأخلاقي البرجوازي كان شائعًا منذ البداية عند كل طوائف التقشف، وهي متماثلة ومتطابقة للخلق الذي تمارسه الطوائف في أمريكا في الوقت الحاضر.

مثلا الميثودست Methodists يحرمون الآتي: ١- المساومة أثناء البيع والشراء، ٢- البيع بالأجل، ٣- جعل معدلات الربح أعلى مما يسمح به قانون البلاد، ٤- حشد الكنوز في الأرض (أي عدم تحويل رأس المال السائل إلى الاستثمار في السندات الحكومية)، ٥- الإقراض بدون التأكد من قدرة الإنسان لإعادة دفع الدين، ٦- الكماليات من كل نوع)[1]، وإلى جانب هذا الخلق هناك المكافآت الاجتماعية والأسس التنظيمية للطائفة الدينية.

وكانت هذه الاتحادات، بصفة خاصة، المراكب النموذجية للارتقاء الاجتماعي في دائرة رجال الأعمال من الطبقة المتوسطة، إذ يعني الانضمام إلى الطائفة أنه رجل مختبر أخلاقيًا يستحق الائتمان، ويذكر فبر أنه يمكن بسهولة ملاحظة أن فرص العمل كانت غالبًا تتأثر بصفة حاسمة بهذا التصديق الشرعي. ومن ثمّ عملت هذه الطوائف على حفظ وانتشار روح أعمال البرجوازيين الرأسماليين بين شريحة واسعة من الطبقة المتوسطة، فالطبقة المتوسطة، لا سيما الشريحة الصاعدة، كانوا حملة هذا الاتجاه الديني الخاص، والذي يمكن للفرد ملاحظته بينهم كمحدد لفرص النجاح، ويذكر فبر أنه معروف جيدًا، أن كثيرًا من المؤسسين الأمريكان بل معظم رؤساء الصناعة والأقطاب الموثوق بهم ينتمون رسميًا للطوائف وخاصة البابتست.

(1) Ibid., P. 313.

ويذكر فبر أن الإمعان الدقيق يكشف التقدم المتواصل لصفات عملية التحول للعلمانية في الزمن الحديث، التي استسلمت لها كل الظواهر التي نشأت في مفاهيم دينية، وليس فقط الاتحادات الدينية، والطوائف الدينية، التي كان لها تأثير كبير على الحياة الأمريكية ورغم أن الاهتمام الكنسي كان يتدهور بسرعة، ورغم أن كثيراً من هذه الظواهر بدت وكأنها تتفكك بسرعة وخاصة في المنظمات الدينية، ومع ذلك يوجد لها رواسب ما تزال حية في عديد من الميادين، فلقد ظلت صفة الائتمان لعضو الطائفة ثابتة.

فأصبح -١٩٠٦- نوع من الطوائف التي ينتمي إليها الفرد هي بالأحرى لا يعنيها الأمر سواء أكان الفرد ماسوني أو مسيحي علماني أو أدفنتست أو كويكر أو لا شيء، ما هو حاسم، أن يسمح الاقتراع بعضوية الفرد، بعد اختبار وتجربة أخلاقية في مفهوم الفضائل المرغوب فيها للتقشف البروتستانتي، ومن ثَمَّ للتقاليد البيوريتانية القديمة، ولهذا يمكن ملاحظة نفس الأثر لعملية الاختيار.

وهكذا، أصبحت للطوائف الدينية والاتحادات الكثيرة الخاصة المشابهة والنوادي في أمريكا، المؤسسة على عملية التجميع عن طريق الاقتراع، لها أهمية سياسية واجتماعية، حتى أن الحياة الكلية لليانكي النموذجي من الجيل الماضي سارت خلال سلسلة من هذه الاتحادات، مبتدئة بنادي الأولاد في المدرسة، ومتقدمة إلى نادي رياضي أو لأي نادي طلابي من أي نوع، وإلى الأمام إلى أحد من النوادي المشهورة لرجال الأعمال والبرجوازيين، وأخيراً إلى نادي أغنياء منطقة المتروبوليتان.

ويعتبر فبر أن كثيراً من هذه النوادي الحاملة لتلك الاتجاهات تقود نحو جماعات المكانة العالية التي تميز النمو الأمريكي المعاصر، وتنمو هذه الجماعات المكانية إلى جانب الثراء المجرد، وبشكل أكثر في تعارض معه.

ففي أمريكا مجرد النقود في ذاتها تشتري القوة أيضاً، ولكن ليس الشرف الاجتماعي، بالطبع أن النقود وسيلة لاكتساب المهابة الاجتماعية، لقد كان التقليد القديم في أمريكا يحترم الرجل العصامي، وكان الطريق إلى الشرف الاجتماعي

يعتمد على البنوة لكنيسة، وأخوة مهذبة فى كلية متميزة، ورسميًا مع طائفة ممتازة، فى الوقت الحاضر بدلاً من البنوة لطائفة، أصبح الانتماء لنادى متميز أمر جوهرى. منذ الماضى وحتى الحاضر الصفة الدقيقة للديمقراطية الأمريكية أنها مركب من الاتحادات الخاصة جداً، ولكن الاختيارية، ومن يريد أن يكون معروفًا فى هذه الديمقراطية، فى أى مركز كان، ليس عليه أن يتطابق مع تقاليد مجتمع برجوازى فقط، ولكن كفاءته عليه أن يكون قادراً على إظهار نجاحه فى اكتساب القبول بواسطة الاقتراع لأحد الطوائف أو النوادى أو مجتمعات الأخوة، وليس المهم من أى نوع كانت المهم أنه معروف أنها تصديق شرعى كاف، وذلك الذى لا ينجح فى الانضمام أو يتجاهل فعل ذلك، عليه أن يأخذ الطريق الصعب وخاصة فى الحياة العملية.

وعلى هذا يصبح المركز الحديث للنوادى الدنيوية والمجتمعات التى تحصل على أعضائها عن طريق الاقتراع، هى إلى حد كبير نتيجة عملية للتحول إلى العلمانية، وتشتق مراكزها من الأهمية الخاصة للنموذج الأصلى لهذه المؤسسات الاختيارية، أى الطوائف الدينية.

نظريته فى الطبقات

يتضمن بحث فبر عن أثر الطوائف البروتستانتينية وروح الرأسمالية، تركيزًا على عملية الاختيار القائمة على أساس اختيار دينى وأخلاقى، ذلك عندما كانت الطوائف الدينية تسود المجتمع الأمريكى، وعند تطورها نتيجة عملية العلمانية إلى اتحادات ونوادى، احتفظت هذه الأنواع الأخيرة بالسمات الرئيسية لعملية الاختيار، فأصبحت عملية الاقتراع تقوم بنفس الدور لضمان كفاءة لعضو وأهليته لعضوية الجماعة، وظلت هذه العضوية تحمل السمات الرئيسية لعضوية الطوائف الدينية فى الماضى، أى التصديق الشرعى بكفاءة العضو وأهليته للائتمان، ومن ناحية أخرى تعتبر تأييدًا فى مجال الأعمال، أى تعضيداً له فى موقفه الاقتصادى، وهذا يتضمن زيادة فرص الحياة. ويعتبر مفهوم فرص الحياة من المفاهيم الأساسية فى تحديد الموقف الطبقى.

وإذا كان أسلوب التوزيع للممتلكات المادية يحدد فرص الحياة فى سوق المنافسة كما يذهب إلى ذلك كل من ماركس وفيبر، فإن هذه الممتلكات المادية والحصول عليها تأثرت بشدة بعملية الترشيد البروتستانتى للمجال الاقتصادى، إذ أن عملية الترشيد دفعت أعضاء هذه الطوائف للإقلال من السلع الاستهلاكية، وعدم تجميد رؤوس الأموال، مما أدى إلى سرعة تراكم رؤوس الأموال لديهم، ومن ناحية أخرى مبدأ بذل أقصى جهد فى العمل إذ النجاح فى مجال الأعمال يباركه الرب ودليل على رضاه، يؤدى بالتالى إلى زيادة الممتلكات المادية، التى تؤدى بدورها إلى زيادة فرص الحياة، وزيادة القدرة على المنافسة فى السوق، كل هذا يكشف بجلاء عن أثر الأفكار فى توجيه الفعل الاقتصادى، والأهم فى تحديد الموقف الطبقى، وأيضًا فى عملية الحراك الاجتماعى.

وهكذا يمكن القول أن فيبر فى دراسته للعضوية فى طائفة أو اتحاد أو ناد كشف عن التداخل الشديد بين المكانة الاجتماعية والموقف الطبقى، وفى دراسته لأخلاق البروتستانتية وعلاقتها بالمجال الاقتصادى كشف عن أثر الأفكار فى الحراك الاجتماعى وبالتالى فى تحديد الطبقة.

فإذا كان الموقف الطبقى يحدده بدقة الموقف الاقتصادى كما يذهب إلى ذلك ماركس، فإن فيبر أفصح عن التداخل الشديد بين ذلك الموقف، وموقف آخر هو موقف جماعة المكانة الاجتماعية المشتق من العضوية فى طائفة أو اتحاد أو ناد، أى العضوية فى جماعة مكانة، وهذا الموقف الأخير يحدده تقييم اجتماعى، ويقوم فى أساسه على عنصر لا مادى وذاتى.

ويعتبر فيبر أنه بهذا العمل قد استطاع أن يمزج بين النظريتين الاجتماعيتين المتقابلتين، وهما النظرية الذاتية والنظرية الموضوعية عن التدرج الطبقى، فالاقتصاديين الكلاسيك الإنجليز وخاصة ريكاردو Ricardo، والذى أخذ عنهم ماركس يمثلون النظرية الموضوعية، فوصفوا الطبقة فى مصطلحات من الدخول، ومن ثمّ يتكون البناء الطبقى من مالك الأرض وصاحب المشروع والعامل، لا يهم ما إذا كانت تدرك الطبقة شيئًا عن موقفها أم لا، فموقفهم الطبقى قد حدده بدقة

موضعهم ووظيفتهم في داخل النظام الاقتصادي الموضوعي، وإن كان ماركس لم يقف عند هذا الحد فقد أضاف وجهًا جديدًا تاريخيًا، بإبراز الطبيعة الخاصة الحديثة للطبقات البرجوازية والبروليتاريا.

أما النظرية الذاتية للطبقات، فقد وضعت أهمية كبرى على السمات النفسية لأعضاء الطبقات الاجتماعية، فمفاهيم الاحترام والشرف الاجتماعي والعناصر التصورية للآراء السياسية والدينيـة والمشاعر المتعلقة بأسلوب الحياة المحلية أو الإقليمية ظهرت في تلك النظريات لتحل محل النظريات الصارمة الجامدة للاقتصاديين.

ويلاحظ أن تشكيل «جماعة المكانة» يعزى إلى فكرة يتمسك بها بصفة عامة أعضاء الجماعة، هذه الفكرة بدورها لها نتائج اجتماعية واقتصادية حيوية. وبالمثل تشكيل جماعة الطبقة يحدده الموقف الاقتصادي الذي يشارك فيه الجماعة، وهذا الموقف المادي المشترك، يشكل أساسًا من تأثير الأفكار بين أعضاء الجماعة، تلك الأفكار تكون كامنة، وكمونها لا ينفي وجودها، إذ تظهر واضحة جلية عندما تتوفر لها قيادة توجهها نحو أهداف، إذ يعتبر فيبر (أن درجة انبعاث الفعل المشترك وربما الفعل الاجتماعي من الأفعال الجمعية لأعضاء طبقة هي متعلقة بالظروف الثقافية العامة، وخاصة تلك التي من النوع العقلي، وهي أيضًا متعلقة بمدى المتناقضات التي تولدت فعلا، وبصفة خاصة متعلقة بوضوح الصلة بين أسباب ونتائج الموقف الطبقي، ومهما يكون اختلاف فرص الحياة، فهذه الحقيقة في ذاتها طبقًا لكل التجارب والخبرات، بلا شك تعمل على توليد العقل الطبقي، ولكنه مشروط بالإدراك الواضح لنتائج الموقف الطبقي لأنه عند ذلك فقط يمكن الإحساس بتناقض فرص الحياة)[1].

ويبدو من عمل فيبر أنه كان يعني أولاً بالتوترات والتداخل بين الطبقة والمكانة، وبين المصلحة والفكرة، لأنه رأى في تلك ديناميكية التغير التاريخي ذلك يعني أن فيبر لم ير في الصراع الطبقي ما رأته الماركسية من دور حاسم في مسار التاريخ الإنساني، وإن كان فيبر لم ينكر الصراع الطبقي ونصيبه في التاريخ، إلا أنه اعتبر

(1) Gerth and Mills: From Max Weber. P. 184.

(أن الصراعات الطبقية القديمة كانت صراعات طبقية حقيقية إلى حد بعيد، وليست صراعات بين جماعات مكانة)[1]. واعتبر تركيز ماركس على العامل الأجير الذي أفرزته وسائل الإنتاج، ما هو إلا مجرد حالة خاصة من اتجاه عالمي، فبالمثل أفرزت وسائل العنف الجندي الحديث، وأفرزت وسائل البحث العالم، ووسائل الإدارة الموظف المدني، وهكذا حاول فيبر وضع أعمال ماركس في مضمون أكثر عمومية، موضحاً أن نتائج ماركس تقوم على ملاحظات اشتقها من حالة خاصة رتبها ماركس، ولكن يمكن رؤيتها أحسن كإحدى الحالات في سلسلة واسعة من الحالات المتشابهة، واعتبر فيبر أن السلسلة ككل توضح الاتجاه المتميز الواسع لعملية البيروقراطية، وهكذا وضع فيبر في مقابل الصراع الطبقي عند ماركس مفهوم البيروقراطية الرشيدة.

مفهوم الترشيد

فلقد اعتبر ماركس أن الاقتصاد الحديث لا عقلي أساساً، هذه اللاعقلية للرأسمالية تنتج من تعارض التقدم التكنولوجي الواعي لقوى الإنتاج، وبين قيود الملكية الخاصة والربح الخاص ومنافسة السوق غير المنظمة، ومن ثمَّ يتميز النسق بفوضى الإنتاج.

ولكن فيبر لم يركز انتباهه على مشاكل ديناميكيات الرأسمالية ومشكلة دورة العمل والأزمات الرأسمالية، التي شغلت انتباه ماركس وجعلته يصف الرأسمالية بفوضوية الإنتاج: هذا الإغفال الذي تعمده فيبر له أهمية بالنسبة لمفهومه عن الترشيد في المجتمعات الحديثة.

فعند ماركس خدمت العناصر العقلية للمجتمع، العناصر التي لا يمكن السيطرة عليها واللاعقلية، فعملت بذلك على زيادة المتناقضات، بينما عند فيبر الرأسمالية هي الشكل الأعلى للعمليات العقلية، فتفصح نظمها عن تجسيد للعقلية في نمط من البيروقراطية، فتتناص المؤسسات الكبيرة مع الدولة البيروقراطية فقط في رفع الكفاءة العقلية واستمرار العملية والسرعة والدقة وحساب النتائج، ويستمر

(1) Ibid.,P. 185.

كل هذا في داخل النظم التي تدار عقلياً، وتشغل الوظائف المؤتلفة والمتخصصة مركز الانتباه في النظام، ومن ثمّ يكون كل البناء ديناميكياً.

وهكذا أثبت فيبر للبيروقراطية وجهها العقلي، وأظهر إعجابه بالنظام الرأسمالي المدار بيروقراطياً، واعتبر أن الرأسمالية الصناعية الحديثة استوعبت النظم الأخرى في تصورها هي، المتجه نحو الترشيد لكل وجوه الحياة.

ويلاحظ أن هناك خط فكري واضح يربط بين شتى بحوث فيبر، وهو عنصر الترشيد Rationalization الذي يظهر بوضوح أنه أكثر العناصر عمومية في فلسفته عن التاريخ، حتى أنه يجعل من فلسفة فيبر كنظرية تطورية تجعل من التاريخ نمواً مستقيماً، فلقد اعتبر فيبر أنه خلال نشأة النظم وتدهورها، وصعود وهبوط الطبقات والأحزاب والحكام، أتمت الإنسانية الاتجاه العام للترشيد الدنيوي، واعتبر فيبر أن هذه العملية استلزمت إيقاظ العالم وإزالة أوهامه، ومن ثمّ يقاس المدى والاتجاه للترشيد سلبيّاً في مصطلحات من درجة إزاحة العناصر السحرية. وإيجابيّاً إلى مدى ما ربحته الأفكار بانتظام من تماسك ودوام، وهكذا (يجعل مفهوم الترشيد أعمال فبر تظهر كما لو كانت مسألة نمو مستقيم، لنقول من السحر إلى التفكير العلمي أو من اتجاه أولي سياسي إلى اتجاه أولي وأسمالي للمشاريع الاقتصادية)[1].

ففي علم اجتماعه الديني نجد عنصر الترشيد واضحاً، فقد تتبع فيبر تحليل تدهور السحر حتى ظهور الأنبياء أي الديانات العالمية، واعتبر هذه العملية ترشيداً متزايداً في مقابل التدهور للسحر، وفي مقال فبر عن التوترات بين الكيانات الأخروية والمجال الاقتصادي كشف عن عمليات الترشيد التي اتخذتها الطوائف، وفي مقاله عن البروتستانتية جعل تعاليم كالفن عن القدرية النقطة الأساسية للتحليل، وأظهر في هذا التحليل عملية الترشيد المتزايد للمذهب اللاهوتي. ولما كان مهتماً أيضاً بتحليل السلوك الإنساني، ففي قلب هذا التحليل وجد الخوف الديني للمؤمن من أجل خلاص روحه، ذلك الخوف قدمّ الدوافع للتنظيم المنهجي

---

(1) Bendix,Renhard: "Max Weber's Sociology to day" International social science Journal. Vol. XVII No., 1956 P.11.

للمحبـاة التى رأى فـيـهـا جـوهر روح الرأسـمـاليـة. وكذلـك بذلت الطوائف البروتستانتينية جهدًا ترشيديًا كبيرًا لتشكيل الحياة الاقتصادية ومن أجل هذا الغرض حلل فبر أنواعًا أخرى من عمليات الترشيد فى الديانات الصينية والهندية.

لهذا اعتبر فـبر عملية الترشيد قوة ثورية هامة للـتاريخ لا تقل أهمية عن القوة الثورية للإلهام. ولقد بحث الأساليب الخاصة الـتى يحصل بها الترشيد على القوة المهمينة عـلى الحياة الاجتمـاعية، فوجد أنـه بينما يعمل الإلهام من خـلال عملية ثورية العقول، فإن عـمـلية الترشـيد تعمل من خـلال ثورية الظروف المادية للحياة، ومن ثَمَّ فمنطقتها أصلاً فى المجال الاقتصـادى.

واعتبر فـبر أن الرأسمالية هى أعظم قوة ثورية فى العـالم الحديث تمامًا مثل ما فى السياسة. وفى كل من الحالتين البـيـروقراطية هى مركبة العملية الثورية. واعتبر بذلك البيروقراطية هى الشكل الفنى الأكثر كفاءة عقليًا.

واعتبر أن العوامل الروحية تلعب دورًا هامًا فى الإنجاز والإسراع بهذه العملية، وهى عملية الترشيد العالمى.

***

جورج ميد
GEORGE MEAD
(١٨٦٣ - ١٩٣١)

ولد ميد فى مشاشوستس Massachusettes، ابن رجل دين بيوريتانى. وتعلم فى كلية أبرلن Oberlin، ثم جامعة هارفارد ثم جامعة ليبزج Lepzig، ثم جامعة برلين فى ظل المثالية الألمانية التقليدية والعملية الأمريكية. ولقد قدم ميد بحوثًا عن أفكار كل من سمل Simmel ودوى Dewey. وأثناء عمل ميد مع دوى فى جامعة شيكاغو، ركز ميد على فهم التفاعل المتبادل والذات الاجتماعية social self فى داخل محتوى مجتمع يعايش أعلى مستويات التصنيع والتحضر ونزعات الإصلاح والنزعة العملية والمثالية. ومن ثَمَّ كان وعى الإنسانية بذاتها يتزايد تبعًا لذلك، وكان ميد فى مقدمة هذه العملية. وتتضمن أعماله الرئيسية العقل والذات والمجتمع (١٩٣٤) Mind, Self and Society، وفلسفة الفعل (١٩٣٨) The Philosophy if the Act.

أهدافه:

كان هدف ميد الأولى، هو دراسة نشاط أو سلوك الأفراد كما يوجد فى العملية الاجتماعية[1]. وفى محاولته فهم مثل هذه الظاهرة كوظيفة لمحتواها الاجتماعى والسيسيولوجى، وركز على الوحدات الصغرى للسلوك الاجتماعى، وذلك فيما يقابل المعنى عند فيبر. وتبعًا لذلك ركز على الأهمية السسيولوجية للتفاعل الاجتماعى والعقل واللغة بالذات. وهكذا يمكن اعتبار ميد من أوائل أصحاب اتجاه علم النفس الاجتماعى.

---

(1) Meag, G. H: "Mind, Self and Society" University of Chicago PRess Chicago, 1934.

نظريته

اعتبر ميد أن الفرد رشيد وأنه نتاج العلاقات الاجتماعية Product of social relations. ونرى هنا وجه الشبه مع ما ذهب إليه فبر.

واعتبر ميد أن الحقيقة هي كل من الفردي individual والاجتماعي Social. مثل هذه الدراسة ذات المستويات المتعددة ذات أهمية كبيرة لأنها عكس ما كان قبلها من النظريات التي كانت تتعامل مع الوحدات الكبرى.

واعتبر ميد أن المجتمع ديناميكي وتطوري ومستمر في تقديم أنماط جديدة ومتغيرة من النشأة الاجتماعية للأفراد. ويلاحظ أن تلك النظرة الديناميكية والمبارية للمجتمع تتوازى مع تركيز فبر على المعنى والترشيد.

واعتبر ميد أن الذات الاجتماعية social self تتطور خلال سلسلة معينة؛ يتم التفاعل الاجتماعي خلال الاتصالات الرمزية واللغة: خلال اللغة يتعلم الإنسان الاتجاهات والعواطف ومن ثَمَّ يتضح العقل mind والذات self. والذات الاجتماعية تتطور خلال ثلاث مراحل: (مرحلة المحاكاة في الأفعال ومرحلة اللعب The Play stage ومرحلة الإلمام بقواعد اللعبة The game stage. والمرحلة الأولى تحدث خلال السنة الثانية من العمر حيث يقلد فيها الطفل سلوك الآخرين المحيطين به مثل الآباء والأخوة والأخوات، أما المرحلة الثانية فإنها تبدأ عندما يصل الطفل إلى سن الثالثة وتتسم بميل الطفل إلى اتخاذ أدوار الآخرين حيث يلعب دور الأم أو دور المدرس أو رجل الشرطة وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل في الخروج من نطاق نفسه أي أنه يبدأ في الاهتمام باتجاهات الآخرين نحوه بوصفه موضوعًا object. واتخاذ دور الآخر هو العملية في تكوين الذات. وفي مرحلة اللعب هذه يكتسب الفرد مجموعة من الذوات selves، يتم التكامل بينها في المرحلة الثالثة، وهي المرحلة التي تظهر فيها الذات الموحدة unified self، وفي هذه المرحلة يصبح الطفل قادرًا على تبني اتجاهات كل أعضاء المجموعة التي ينتمي إليها وعلى تصور دور كل فرد في المجموعة والقيام به. وقد سمى ميد المجموعة الاجتماعية التي يكون الفرد من خلالها ذاته بالآخر المعمم generalized other.

ومن خلال هذا الآخر المعمم يمارس المجتمع الضبط على سلوك الأفراد الأعضاء فيه)[1].

واعتبر ميد أن نتاج هذه العملية (المراحل الثلاث) هي صياغة الذات الاجتماعية، التي تتركب من عنصرين رئيسيين: الأول (أنا I فاعل) وهي استجابة الفرد لاتجاهات الآخرين، الثاني (مفعول me) وهو عبارة عن الاتجاهات الاجتماعية التي يتعلمها الفرد أثناء عملية التنشئة الاجتماعية.

واعتبر ميد أن الفرد يمتلك ذاتًا اجتماعية فقط في حالة علاقاتها بذوات الأعضاء الآخرين لجماعته الاجتماعية، وأن بناء ذاته يعبر أو يعكس نمط السلوك العام لجماعته الاجتماعية التي ينتمي إليها، تمامًا مثل ما يعبر بناء ذات كل فرد آخر ينتمي لهذه الجماعة الاجتماعية)[2].

ومن المهم ملاحظة أن ميد لم يأخذ ولم تكن دراسته حتمية بالنسبة للذات الاجتماعية، بل بالأحرى، اعتبر ميد أنه بالرغم من التنشئة الاجتماعية أي التطبيع الاجتماعي، فإن عمليات الذات تتضمن وجوهًا إبداعية وتلقائية تساهم في التغير الاجتماعي، واختراع أنماط جديدة من التنشئة الاجتماعية.

وهكذا جعل من الفردية الإنسانية لديها القدرة على المساهمة في استمرار الديناميكية الاجتماعية والتغير.

وهكذا يمكن القول أن ميد اعتبر أن المجتمع يمثل نسق ديناميكي من التنشئة الاجتماعية، والذي في داخله تتشكل الذات الاجتماعية خلال التفاعل واللغة أهم أدواته. وتتقدم التنشئة الاجتماعية خلال ثلاث مراحل متميزة، ومن ثَمَّ يعتبر نموذجه نسقي ويركز على الوحدات الصغرى، وقد حددته نظرة تطورية. وتبعًا لذلك فالحقيقة الاجتماعية هي دائمًا في حالة صنع، وذلك استجابة لنشاط الأفراد المبدع التلقائي في تطوير أشكال جديدة من التنشئة الاجتماعية والذوات الاجتماعية.

***

---

(١) دكتور سمير نعيم أحمد: النظرية في علم الاجتماع، دار المعارف ١٩٧٩، القاهرة، ص ٢٥٥.

(2) Mead: op. cit. P. 164.

النمط الطبيعي للنزعة السلوكية

الاجتماعية المبكرة .

هذا النمط من النوع الذى يهتم بدراسة الوحدات الصغرى واستقرائى ومعيارى . وعلى أى حال فإن هذه النزعة تقوم على أساس افتراضات تهتم بخصائص الطبيعة الإنسانية والغرائز الإنسانية .

***

جورج سمل
GEORGE SIMMEL
(١٨٥٨-١٩١٨)

ولد سمل ابن رجل أعمال يهودي، وتعلم التاريخ والفلسفة بجامعة برلين التي عمل بها محاضراً فيما بعد. وتأثر بأعمال كانت Kant وداروين وسبنسر، ويعتبر سمل ممن ساهموا في تأسيس علم الاجتماع الحديث في ألمانيا. ويتضمن أهم ما نشره كتاب (عن الفروق الاجتماعية (١٨٩٠) On Social Differentiation، وفلسفة النقود (١٩٠٠) The Philosophy of Money، وعلم الاجتماع: بحوث حول أشكال الاجتماع (١٩٠٨) Sociology: Investigations on the forms of Society.

أهم أفكاره:

كان سمل مهتماً بأنماط وأشكال التفاعل والاتحادات في المجتمع. بمعنى أنه كان مهتماً بتجريد الصور الرئيسية للسلوك الاجتماعي في المجتمع، (ويقصد بالصورة ذلك العنصر الذي يتحقق في الحياة الاجتماعية، ويكتسب خاصية الاستقرار النسبي ويتخذ شكلاً نمطياً، متميزاً عن المضمون أو المحتوى الذي يخضع للتغير المستمر، فتحليل الصور أو الأشكال تحليلاً مجرداً هو جوهر الدراسة، لأنه يقتضي دراسة البناء الواقعي للمجتمع[١].

مثل تلك الدراسة كانت تهتم بالوحدات الصغرى microscopic، ولكن ما هو أهم أنها تتضمن شجباً ورفضاً للنظريات العضوية عن الحقيقة الاجتماعية. فقد اعتبر سمل أن المجتمع لا يوجد ككتل منفصل، ولكن بالأحرى فإن المجتمع منغرس في أشكال أو صور العلاقات الاجتماعية المتشابكة، هذه الأشكال من العلاقات التي اتجه ورغب سمل في دراستها.

---

(١) تيماشيف: نظرية علم الاجتماع- ترجمة دكتور محمود عودة، دكتور محمد الجوهري، دكتور محمد علي محمد، دكتور السيد الحسيني، دار المعارف- القاهرة ١٩٧٧، ص ١٥٩.

نظريته

اعتبر سمل أن المجتمع ليس عضوياً، ولكن اصطلاح مجتمع اسم يدل على مجموعة من الأفراد الفاعلين. وطبقًا لذلك أصبح علم الاجتماع عند سمل هو دراسة أنماط التفاعل وأشكال الاتصالات، طالما أن هذه الظواهر هي الموجودة في الواقع، وأنها توجد كعملية Process.

اعتبر أن المجتمع يوجد كوظيفة للتنشئة الاجتماعية أكثر منه كحقيقة مستقلة. وتبعًا لذلك اعتبر أن الفرد هو نتاج للمجتمع. ومن ثَمَّ يصبح كل من الفرد والمجتمع مواضيع هامة لعلم الاجتماع.

اعتبر سمل أن خواص أي جماعة معينة يمكن رؤيتها من خلال نوع التفاعل والاتحاد وبصفة خاصة حجم الجماعة. وتبعًا لذلك اعتبر سمل أن حجم الجماعة يحدد شكل الاتحاد، أي أن هذا الحجم يحدد الشكل. ومن ثَمَّ يمثل حرية عالية، ولكن في الاثنين يوجد الاعتماد، وتسود السلطة في الثلاثة، وتحكم الأعراف mores الجماعات الصغيرة، والقوانين تحكم الجماعات الكبيرة.

واعتبر سمل أنه في داخل أي جماعة يوجد الغريزة الإنسانية الهامة وهي تجاهل الآخرين، وهي التي تؤدي إلى التنافس وذلك هو العنصر الرئيسي في نظريته.

وتؤدي هذه الغريزة إلى استمرار الصراع، وهو جوهر الحياة الاجتماعية والتطور الاجتماعي. وتبعًا لذلك تصبح العلاقة بين الفرد والمجتمع جدلية (ديالكتية dialectical) بينما يؤدي التصنيع إلى مزيد من حرية الفرد، ولكن تزيد أيضًا من الاغتراب. كما رأى سمل أن من آثار التقدم التناقض، بمعنى أن الصراع يؤدي إلى التطور الاجتماعي ولكن في نفس الوقت يزيد مشاكل الفهم عند الفرد[١].

***

---

(١) اعتمد في هذا المقال على

Wolff, K.H. (ed. and trans): The Sociology of George Simmel" Free Press New York, 1950.

وليم سمنر
WILLIAM SUMNER
(١٨٤٠ - ١٩١٠)

سمنر هو ابن ميكانيكى سيارات إنجليزى، تعلم فى أكسفورد Oxford ثم فى جامعة Yal. وتعلم اللغة الفرنسية والعبرية واللاهوت. وبالرغم من هذه الثقافة الكنسية وخط حياته الأول الدينى، فقد تأثر سمنر بشدة بآراء سنسر، وداورن، كما اهتم بالإنثروبولوجيا وعلم الآثار. كما أنه انشغل بالمسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كانت فى عصره.

ويعتبر أعظم مؤلفاته كتاب الأساليب الشعبية (١٩٠٦) Folkways وله مؤلف آخر لم يكن له من شهرة مثل الأول، وهو علم المجتمع (١٩٢٧) The Science of Society الذى لم يتمه وأنجزه تلميذه ألبرت كيلر. وما نهتم به فى هذا المقام هو ما كتبه سمنر عن البناء المعيارى للمجتمع وأساسه الغرائزى فى مؤلفه الأساليب الشعبية. وهكذا فإن كان سمنر يعتبر من أصحاب نظريات صراع الوحدات الكبرى. فإن اهتمامنا به هنا يتركز حول عناصر السلوك الاجتماعى فى نظريته والتى تبرز أساس هذه النظرية.

أهدافه

اعتبر سمنر أن علم الاجتماع هو دراسة قوانين التطور الاجتماعى، على كل من المستويين الوحدات الكبرى والوحدات الصغرى. ومن ثمّ يصبح عمل عالم الاجتماع الرئيسى هو تتبع هذه القوانين التطورية فى الظواهر الاجتماعية من أجل أن يضاعف النمو الاجتماعى الرتيب، وعند مستوى السلوكيين الاجتماعيين، يتضمن هذا تحليلاً للعلاقة بين الدوافع الفردية زبين تطور ونمو نسقه المعيارى (الأساليب الشعبية).

تحت تأثير نظريات سبنسر وداروين، جعل سمنر دعواه الأساسية أن التطور قوة أساسية وقانون. فعنده يتطور المجتمع إلى مستويات أعلى من التنظيم خلال عمليات التنافس والتعاون، وأن البقاء للأصلح.

واعتبر سمنر أن فى هذا التطور ينفرض قانون السكان، الذى يقول إن السكان يميلون إلى الزيادة إلى حد قوة إمداد البيئة، وقانون الغلة المتناقصة. ويقدم التوليف بين قانون السكان وقانون الغلة المتناقصة أهم الظروف الاجتماعية. وأدى ذلك إلى أن يضع سمنر المجتمعات إلى نمطين مزدحم السكان، وقليل السكان. ويتميز القليل السكان باقتصاد الوفرة، والديموقراطية، وطبقات اجتماعية أقل. بينما المزدحم السكان يتميز باستخدام منابعه إلى أقصى حد، وتضبطه قوة الصفوة، كما يتميز بشدة الفروق الطبقية.

وهكذا حاول سمنر رسم صورة مطابقة لأثر النمو السكانى على المنابع الطبيعية، وفى داخل هذا الإطار، قرر سمنر بأسلوب يجعله من أصحاب الحتمية الاقتصادية، أن الفقر هو نتيجة الجهل، ويعنى الجهل بقوانين التطور.

وعند مستوى تفاعل الأشخاص، اعتبر سمنر أن السلوك تضبطه الأساليب الشعبية والأعراف؛ وبهذا الأسلوب فقد اتخذ لنفسه نظرة معيارية للظواهر الميكروسكوبية (الوحدات الصغرى).

واعتبر سمنر أنه يقبع وراء عمل الأساليب الشعبية والأعراف المصالح الإنسانية أو الدوافع الإنسانية، مثل الجوع، الحب، والخوف، والغرور والزهو. ويقبع وراء هذه المصالح؛ بالتالى الدافع الإنسانى الرئيسى المنفعة advantage والضرورة expediency.

واعتبر أنه من هذه المصالح والدوافع تنمو الأساليب الشعبية عن غير وعى أوقصد وتلقائياً وبدون ترتيب، ويعبر عن ذلك بقوله (فإذا وضعنا كل ما تعلمناه من الأنثروبولوجيا والأثنوجرافيا عن الناس البدائيين والمجتمع البدائى، نعرف أن أول عمل للحياة هو أن نعيش، فيبتدئ الناس بالأفعال وليس بالأفكار، وكل لحظة

تجلب ضرورات يجب إشباعها في الحال. فكانت الحاجة أول خبرة ثم تبعها في التو مجهود كثير الخطأ لإشباعها... إنه أول النقط الهامة أن يلاحظ أن الأفعال الأولى التي بها حاول الإنسان إشباع حاجاته، كان كل فعل يقف بنفسه؛ ولا يرمى إلى أبعد من الإشباع المباشر. من الحاجات المتكررة نشأت العادات للأفراد والعادات الاجتماعية للجماعة، ولكن هذه النتائج لم تكن أبداً مشعوراً بها، أي عن وعي، ولم تكن مرئية أو متعمدة)[1].

وخلال الطقوس الثابتة والمستمرة تؤسس الأساليب الشعبية أخيراً على أنها الصواب والحق وتقويها للمحرمات Taboos والجزاءات sanctions ثم تقوى أكثر بالجماعة الداخلية ingroup والجماعة الخارجية (فكل جماعة تعش كبرياءها وعزتها وتؤيد تفوقها وتمدح دياناتها، وتنظر باحتقار إلى الخارجين، وتعتقد كل جماعة أن أساليبها الشعبية هي الوحيدة والسليمة، وإذا لاحظت أن الجماعات الأخرى لها أساليب شعبية أخرى فهي تستحق احتقارها)[2]. ومن ثَمّ تتحول الأساليب الشعبية إلى معايير تعنى برفاهية الجماعة.

ويخضع كل فرد للمعايير التي أصبح لها قدسيتها وجلالها لأنها أتت إلينا من الماضي، ومن ثَمّ توجه سلوك الأفراد. ويعبر سمنر عن ذلك بقوله: (لقد أتت إلينا المعايير من الماضي ولقد ولد كل فرد بينها، وطالما أنه ولد في جوها فهو لايستطيع أن يضيف عليها أو يتركها، ومن ثَمّ يذعن كل فرد لتأثير المعايير وتشكله قبل أن تكون له القدرة على فحصها عقلياً)[3].

وليس معنى هذا أنها لا تحمل في طياتها الأسباب العقلية لرسوخها ولكن بالعكس (هي تتضمن في ذاتها تبريراتها الذاتية بواسطة التقاليد، والفائدة - المصلحة أو اللذة- والرضية، وتؤيد بجزاءات، كما أنها ليست منبهة للفكر بل على العكس، إذ قد تم صنع التفكير وأصبح منغرساً في المعايير، وهي

---

(1) Sumner, W.G.: "Folkways} Olmsted Com. Boston U.S.A.P.2-4.

(2) Ibid.: P. 13.

(3) Ibid.: P. 76.

لا تحتوى إطلاقًا أى استعداد لتغيير ذاتها، فهى ليست أسئلة ولكنها إجابات لمشاكل الحياة، فهى تضع نفسها كشيء نهائي وغير متغير لأنها تقدم إجابات معينة على أنها صادقة)[1].

ويضرب سمنر مثلاً على خضوع سلوك الأفراد أو الجماعات للمعايير بقوله (هناك من يريدون مناقشة الزواج المزدوج... فشلوا فى الحصول على من يسمح لهم بذلك. والبعض الآخر يريد مناقشة الملكية، وبالرغم من أن هناك كتابات نشطة فى هذا الموضوع فلا أحد يريد مناقشته. الزواج والملكية هم فى المعايير... الشيء الذى يلاحظ فى كل هذه الحالات أن الجماهير تعارض كل مناقشة ضد المعايير)[2].

وهكذا تباشر المعايير ضغطًا ودفعًا نحو الثبات، وتمثل أسس الضبط الاجتماعى، والبناء الاجتماعى، وفروق الثقافات الفرعية والأنساق النظامية، وهكذا تصبح المعايير وقد انتظمت institutionalization أى صارت نظمًا.

والنظم الاجتماعية عند سمنر (إما أن تنمو crescive أو تسن anacte، وتكون نامية عندما تأخذ شكلها فى المعايير، حيث تصبح المجهودات خلال الاستعمال الطويل محددة ومخصصة. الملكية والزواج والدين أهم النظم الأولية، لقد بدأوا فى الأساليب الشعبية. ثم أصبحت عادات اجتماعية، ثم نمت إلى معايير عن طريق إضافة شيء من فلسفة الرفاهية مهما كانت فجة، ثم ازدادت تحديدًا وتخصصًا للقواعد والأفعال المقررة، واستعملت المعدات فأنتج ذلك بناءً، واكتمل النظام)[3].

هذا البناء ليس بأى حال ثابت static، فالأعراف قد تصبح جامدة أو صلبة أوحتى تفسد ومن ثمَّ تخضع للتحسين (إذ عادة تكون الجماعات مجبرة على أن تعمل بأساليب غير معتادة، لأن التغير أفقد المعايير التقليدية قدرتها على الإشباع، ومن ثَمَّ اتضح فسادها وأصبحت سيئة الأثر. فالمعايير السيئة هى تلك التى لا تلائم ظروف الحياة وحاجات المجتمع فى ذلك الوقت)[4].

(1) Ibid.: P. 97.
(2) Ibid.: P. 76-77.
(3) Ibid.: P. 54.
(4) Ibid.: P. 99.

فإذا ما ساءت المعايير يدفع ذلك أعضاء المجتمع إلى إعادة فحص أساليب التفكير والعمل ويتركوا السلوك المنتظم أى المضبوط بواسطة النظم والذى اعتادوه من قبل، يتركوه إلى نوع من السلوك الجمعى فيلتف الناس حول بعضهم وتنشط عملية رد الفعل الدائرى فى تقريب المسافات الاجتماعية (إذ أنه إذا تجمع عدد من الأشخاص مع بعض، وخاصة إذا كانوا متحمسين بنفس المشاعر منتبهين بنفس المصلحة، ينقلون الدافع كل إلى الآخر مما يجعل كل البواعث والدوافع تزداد إلى معدل عال جداً، فى كلمات أخرى، أنها حقيقة مسلم بها أن كل الحالات العقلية والعاطفية تزداد زيادة عظيمة بالقوة بواسطة انتقالها من رجل لرجل. وخاصة إذا كانوا ملتفين بمفهوم من الاجتماع والاتفاق والتعاون بين عدد كبير لهم مشاعر عادة أو اهتمام عام)[1]، ومن ثَمَّ اعتبر سمنر أن هذه الظواهر المعيارية تخضع للتغير والتطور المستمر فى استجابة للظروف الاجتماعية المتغيرة.

وهكذا يمكن القول أن سمنر عند مستوى الوحدات الكبرى تطوراً طبيعياً للنمو الاجتماعى بأسلوب بسيط، وعند مستوى الوحدات الصغرى، وضع الظواهر الاجتماعية فى مفاهيم معيارية، واعتبر الحقيقة الاجتماعية كمجموعة متغيرا ومتطورة من الأساليب الشعبية والأعراف، والتى تتطور فى استجابة للدوافع والمصالح الإنسانية.

***

(1) Ibid.: op. cit. P. 20.

ثانياً: السلوكية الاجتماعية المعاصرة

بالرغم من أن معظم النظريات المعاصرة تركز على الوحدات الكبرى فإن النزعة السلوكية الاجتماعية المعاصرة، وخاصة ذات الجذور التي تمتد إلى أعمال ميد، وسمنر، استمرت في تأثيراتها على علم الاجتماع الحديث وخاصة في الحقل الفرعي المسمى علم النفس الاجتماعي.

ويمكن اعتبار السلوكيين الاجتماعيين المعاصرين رد فعل جماعة معينة من المثقفين وخاصة أولئك الذين تعلموا على يد ميد في شيكاغو أو تأثروا به، وكاستجابة لعدد من الظروف الخاصة، مثل استخدام المفاهيم الفردية المبكرة عن المجتمع للموقف المعاصر، وأيضاً التركيز الشديد على نزعة الفردية المنغرسة في الأخلاق البروتستانتية التي تعتبر أساس معظم الثقافة الأمريكية والبريطانية والألمانية، وكذلك التأثيرات السلبية للتصنيع الحديث والبيروقراطية على الفرد.

ومن ثمّ يمكن اعتبار نموذج علم النفس الاجتماعي هو تطبيق للأفكار المبكرة للنزعة الفردية individualism والتطور الاجتماعي على ما يجري من الأحداث في داخل المجتمعات المعاصرة في حالة تأثيرها على الفرد. تعتبر هذه النظرة أن المجتمع موطن في داخل الفرد وخاصة في مفهوم الذات self concept وعلى أن المجتمع ديناميكي وينبعث خلال التبادل الاجتماعي، والتفاعل الاجتماعي، والتفسير.

وقد ركزت هذه النزعة على فهم معنى الظواهر الاجتماعية، والمحتوى السسيولوجي للتفاعل الاجتماعي، وكيف يقوم البناء الاجتماعي على أساس عمليات التبادل الاجتماعي، وكيف تنتظم عمليات التفاعل الاجتماعي أو تصبح عقلية ورشيدة عند المستوى الفردي في ممارسات الحياة اليومية. ومن ثمّ فالتركيز هنا على المجتمع باعتباره نسق ديناميكي ينبعث من التفسيرات الفردية للحقيقة الاجتماعية. نسق يخضع للتغير والتنظيم المستمرين.

ويمكن تصنيف نظريات السلوكين الاجتماعيين المعاصرين إلى نمطين رئيسين:

١- النمط النسقي، حيث يركز على النواحي الاجتماعية للذات الاجتماعية والتفاعل وتحليل عوارضها الاجتماعية.

٢- النمط الطبيعي، الذي يرى أسس التفاعل على أنها منغرسة في عناصر التركيب البشري أو الطبيعة.

فمثلاً يهتم كل من بلومر Blumer وجوفمان Goffman بنواحي التفاعل الرمزي والبنائي، بينما يرى بلاو Blau العمليات الاجتماعية منغرسة في العمليات السيكلولوجية الأولية، وبصفة خاصة في دوافع الحصول على الهدف والاستمالة. بينما يعتبر جارفنكل Garfinkel أن الدافع الأساسي للكائن البشري هو التوافق والتجانس مع النظام الأخلاقي. وهكذا نرى أن المفكرين بلومر وجوفمان نسقيان، بينما بلاو وجارفنكل طبيعيان.

على أي حال هذه الاختلافات تعتبر اختلافات في الدرجة فقط، طالما أن جميعهم يهتمون بإنشاء نظريات عن التفاعل الاجتماعي.

***

هربرت بلومر

HERBERT BLUMER

(١٩٠٠ - ١٩٨٧)

ولد بلومر في الولايات المتحدة سنة ١٩٠٠ وتعلم أولاً في جامعة ميسوري Missouri، حيث نال درجته الجامعية الأولى ثم درجة الماجستير، ثم انتقل إلى جامعة شيكاغو Chicago حيث نال درجة الدكتوراه، وفي جامعة شيكاغو تتلمذ على يد العلامة ميد Mead وتأثر به إذ أنه استمر يعمل بجامعة شيكاغو عدة سنوات، ثم انتقل إلى جامعة بركلي Berkely التي استقر بها. وكان بلومر شديد الاهتمام بالدراسات النفسية الاجتماعية (السيكوسسيولوجية)، والسلوك الجمعي collective Behavior والاتصالات الجمعية mass communications، بل يعتبر المؤسس لاصطلاح التفاعل الرمزي symbolic interaction، ومساهمته الرئيسية كانت في هذا النمط من النظريات الاجتماعية. وتضمنت أعماله عدة مقالات عن علاقات الأجناس، والسلوك الجمعي، والاتصالات الجمعية، والمجموعة التي يعتد بها من أعماله وتعتبر أحسن ما أنتج هي التفاعل الرمزي، والسلوك الجمعي. وفي هذا المقام نحن نهتم بالتفاعل الرمزي على أساس أنه الذي يتضمن نظريته.

أهدافه:

اهتم بلومر بإنشاء نظرية عن التفاعل الرمزي في المجتمع. (ويشير التفاعل الرمزي إلى تلك الخاصية المتميزة للتفاعل عندما يحدث بين الكائنات البشرية[١]. وتتكون هذه الخصوصية من التفسير المتبادل والرمزي كل لسلوك الآخر. وتبعاً لذلك (يصبح علم الاجتماع من وجهة نظره، علماً يهتم بالعملية التفسيرية التي بواسطتها تسلك وتفعل الكائنات البشرية سواء فردياً أو جمعياً في المجتمع الإنساني)[٢]. فمثل هذه النظرية تجعل من المجتمع كنسق من عمليات التفسير التي تحكم السلوك.

---

(1) Blumer: "Symbolic interactionism, Perspective and Method", Prentic-Hall, Englewood Cliffs, New- Jersy, 1969. P. 78- 79.

(2) Ibid: P. 89.

نظريته:

اعتبر بلومر أن الناس سواء فردياً أو جمعياً مجهزون للفعل على أساس معانى الأشياء التى يتضمنها عالمهم[1]. ومن ثمّ يقوم السلوك على أساس المعانى الاجتماعية المطابقة مع أشياء، أو مواضيع معينة. هذه الأشياء عبارة عن ثلاثة أنماط رئيسية:

١- النمط الطبيعى Physical مثل الأشجار والأنهار.

٢- اجتماعى Social مثل زملاء العمل، حكام.

٣- تجريد Abstract مثل مبادئ الأخلاق[2].

واعتبر بلومر أن الاتحادات associations تمثل عملية process فيها يصنع الناس مؤشرات أو دلالات كل للآخر، ويفسر كل مؤشرات الآخر[3]. ومن ثمّ ينشأ العقل الإنسانى ويفسر.

وهكذا تنشأ الأفعال الاجتماعية خلال العملية التى فيها يلاحظ ويفسر ويقدر الفاعلون المواقف التى تواجههم[4]. وهكذا يصبح الكائن البشرى عضواً فاعلاً له ذات self تشارك فى أخذ الأدوار[5]. وهكذا يتفاعل الفرد مع ذاته فى العملية التفسيرية.

واعتبر بلومر أن مركب الروابط المتبادلة للأفعال الذى يتضمن المنظمات والنظم وتقسيم العمل وشبكة الاعتماد المتبادل، أمور متحركة وليست ساكنة[6]. كما أن خطوط الفعل الرابطة ليست سابقة التأسيس، كما أنها لا تملك وجوداً مستقلاً أو منفصلاً عن أولئك المشاركون فى التفاعل، ومن ناحية أخرى الأفعال السابقة لهؤلاء المشاركين، تجهز خلفية تكون فى خدمة إنشاء أى فعل رابط جديد[7].

وهكذا يتبين أن مفهوم بلومر عن المجتمع يختلف تماماً عن المفهوم الخاص

---

(1) Ibid: P. 50.
(2) Ibid: P. 10.
(3) Ibid: P. 50.
(4) Ibid: P. 50.
(5) Ibid: P. 12.
(6) Ibid: P. 50.
(7) Ibid: P. 20.

بالنماذج العضوية والبنائية الوظيفية أو نظريات الصراع. إذ يرى بلومر أن المجتمع يتركب من خطوط حية من الفعل تشكلت خلال عملية التفاعل المتبادل التفسيرى، التى يلونها أشياء ومواضيع معينة، وحدده وعرفه مضمون جماعة معينة. وهكذا يمثل المجتمع عملية ورمزية تفاعلية تفسيرية موطنة فى داخل الفرد.

وعلى هذا رأى بلومر ان هذه الافتراضات تتطلب نوعًا خاصاً وفريداً من مناهج البحث، وهو الانتفاع بنمط من البحث أكثر طبيعياً بمعنى نمط من البحث يتجه مباشرة إلى العالم التجريبى. ويؤكد بلومر أن مثل هذه الدراسة تتطلب أن يضع الإنسان نفسه فى دور المشارك، وينظر إلى ديناميكيات التفاعل نظرة جادة، وينشئ صوراً من الفعل الاجتماعى، بمعنى أن يلاحظ العملية التى بها ينشأ ويشيد الفعل الاجتماعى. وينظر إلى النظم الاجتماعية والجماعات ديناميكياً.

هذه النظرة أدت إلى إثارة بعض الملاحظات:

١- يمكن اعتبار هذه النظرة وجهة نظر أو إطار عمل مفهومى أكثر منه نظرية. إذ أنها من الناحية التفسيرية والبنائية ينقصها الكثير.

٢- اتجاه بلومر إلى اقتفاء خطوات ميد يمثل مشكلة أخرى فإلى أى مدى سوف ينجح فى تأسيس نظرية تحظى القبول عند علماء الاجتماع.

ورغم هذا فإن بلومر قد ساهم مساهمة فعالة فى إنشاء نموذج عن المجتمع استقرائى يتعامل مع الوحدات الصغرى وديناميكى.

●●●

ارفنج جوفمان

ERVING GOFFMAN

(١٩٢٢ - ١٩٨٢)

حاز جوفمان على شهادته الجامعية الأولى من جامعة تورنتو Toronto سنة ١٩٤٥، ثم انتقل إلى جامعة شيكاغو التي نال منها درجة الماجستير ١٩٤٩ ثم درجة الدكتوراه ١٩٥٣. ومن ذلك الحين واصل مساره الأكاديمي في جامعة بركلي، وحديثًا في جامعة بنسلفانيا Pennsylvania. وكان اهتمامه يتركز حول إنشاء إطار عمل لتحليل التفاعل الاجتماعي، مؤسس على ملاحظات رسمية ولا رسمية واسعة المدى. ومن أهم منشوراته كتاب تقديم الذات في الحياة اليومية The Presentation of Self in Everyday Life (١٩٥٩)، وكتاب المتعارضون Encounters (١٩٦١) وفي هذا المقام نحن نهتم خاصة بالكتاب الأول، إذ فيه قدم جوفمان نظريته في التفاعل.

أهدافه:

يعتبر اهتمام جوفمان الرئيسي هو بالأسلوب الذي به يقدم الفرد نفسه ونشاطه في مواقف العمل العادية، للآخرين، والأساليب التي بها يقود ويضبط الانطباعات التي يشكلها الآخرون عنه، ونوع الأشياء التي يرغب أو لا يرغب في عملها أثناء إنجاز عمله أمامهم[١]. ومن ثَمَّ فهو يركز على إطارة الانطباع في التفاعل، ولهذا يعتبر عمله مكملاً لعمل بلومر من حيث تركيزه على عملية التفاعل.

نظريته:

تدور نظرية جوفمان حول عملية إطارة الانطباع وقد صاغها على النحو الآتي:

تعتبر مصادر المعلومات أو التصورات المتبادلة مركز التفاعل. ومن ثَمَّ تصبح المعلومات عن الفرد تحدد الموقف إذ أنها ترسم ما تتضمنه توقعات الدور

---

(1) Goffman: "The Presentation of self in Everyday Live" Doubleday, New York, 1959, P. XI.

المتبادل[1]. وما له أهمية رئيسية هي المهارات المتميزة التي يستخدمها الأفراد لتقديم وإبراز أنفسهم، والظروف الخاصة التي تستخدم في ظلها هذه المهارات.

خلال التفاعل -وليكن إنجازاً ما فهو يحدث كالآتي: نشاط مشارك معين في ظرف معين يعمل على التأثير بأسلوب ما في أي واحد من المشاركين الآخرين[2]. خلال مثل هذا الإنجاز قد يفعل الفرد نمطياً routine يعني يؤدي نمطاً من الفعل سابق التأسيس.

هذا الفعل النمطي routine قد يصير مقننا في شكل واجهة front، ويعني بالواجهة تلك الجزء من إنجاز الفرد الذي يعمل وظيفياً بانتظام واطراد بأسلوب عام وثابت ليعرف ويحدد الموقف لأولئك الذين يلاحظون الإنجاز[3].

تتأثر هذه الواجهة front بالبيئة الطبيعية، وشكل الشخص مثل الملبس والعمر والجنس، والمظهر ويعني به المؤشرات الدالة على المكانة الاجتماعية للفاعل، والأدب ويعني به دلالات عما قد يصدر منه من سلوك. وعادة يتوقع الإنسان التوافق بين هذه العناصر.

فضلاً عن ذلك تميل الواجهات الاجتماعية social fronts إلى أن تصبح منظمة institutionalized أي تتأسس، وخاصة فيما يختص بالأدوار المؤسسة تماماً.

ومن ناحية أخرى، السلوك في داخل الواجهات الاجتماعية، قد يخضع للتأليف dramatization، مثلاً، عندما يكون هناك حاجة ضرورية وملحة إلى اتخاذ قرار في التو والحظة. وأيضاً تخضع للمثل، مثلا سلوك يتعلق بنمط اجتماعي ثابت وملازم لدور معين.

واضح أن الإنجازات ليست سلوك أدوار معزولة ولكنها متبادلة الارتباط مع سلوك الآخرين. عندما يتشابك المتميزون أو يتساندون (يتبادلون الاعتماد)، فهم يشكلون فرقاً teams أو مجموعات من أفراد يتعاونون في متابعة عمل نمطي (روتين) واحد[4]. يكون أعضاء الفريق متساندون وإلى حد ما سلوك كل منهم نحو الآخر مألوف Familiar.

(1) Ibid: P. 1.
(2) Ibid: P. 15.
(3) Ibid: P. 22.
(4) Ibid: P. 79.

ويحدث سلوك الفريق داخل منظمة خاصة، ويعني منطقة طبيعية physical area . سلوك الأدب واللياقة والزخارف يقع في منطقة الواجهة، ويعني بذلك في المنطقة التي تجمع فيها وتزايد المشاهدون -أي حيث يرى الناس الفاعل، بينما يحدث السلوك المتعب وغير المضبوط في المنطقة الخلفية، في المنطقة البعيدة عن أعين الملاحظين.

وهكذا يعتبر جوفمان أن التفاعل الاجتماعي وخاصة النمط المعياري أو الأخلاقي[1]، هو وظيفة لعملية إدارة الانطباع التي تتم داخل واجهات معينة بواسطة فريق الإنجاز. وتبعًا لهذا النمط من التحليل يحدد التفاعل أنواع معينة من المعلومات المتاحة والمتبادلة. ويقنن التفاعل خصائص الموقف وعلاقات الأدوار.

ومن ثمّ يمكن القول أن جوفمان قدم نمطًا نظريًا يتكون من نموذج فريد عن الواقع الاجتماعي. هذا النموذج يتكون من العوامل الرئيسية التي تحدد التفاعل الاجتماعي وهي: الفاعل ومعه دوافعه الملزمة، والإنجاز أو إدارة انطباع الفعل، والواجهة، وفريق الإنجاز مع مناطق الواجهة ومناطق الخلف. ويرتبط الفرد بالفريق من خلال الاعتماد المتبادل والسلوك المألوف.

●●●

(1) Ibid: P. 241.

النموذج الطبيعي

للنزعة السلوكية الاجتماعية

هذا النمط من النظريات يدرس الوحدات الصغرى، ويهتم بالتوجيه الداخلي ونظرة استنباطية للظواهر الاجتماعية. على أي حال يمكن النظر إلى عمل كل من بلاو Blau وجارفنكل Garfinkel، أنه يميل إلى الاتجاه الطبيعي، طالما أن بلاو يرى لهذه الظواهر جذور في العمليات السيكولوجية الأولية، كما أن جارفنكل يعتبر أن دوافع الفرد تتطابق مع النظام الأخلاقي. فكل منهما أنشأ نظرية اجتماعية عن الحقيقة الاجتماعية تأخذ في الاعتبار عوامل طبيعية. على أي حال هذا النمط من التصنيف هو مسألة درجة أكثر منه نوع. وبصفة عامة يسود النظرية المعاصرة في علم الاجتماع النمط النسقي مع آثار طبيعية قليلة.

●●●

هارولد جارفنكل

HAROLD GARFINKEL

(١٩١٧- ٢٠١١)

تلقى جارفنكل تعليمه فى جامعة نيو آرك New- Ark وجامعة كارولينا الشمالية North Carolina، ثم نال الدكتوراه من جامعة هارفارد على يد العلامة سالكت بارسونز. وكان محور اهتمام جارفنكل التنظيم الاجتماعى وخاصة فى الحقل المسمى مناهج بحث الشعوب Ethnomethodology أو ما يسمى أيضاً (بالمنهجية الشعوبية)[١]، الذى ساهم فيه مساهمة كبيرة بل ويعتبر أهم منشوراته العلمية هو كتابه دراسات فى مناهج بحث الشعوب (١٩٦٧).

أهدافه

عرف جارفنكل اصطلاح Ethnomethodology بأنها (الاستقصاء للخصائص العقلية لمجموعة التعبيرات والأفعال العملية التى تتم أثناء الحياة اليومية)[٢]. ويمكن القول بأن جارفنكل كان مهتمّاً بكيفية ترشيد الأفراد للواقع الاجتماعى أثناء ممارستهم وتفاعلهم فى حياتهم اليومية، إذ يوجد تنظيم اجتماعى أو نظام أخلاقى فى داخل التفاعل الاجتماعى والذى من خلاله وبه يفسر الأفراد الواقع الاجتماعى ويجعلونه رشيداً أو يدركون الغرض منه أو يفهمونه. إنها تلك العملية (إدراك الغرض من الأشياء making sense out of) أو تفسير الواقع الاجتماعى الذى يهتم به جارفنكل فى نظريته.

مثل هذه الدراسة تختلف جذرياً عن علم الاجتماع التقليدى الذى عادة يتضمن وضع مفاهيم سابقة التحديد وتعريفات للحقيقة الاجتماعية على أساس بيانات

---

(١) هذه الترجمة وردت فى كتاب النظرية فى علم الاجتماع- تأليف الدكتور سمير نعيم (مرجع سبق الإشارة إليه).

(2) Garfinkel: "Studies in Ethnomethodology" Prentice-Hall, Englewood Cliffs, New Jersy, 1967, P. 11.

تجريبية. ولكن جارفنكل في دراسته هذه عكس الوضع إذ اهتم بكيفية صنع الأفراد للحقيقة الاجتماعية، بمعنى كيف يصنع الأفراد أثناء تفاعلهم الواقع الاجتماعي، عن طريق تفسيراتهم الاجتماعية، ومن ثَمّ تعتبر عملية التفسير الاجتماعي -أساس التنظيم الاجتماعي- كما هي مفهومة من عملية نظر الممارسين، وتلك العملية هي مركز اهتمام جارفنكل.

نظريته:

اعتبر جارفنكل أنه يوجد نظام أخلاقي عبارة عن بناء اجتماعي من القيم المعيارية، يمثل أسس التنظيم الاجتماعي، وهو عنده يعتبر موضوع علم الاجتماع[1].

واعتبر أن هذا النظام الأخلاقي مقبولاً عند أعضاء المجتمع، ويعرف الحقيقة الاجتماعية لأولئك الممارسين أي أعضاء المجتمع من واقع معاملاتهم اليومية[2].

هذا النظام الأخلاقي يمثل الأسس لتفسير الواقع الاجتماعي[3].

واعتبر جارفنكل أن دوافع الفرد هي أن يكون متطابقًا ومتوافقًا مع هذا النظام الأخلاقي عند تفسيره للواقع الاجتماعي، بمعنى أن يفهم الفرد الأفعال اليومية بواسطة تفسيرها بالرجوع إلى ذلك النظام الأخلاقي، أي من وجهة نظر النظام الأخلاقي. وهكذا يحاول الناس مواءمة مناشطهم في داخل هذا النظام من أجل فهم أعمالهم أو أن يجعلوها معقولة لأنفسهم[4].

طالما أن هذه العملية (التفسير العقلي) تحدث في كل أنواع السلوك، فإنه يمكن القول أن أي وضعية اجتماعية منظمة ذاتياً Self- organizing بمعنى أن كل المواقف الاجتماعية تنظم نفسها، أي تكتسب لنفسها تنظيمًا، من خلال محاولة أعضاء الموقف إضفاء المعقولية أثناء التفاعل.

مثل هذا التنظيم طالما أنه يحدث أثناء عملية التفاعل، فهو ديناميكي[5].

---

(1) Ibid: P. 33, 93.
(2) Ibid: P. 34.
(3) Ibid: P. 93.
(4) Ibid: P. 60.
(5) Ibid: P. 3.

واعتبر جارفنكل أن عملية الترشيد أو التعقيل تتكون من عدد من العناصر المتمايزة:

١- التصنيف والمقارنة.

٢- الأخطاء المحتملة والإتقان.

٣- البحث عن الوسائل.

٤- تحليل البدائل والنتائج.

٥- الاستراتيجية.

٦- الاهتمام بالتوقيت.

٧- إمكانية التنبؤ.

٨- قواعد التصرف أو الإجراءات.

٩- الاختيار.

١٠- أرضيات الاختيار[١].

تلك هي العمليات التي يستخدمها الفرد لإنجاز الرشد والمعقولية وفهم مناشط الحياة اليومية.

ويلاحظ أن موضوع علم الاجتماع عند جارفنكل يدور حول النظام الأخلاقي كما يعمل في الممارسات المنظمة في الحياة اليومية، وفي جذب الأفراد نحو الترشيد والتطابق مع هذا النظام الأخلاقي أثناء تفاعلهم مع الآخرين. ولهذا يعتبر أن التنظيم الاجتماعي ديناميكي، ويمثل نظام تفاوض بين الأفراد المتفاعلين.

كما يلاحظ أن جارفنكل قد استخدم قائمة ألفرد شوتز Alfred Schutz للترشيدات كما أن طريقته التجريبية تضمنت محاولة لدراسة عمليات الترشيد بعدد من الأساليب كتحليل الديالوج، ودراسات الحالة لأنماط معينة من الناس مثل تجارب يخضع فيها الناس لمواقف تشجيعية ويلاحظ تفسيراتهم لهذه المواقف،

(1) Ibid: P. 96, 103.

ومواقف يفترض فيهـا الناس عدم الثقة ويلاحظ رد فعل الآخرين. كل هذه الطرق صممت لإبراز الحالة التي بها يعمل النظام الأخلاقي في توجيه عملية التفسير عند الأفراد عندما يكافحون من أجل التطابق والترشيد.

وهناك عدة ملاحظات يمكن أن توجه إلى هذه النظرية وهي:

١- تعتبر المنهجية الشعوبية وجهة نظر أكثر منهـا نظرية، وخاصة أنها تكشف عن كثير من الثغرات النظرية من حيث إفراطها في تبـسط الحقيقة الاجتماعية.

٢- نقطة أخرى وهامة، وهي أن جارفنكل أهمل المحتوى البنائي الذي فيه تنبعث عملية الترشيد، مثل تأثير خصائص الجماعات المختلفة في هذه العملية.

٣- جـعل جارفنكل من كل نواحي النسق الاجتـماعي وظيـفـة لعمليـة التطابق والترشيد، وفي هذا إفـراط في تبـسـط ما هو مركب ومـعقـد ويبدو أن هذه مشكلة دراسات الوحدات الصغرى عندما تتزايد في التصغير.

وبالرغم من هذه الثغرات فهي محاولة جادة لإنشاء نظرية ديناميكية تختلف عن الأسلوب التقليدي، وتعتبر بداية لأسلوب جديد في علم الاجتماع قد يؤدي إلى إثراء العلم وخاصة في فرع التنظيم الاجتماعي.

***

بيتر بلاو

PETER BLAU

(١٩١٨-٢٠٠٢)

ولد بلاو Blau في فيينا Vienna، وأخذ شهادته الجامعية الأولى من كلية ألمهرست Elmahurst سنة ١٩٤٢، ثم نال درجة الماجستير من جامعة كامبردج Cambridge سنة ١٩٥٠، ثم نال الدكتوراه من جامعة كولومبيا Columbia سنة ١٩٥٢ وابتدأ حياته العملية في جامعة شيكاغو سنة ١٩٥٣ وفي سنة ١٩٧٠ عاد إلى جامعة كولومبيا التي نال منها الدكتوراه.

وكانت أهم أعماله العلمية ديناميكية البيروقراطية (١٩٥٥) The Dynamic of Bureaucracy، والتبادل والقوة في الحياة الاجتماعية (١٩٦٤) Exchange and Power in Social Life، وبناء المنظمات (١٩٧١) The Structure of Organization. وفي هذا المقام نحن نهتم بمحاولته إنشاء نظرية عامة عن التبادل في الحياة الاجتماعية.

أهدافه:

اهتمام بلاو الرئيسي هو تحليل الاتحادات الاجتماعية Social associations، وكذلك العمليات التي تحكم هذه الاتحادات، والأشكال التي تشكلها[1]. واعتبر أن العمليات المهمة في تلك الاتحادات مثل التبادل الاجتماعي، تبتدئ عند الفرد أي عند مستوى الوحدات الصغرى microscopic، وتتحرك نحو الوحدات الكبرى macroscopic. وبذل جهداً كبيراً في إنشاء نظرية عامة استقرائية عن التبادل والبناء الاجتماعي.

نظريته:

اعتبر بلاو أن العمليات الاجتماعية الأكثر تعقيداً تتطور من عمليات بسيطة[2]. واعتبر أن انبعاث التنظيم الاجتماعي هو عملية استطرادية، تبتدئ بعمليات الوحدات الصغرى.

---

(1) Blau: "Exchange and Power in Social Life Wiley, New York. 1964, P. 2.

(2) Ibid.: Introduction.

واعتبر أن قوى الجاذبية الاجتماعية Social attraction تستميل وتنبه وتحرك معاملات التبادل. وتتركب هذه القوى من الشعور بالانجذاب والرغبة في مختلف أنواع المكافآت، هذه القوى منغرسة ولها جذور في العمليات السيكولوجية الأولية الإنسانية[1]. وهكذا تعمل دوافع الجاذبية والمكافأة على نشأة تبادل المنابع exchange of resources، وهذه تعتبر أول خطوة في عملية الاتحاد الاجتماعي Social association.

وبمجرد أن يحدث التبادل يبتدئ تمايز المكانات والقوة، ومن ثمَّ المفرد الذي يمتلك منابع resources (مصادر) يحتاجها الآخرون. والذي في الوقت نفسه لا يعتمد عليهم بأي أسلوب، ذلك يصنع موقفًا فيه إشباع حاجات الآخرين يتطلب منهم الامتثال والإذعان لرغبات مالك هذا الموقف. وبهذا الشكل أدى التبادل إلى نشأة التمايز والفروق في المكانة status والقوة power[2].

فإذا كانت المميزات والمنفعة الناجمة عن الإذعان والامتثال تزيد وترجح كفة المشقة والعناء المبذول في العمل طبقًا لرغبة صاحب العمل أي دافع الأجر مثلاً، ذلك يؤدي إلى انبعاث التأييد الجمعي لموقف القوة، وهذا بدوره يؤدي إلى الاتفاق العام consensus، وأخيرًا إلى شرعية القوة. وهكذا تصبح السلطة الشرعية أساس التنظيم، وتؤدي إلى إنجاز مختلف المواضيع، واستقرار التنظيم، وانتظام institutionalization القيم والمعايير والمبادئ ونقل المعلومات[3].

وبينما ينشأ وينمو التأييد والشرعية للقوة من ناحية، ربما يكون هناك أيضًا بل وفي نفس الوقت أفراد يشعرون بالاستغلال لأنهم يحصلون على مكافآت غير مشبعة وغير كافية، أي أن مميزات ومنفعة الإذعان والامتثال لا تعدل المشقة والعناء المبذول في العمل، هؤلاء الأفراد قد يوصل كل للآخر إحساسهم بالغضب والإحباط بل والعدوانية، ويؤدي ذلك إلى رفض جمعي للقوة، وهكذا تنبعث قوى معارضة خصيمة للجماعة التي في مركز القوة أو مركز ضبط الموقف[4].

---

(1) Ibid: chaps.: 1, 2, 3.

(2) Ibid: chaps.: 4, 5.

(3) Ibid: chaps.: 8.

(4) Ibid: chaps.: 9.

وتبعًا لذلك، فإذا كان من ناحية عملية التبادل المتشابكة تؤدي إلى توازن القوى ودفعًا نحو التوازن في العلاقات، فإنه في الناحية المقابلة حيث الاضطراب في المكافآت، وتدهور معدل التكلفة (أي تكلفة حياة العامل أي أجره) يؤدي إلى عدم التوازن في العلاقات وإلى المعارضة والصراع، ومن ثمَّ يحدث التغيير الاجتماعي[1].

وبناء على ذلك، فإن العملية المصاحبة لاختلاف توازن القوى تميل إلى إنتاج عدم توازن في الحياة الاجتماعية، فتؤدي إلى جدل dialectic بين المبادلة (الأخذ والعطاء) وعدم التوازن، هذه العملية تشكل أسس الديناميكيات الاجتماعية. ولهذا يؤدي التبادل exchange إلى كل من البناء والعملية، أي كل من السكون static والحركة dynamic[2].

وهكذا يمكن القول أن نظرية بلاو تقوم على أساس مفاهيم معينة وهي:

١- فرد متأثر بدوافع الجاذبية الاجتماعية والمكافأة.

٢- عملية التبادل الاجتماعي، ونشأة التمايز في المكانات والقوة.

٣- التنظيم والشرعية يؤديان إلى التوازن.

٤- الإحساس بالاستغلال يؤدي إلى عدم التوازن الذي يؤدي إلى التعارض والتغير.

٥- الجدل الناجم بين التبادل واللاتوازن يؤدي إلى الديناميكية الاجتماعية.

***

(1) Ibid: chaps.: 11.

(2) Ibid: chaps.: 12.



الفصل الخامس

نماذج لنقد النظريات

النموذج الأول

نظرية التخلف الثقافي ونقدها.

النموذج الثاني

النظريات الحتمية ونقدها.



النموذج الأول

نظرية التخلف الثقافي ونقدها

وإن كـان يبدو أن هناك شبه إجماع بين علماء الاجتماع على أن التغير التكنولوجي يتجه إلى زيادة تقسيم العمل على حد تعبير دوركيم، أو إلى زيادة التخصص على حد تعبير ماكيفر، إلا أنهم اختلفوا اختلافًا شديدًا حول أي النظم الاجتماعية، أو أي من وجوه الثقافة، أسبق تأثرًا، أو بمعنى آخر حاولوا إقامة ترتيب معين لتأثير التغير التكنولوجي في الأجزاء المتخلفة للبناء الاجتماعي.

نظرية أوجبرن:

وحول هذا الموضوع أنشأ أوجبرن نظرية عن التخلف الثقافي التي جذبت انتباه علماء الاجتماع من ناحية، ومن ناحية أخرى دارت حولها دراسات عديدة، اختلفوا فيها حول مدلول التخلف وأسبابه وحاول كل تفسيره من خلال النظرية الاجتماعية التي أنشأها أو يفضلها.

وتتلخص فكرة أوجبرن منشئ نظرية التخلف الثقافي في أن شطري الثقافة المادي واللامادي تختلف سرعة استجابتهما للتغير التكنولوجي وهو يعبر عن فكرته بقوله (واضح أن الظروف الاجتماعية تمهد للاختراعات الميكانيكية، وأيضًا الاختراعات الميكانيكية تسبب تغيرات في الظروف الاجتماعية. ولكن من المرغوب فيه معرفة أي النتائج أكثر عمومية. لم يحدث تقييمًا شاملا في هذه النقطة. ولكن في الوقت الحاضر في العالم الحديث يبدو أنه أسهل وجود بيانات من تكنولوجيا تسبب تغيرات في الظروف الاجتماعية، ومن ثَمَّ نحن نميل لتفضيل الفرض بأن التتابع التكنولوجي بسبب التغيرات الاجتماعية)[1]. (ومن أجل هذا الفرض يصنف التراث الاجتماعي إلى مادي. وهو عمليات الإنتاج واستخدامه، ولا مادي وهو يتضمن التنظيم الاجتماعي في العلوم والفن والفلسفة والموسيقى والرسم والأدب والدين والأخلاق والعادات والأشياء المحبوبة والنحت، ومهما كان

---

(1) Ogburn and Nimkoff: op. cit., P. 577.

فالملاحظة غير القائمة على الإحصائيات تظهر أن أسرع أنواع التغير في هذا الوقت في الجزء المادي من الثقافة وفي العلوم، وأقل سرعة وأقل تغيرا في القطاعات اللامادية. وكذلك يبدو أن تراكم العمليات في الوقت الحاضر أكثر نشاطًا في العلوم الطبيعية وفي الثقافة المادية، وهكذا يبدو أن الجزء المادي والعلمي من الثقافة يتسع وينمو أسرع من الجزء اللامادي)[1]. (أي أن هناك معدلا غير متساو للتغير في وجوه الثقافة، إذ أن الثقافة المستقرة التي تبتدأ في التغير لا تمارس نفس الدرجة في كل أجزائها في الوقت نفسه.. ففي أجزاء ثقافتنا درجات التغير ليست متساوية. التغيرات التكنولوجية في الكيمياء والكهرباء هي الآن سريعة جداً أكثر منها في التغيرات في إنتاج القوة وفي بناء الصناعة. وتميل القوانين للتغير ببطء أكثر، بينما المحاكم باستعمالها للسابقة في تقرير الحالات جعلت القوانين أكثر مقاومة للتغير.. أجزاء الحضارة تتحرك إلى الإمام أو الوراء، بسرعات مختلفة، حقًا إنه من الصعب نظرياً تصور ثقافة ما حيث مختلف الأجزاء تتغير كلها بنفس المعدل، فإذا كانت مختلف أجزاء الكائن الاجتماعي منفصلة، وليست متعلقة كل بالأخرى تمامًا، سوف لا يكون هناك اهتمام خاص بالمعدلات المختلفة للسرعة لمختلف الأجزاء. مثلا الأوبرا ليست متعلقة بشدة بميكنة ثقافة القطن. ومن ثمّ يمكن لتغير ما أن يحدث في أي منهما دون أن يؤثر في الأخرى كثيراً. ومن ناحية أخرى، تربية الأطفال متعلقة جداً بتشغيل المرأة في الصناعة، ومن ثمّ فأي تغير في أحدهما سوف يؤثر في الآخر. إذن، إذا لم تكن أجزاء الكائن الاجتماعي منفصلة كلية ولكنها مترابطة عن قرب، فإن المعدل غير المتساوي للتغير يكون له أهمية قصوى. وإذا كان جزء يتغير بسرعة، وجزء مرتبطًا به يتغير بطء يحتمل جداً نشأة توترات بين الجزئين المتحركين بلا تساوي، تلك سوف تكون الحالة بالتأكيد إذا كانا من قبل في توازن منسجم.. التوترات التي توجد بين جزئين مترابطين من ثقافة تتغير بمعدل غير متساوي من السرعة ربما يمكن تفسيرها كتخلف في الجزء الذي يتغير بالمعدل الأبطأ)[2].

(1) Ogburn; "Social Change" Encyclopidia. P. 331.

(2) Ogburn and Nimkoff op. cit., P.P. 591- 592.

أى أن أوجبرن ونمكوف يقصدان بالتخلف الثقافى موقفًا من سوء التكيف، بمعنى أنه حدث تغير فى عنصر ثقافى مادى وأن العنصر الثانى اللامادى لم يتغير من تكيفه القديم للعنصر الأول، ومن ثمَّ يصبح تكيفه أسوأ، ومن ناحية أخرى أن هناك تناسبًا طرديًا بين سوء التكيف وبين شدة الترابط بين العنصرين المتغير الأصلى -أو الأول- وهو عندهما تكنولوجى، والمتغير الأبطأ وهو عندهما اجتماعى، بمعنى أنه كلما كان الترابط شديدًا كلما ازداد موقف سوء التكيف. (والتكيف تبعًا لبيئة متغيرة صعب جدًا لعدة أسباب، أولها أن تغير البيئة التكنولوجية من الصعب التنبؤ به، وعادة بل ومن النادر أن يكون قد عمل له أى استعداد. فمثلا السيارة عند اختراعها، ظن أنها ليست عملية ولم يلتفت إليها أحد. وأنه عند اختراع الطائرة لم يكن يتصور أنها ستجعل من المدن الآهلة بالسكان هدفًا طيبًا للطائرة قاذفة القنابل. هناك إذن تخلف فى التكيف للتغيرات التكنولوجية الجديدة، وفى هذه الفترات من التخلف يكون تكيف الإنسان أسوأ منه قبل حدوث التغير التكنولوجى[1]. (وفى الواقع، تخلف التغيرات الاجتماعية وراء التقدم التكنولوجى هى ببساطة حالة خاصة للظاهرة العامة للمعدلات غير المتساوية للتغير فى الأجزاء المترابطة من الثقافة)[2].

ويبدو أن أوجبرن ونمكوف كان يسيطر على تفكيرهما بيئتهما الأمريكية ذات الثقافة اللامادية المستقرة نسبيًا من ناحية، ومن ناحية أخرى، تمتاز بسرعة التغيرات التكنولوجية وندرة الاختراعات الاجتماعية، حتى أنهما انتهيا إلى أن العلم والتكنولوجيا، أحد، وأهم عوامل الاضطراب الاجتماعى فيقولا (إن العلم والتكنولوجيا ولو أنهما يأتيان بمواد ثقافية أكثر كفاءة، ومعرفة أكثر، ومستوى معيشة أعلى، فإنهما تنتج اضطرابًا اجتماعيًا)[3]. وإن كان عقليهما العلمى فى بعض الأحيان يدفعهما إلى التحدث عن الاختراعات الاجتماعية وقدرتها على إحداث مثل هذا التخلف، إلا أنهما كانا يلبثان أن يعودا مرة ثانية إلى التأكد على أن التكنولوجيا هى العامل الأول فى التخلف الثقافى. فمثلا يقولان: (التجديدات

(1) Ogburn "The meaning of Technology" op. cit., P. 8.

(2) Ogburn and Nimkoff: op. cit., P. 597.

(3) Ogburn and Nimkoff: op. cit., P. 597.

قد تكون فى الثقافة المادية أو اللامادية. الحرب، اختراع اجتماعى يمكن أن يسبب اضطرابًا عظيمًا فى التغيرات التكنولوجيـة، ولكن أعطى انتباهًا خاصًا للتكنولوجيا فقط بسبب مكانها المهم فى الحياة الحديثة. العدد الكبير للاختـراعات المهمة الآتية الواحدة تلو الأخـرى فى الزمن الحاضر والتى تسـبب تلك التغيـرات الاجتماعـية الواسعة تجعل من التكنولوجيا سببًا خاصًا وهامًا للاضطراب الاجتماعى[1].

وهكذا كـانت البيـئة الأمـريكية ذات التـغيـر التكنولوجى السريع سـواء على الأمريكيين انفسهم أو على الجماعـات المحيطة بهم مثل الهنود الحمر أو تيومكسكو التى عملت عـليهم دراسـات عن وطأة التـغير الناتج عـن استخـدام مواد الثقـافة اللامادية أى التكنولوجيا الأمريكيـة، كل هذا جعل أوجبرن ونمكوف يؤكدان دائمًا أن التكنولوجيا هى العامل الأول فى التخلف الثـقافى، ولو انهما نظرا بعد الحرب العالمية الثانية إلى خارج الولايات المتحدة، وامتد بصرهما إلى آسيا (الصين والهند وباكسـتان واندونيـسيا وماليزيـا والعراق وسوريا) ودول أفريقيا (مصر والجزائر ودول شرق وغرب أفريقيـا) لتبين لأوجبرن ونمكوف أن الحركات الاجتـماعية التى جرت على أرض هذه المجتمعات أتت باختراعات اجتماعية أدت إلى تغيرات جذرية فى بنائها الاجتماعى ومن ثَمَّ أصبحت هى العـامل الأول فى التغير الاجتماعى، بينما فى كل هذه البلاد وسائل الإنتـاج الحديث (التكنولوجيا الحديثـة) والعلم التطبيقى الحديث الذى حرمهم منها الاستعمار طويلا، قد جلبا إلى تلك المجتمعات ليلحقا بخطوات التغيرات الاجتماعية فى الجـانب اللامادى من الثقافة. وهكذا تمتير هذه المجتمعات التخلف الثقافى فيها تكنولوجى وليس لا مادى.

نظرية بارنز

ولكن بارنز Barnes فى دراسته عن التخلف الثقـافى لم يقف عند حد المجتمع الأمريكى، ومـا يحيط به من جماعـات، مثلما فعل أوجـبرن ونمكوف، بل وسع نظريته حتى شملت تاريخ الإنسانية، وقدم دراسـة نظرية ممتعة عن التخلف الثقافى

(1) Ibid.: P. 597.

مستخدمًا المنهج التاريخى وبذلك استطاع أن يعرض ألوانا من التخلف الثقافى التى كابدت وطأتها المجتمعات الإنسانية مرة تظهر تخلفا تكنولوجيا وأخرى تخلفا اجتماعيًا، وثالثة يكون هناك توازن وانسجام بين كل من وجهى الثقافة. (فخلال معظم تاريخ الإنسانية، كان التفكير الاجتماعى والنظم الاجتماعية متلائمين مع علم التكنولوجيا الذى كان موجودًا فى أى عصر. فقط فى حالة اليونان والرومان وعصرنا كان هناك مثل هذا التخلف بين الآلات والنظم الاجتماعية فى الفترة الكلاسيكية، وخاصة بين يونانى أثينا والإسكندرية، النظم الاجتماعية والفلسفة تقدمت أكثر بكثير من العلم والآلية، بينما آليتنا هى سابقة لحاضرنا إلى ما لا نهاية. فشل الرومان واليونان فى تحسين العلم والمخترعات حتى تحافظ على المسافة مع نظمهم الاجتماعية، كان السبب الأكبر فى أزمة الحضارة الكلاسيكية)[1]. واضح أنه فى هذه الفقرة يشير إلى أن هناك عصورًا كان هناك مواءمة وانسجام بين كل من عناصر الثقافة المادية واللامادية، ويبدو أنه يشير إلى عصور ما قبل الحضارة اليونانية والرومانية، تلك الحضارتين اللتين تميزتا بتخلف تكنولوجى.

ثم يعرض بارنز مرة ثانية نوعًا من التخلف التكنولوجى الذى كان يصاحب التطور الاجتماعى العظيم فى النظم الاجتماعية، الذى حدث فى مطلع العصر الحديث. (ففى مطلع العصر الحديث كان هناك دفعًا أكثر للتغيرات فى النظم الاجتماعية ولأنماط جديدة من التفكير الاجتماعى أكثر مما كان بتقدم العلم والاختراع بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٨٠٠. عندما أتت نهاية العصور الوسطى، وابتدأت الأزمنة الحديثة، هذه التغيرات كانت أصلا هى نتاج الطبقة المتوسطة، فلقد أنكرت تلك الطبقة معظم أنماط النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى للعصور الوسطى. ولقد ساعدت الدولة وحولتها من المطلقة إلى النيابية. ولقد نمت أفكار القانون الطبيعى التى وضعت الفقه والقانون لتؤيد حماية الملكية.. وبهذا الأسلوب التأثير الاجتماعى الذى بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٨٠٠ كان يشجع بقوة تحول وتغير النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى)[2]. وفى هذه الفقرة

---

(1) Barnes: "Social Institutions" op. cit., P. 55.

(2) Ibid. : P. 55.

يعرض لنا بارنز تغيرات اجتماعية واسعة فاقت التغير التكنولوجي في هذا العصر، أي أنه كان هناك تخلفا تكنولوجيا.

ثم يعرض بعد ذلك بارنز التخلف الثقافي اللامادي في القرنين التاسع عشر والعشرين عندما (بدأت الاتجاهات الثقافية والنظامية للعصر الحديث عند الكل، تؤيد وتشجع النمو في كل من العلوم الطبيعية والاختراعات التكنولوجية، ولقد أصبح مفهوما أن العلوم تحمي وتثرى الحياة الإنسانية، وتزيد من احتمالات الربح المالي في الأعمال وفي تشغيل العمال طبقا لنظام الربح والرأسمالية. . ولهذا ألقت الطبقات المالية ورجال الأعمال بكل قوتهم الهائلة في المحافظة على الأشياء كما هي في حياة النظم الاجتماعية. ذلك ما فعلوه، وفي نفس الوقت أصبحوا أشد إعجابًا بأسلوب التقدم في العلوم والتكنولوجيا. ولهذا منذ سنة ١٨٠٠ إلى الوقت الحاضر، الجماعات الاقتصادية السائدة في المجتمعات الحديثة مالوا إلى مقاومة التغيرات في النظم الاجتماعية بينما في نفس الوقت شجعوا التقدم في العلوم والتكنولوجيا، وذلك هو السبب الأكبر لهذه الحالة الغريبة والمنذرة بالخطر التي نواجهها اليوم، وأكثرها أهمية عدم توازي تكنولوجيا وعلوم اليوم، وميراث من النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعي زمنه في معظم الأجزاء منذ حوالي سنة ١٨٠٠ أو قبل ذلك. فالظروف في عالمنا الحديث، منذ أكثر من قرن قد عملت على تقدم عظيم في العلوم والتكنولوجيا، وثباتًا في النظم الاجتماعية)[1].

وهكذا يعرض بارنز لونا من التغير التكنولوجي الواسع المدى في مقابل بطء شديد في النظم الاجتماعية مما جعل العالم الغربي الرأسمالي يعيش في ظل وطأة شديدة من التخلف الثقافي اللامادي.

ومن ناحية أخرى يعرض بارنز المشكلة من وجهة نظر علم الاجتماع السياسي أو بمعنى آخر من وجهة معتقداته وأفكاره عن التنظيم الاجتماعي فهو يبدو على عكس أوجبرن ومكيوف المتأثران ببيئتهما الأمريكية فارجعا وطأة التخلف الثقافي إلى مجرد سرعة التغير التكنولوجي وموقف سوء التكيف الناجم عن التخلف في متابعة التغيرات التكنولوجية. ومن ناحية أخرى يميلان إلى الإصلاح بإدخال تعديلات

(1) Barnes: op. cit., P.P. 54- 55.

أو مواءمات لعملية التغير التكنولوجي لتحسين التكيف إذ عندهما (كلمة التخلف تتضمن أن السبيل الأحسن للعمل هو إخراج التخلف في المتغير الذي لم يتغير أو الذي يتغير ببطء أكثر، حتى يكون في تكيف أحسن مع المتغير الذي يتغير)[1].

(وبعد إزالة التخلف في أحد المتغيرين وإقامة تكيف آخر نفس الصعوبة في التقدير تنشأ بالنسبة للقيم بمعنى، لأي الشيئين التكيف أحسن عن الموقف السابق)[2]. (إذ عندهما لا يتفق كل الأشخاص على أي الجزئين من الثقافة يكون حسن التكيف)[3].

ولكن باونز يبدو تأثره بالظروف الاجتماعية الخاصة به كمفكر في مهاجمته العنيفة لـلنظم الاجتماعية الموروثة منذ أكثر من قرنين. فقد (استحدثت الطبقة المتوسطة بالتحامها مع ووراء البروتستانت، والنظام الرأسمالي، تفضيل ومدح الربح المالي، ولقد أخذت دوراً نشيطاً في الاستعمار وفي خلق الإمبريالية الحديثة وأنشأت نمطاً ملائماً من نظرية سياسية واقتصادية لتبرير النظام البرجوازي الجديد، وأوجدت فلسفة الحرية السياسية لتبرير الثورة ضد امتيازات الأرستقراطية، ودافعت عن بروز الحريات المدنية مثل حرية الكلام والطباعة والاجتماع والدين وما شابه ذلك. وفي الاقتصاد عظمت ومجدت حرية التجارة، وإعفاء وحصانة الأعمال والتجارة من التنظيمات الحكومية الواسعة. معظم هذه التجديدات في فلسفة السياسة والاقتصاد قد تقبلت عند نهاية القرن الثامن عشر، وهكذا مال هذا النسق بعد ذلك لتركيز المقاومة للتغير)[4].

وتتضح نظرته للتخلف الثقافي من وجهة نظر مقاومة أصحاب المصالح المكتسبة في قوله (التناقض الموجود بين عالمنا العلمي والتكنولوجي وبين نظمنا الاجتماعية وتفكيرنا الاجتماعي ذو أهمية قصوى في أي عمل لفهم الأزمات في النظم الاجتماعية والمشاكل الاجتماعية في عصرنا. فالمشاكل الاجتماعية دون استثناء هي إبراز للهوة بين التكنولوجيا والنظم الاجتماعية فبينما يتعذب الملايين يطلبون

---

(1) Ogburn and Nimkoff: op. cit., P. 595.

(2) Ibid.; P. 595. (3) Ibid. : P. 594.

(4) Barnes: op. cit., P. 55.

الناجمة من سوء التغذية وسوء الإسكان، تدفع الحكومة للفلاحين ليحرثوا تحت القمح والقطن حتى يمكننا أن نحصل على الأقل من الأكل والملبس، ويعيش ملايين على حد الكفاف فى الوقت الذى فيه المصانع والمزارع إذا استعملت جيداً تخرج مقداراً عظيماً من الأكل والسلع. قدراتنا الإنتاجية مناسبة لإعطائنا كل ما نحتاجه فى مجال الطلبات الإنسانية. ولكن عملية التوزيع فى المجتمع لا تمتلك شيئاً مثل التسهيلات المتاحة لوضع السلع تحت أمر المستهلكين، التناقض يمكن شرحه بسهولة، الجانب الإنتاجى من حياتنا الاقتصادية يقوم أساساً على العلوم والآلية فهو نسبياً حديث جداً وكفء، بينما الأفكار والخبرات التى تدير التوزيع والاستهلاك هى بالعكس، إظهاراً وانعكاساً لحياة نظمنا الاجتماعية والتفكير الاجتماعى، فهى المتأخرة جداً أو غير كفوءة[1].

وهكذا بينما يتأثر أوجبرن ونمكوف بالبيئة الأمريكية المتميزة بسرعة التغيرات التكنولوجية والبطء النسبى فى جانب الثقافة اللامادية الذى يسبب عمليات من سوء التكيف.

نظرية بارسونز

فإن تالكوت بارسونز Parsons يعرضها بطريقة أخرى من خلال نظريته فى الدوافع والقيم، ومن ناحية أخرى عن تأسيس النظم الاجتماعية وما ينشأ عن ذلك من توترات. ويلخص فكرته عن مفهوم التخلف الثقافى بقوله (واضح أن أحد الملامح الرئيسية لانتظامية العلم وتطبيقاته هو إحداث تيار مستمر من عوامل التغير فى النظام الاجتماعى، المشكلة الحالية هى كيف يؤثر هذا التيار من التجديد فى أجزاء من النسق الاجتماعى، التى ليست متضمنة مباشرة فى عملية تقديمه.. إن انتظامية كلا نموذجى العملية تخلق توترات فى بيئاتهما المباشرة، إنه بلا شك تؤخذ على أنها شيء مفضل لأنه فى مفاهيم نسق القيم السائد بيننا، التقدم العلمى شيء حسن، كما أن العمليات التى تنجز التقدم أو تستخدم نتائجه تصبح سهلة ومقبولة تلقائياً وبالعكس هناك توترات ومقاومات، بعضها يتعلق بتخلف الاتصالات بين

---
(1) Ibid.: P. 5.

المتخصص والعوام، والبعض بالامتيازات الخاصة التي يطلبها الباحث أو العالم التطبيقي، والبعض لتدخله في أساليب قائمة لعمل الأشياء أو التفكير، والبعض يتعلق بحقيقة أنه يقدم تغيرات إذا استخدمت تتطلب هجر ونبذ الأساليب القائمة التي ترتبط بها مصالح مكتسبة)[1].

ويعرض بارسونز بعد ذلك تفسيراً للمشكلة بطريقة تكاد تتفق مع تقسيم أوجبرن للثقافة إلى مادية ولا مادية، ولكنه يبتعد عن هذه المفاهيم إلى مفاهيم أخرى تتفق مع نظريته عن الموجهات الاجتماعية فيقول (الانعكاسات للتغيرات التي قدمها التقدم العلمي والتكنولوجي يمكن متابعتها خلال مجريان رئيسيان، أولهما يبتدئ مع بناء توجيهات الوسائل الاقتصادية The economy of Instru- mental oriantations التي في داخلها يتوطن الدور الذي تنشأ فيه التغيرات وتستقبل أول تطبيقاتها. الثاني يختص بالوجوه الثقافية والأنساق الاعتقادية وأنساق الرموز التعبيرية ومن ثمّ المكافآت، التي معها تكاملت الأطوار المبكرة لعملية الترشيد)[2]. ثم بعد أن قسم بارسونز الثقافة إلى هذين المجريين اتجه إلى دراسة كل مجرى دراسة تفصيلية. إذ يعتبر أنه يمكننا أن نميز ثلاثة نماذج رئيسية للانعكاسات في مركب الوسائل instrumental complex:

الأول: إعادة بناء الأدوار المهنية ذاتها. هذا له ناحية إيجابية، فإذا صنعت أدوار جديدة بفضل المعرفة والتكنيك الجديد، أو أن الأدوار القديمة أعيد تهذيبها بالنسبة للمحتوى التكنيكي.. بالطبع إنه بالنسبة لهذه الأدوار الفنية هناك ميل لإنشائها بتوسع... ولكن الاعتماد المتبادل بين الوظيفة الفنية للدور والتجديد في توقعات الدور في مصطلحات من توجيه القيمة Value- orientation مقفلة بدرجة كافية حتى أنه يصبح من الضروري عمل مواءمات وتكيفات كثيرة جداً للتغيرات في المحتوى الفني. هناك كثير من المناسبات التي فيها دور أستاذ علم الاجتماع لابد أن يختلف عن دور أستاذ كلاسيكيات حتى في نفس الجامعة ذات البناء الاجتماعي والتقاليد الثقافية الواحدة، كلاهما تدريبه وبحوثه لابد وأن تختلف. الوجه الآخر

(1) Parsons, T.: "The Social System" The free Press Glenroe Illinois P. 505.

(2) Ibid. : P. 505.

لخلق أدوار جديدة هو الإرجاع للأدوار القديمة ومحتوى الأدوار المهجورة. ذلك ما هو معروف باسم ظاهرة البطالة التكنولوجية لأنه لأسباب مختلفة من الصعب للشخص ذاته أن يكتسب المعرفة والتكنيك الجديدين، وعادة جداً قبل أن يجد حلا للمشكلة يلقى العزل العادي لإحالته على المعاش..

النموذج الثاني: تتوقف الانعكاسات في المركب الآلي على وطأة التغيرات التكنولوجية على صفات أو خصائص التنظيمات أكثر منها على أدوار معينة. فهناك نواحي كثيرة ممكنة لمثل هذه الوطأة، ولكن أهمها، حقيقة هي أن التقدم التكنولوجي دائمًا يؤدي إلى زيادة مقصودة في تقسيم العمل، والمتطلبات المصاحبة من زيادة التنظيم المتعمد... التغير في بناء التنظيمات، مثل التغير في المحتوى لأدوار معينة، يصنع توترات، هناك مصالح مكتسبة معقدة في المحافظة على منظمة كما هي، لا بد من التغلب عليها...

النموذج الثالث: انعكاسات التغير التكنولوجي على الأدوات الاقتصادية، هذه تتعلق بتركيب نسق التسهيلات ومن خلاله على بناء القوة. إدخال تسهيلات طبيعية جديدة في شكل مهمات وآلات وما شابه ذلك، هو واضح.. ولكن بالنسبة للنظام الاجتماعي ما زال هاماً جداً ذلك التغير في النماذج المهمة للمهارة والخبرة، وفي الإدارة لنماذج معينة من المنظمات[1].

ثم يقدم بارسونز التأثيرات على الوجه الآخر الذي يختص عنده بالثقافة والأنساق الاعتقادية وأنساق الرموز التعبيرية والمكافآت بعبارة تتضمن معنى يدل على أنها تغيرات تالية لما يحدث في الوسائل الاقتصادية، أي أن التأثير التكنولوجي يحدث أولا في مركب الوسائل الاقتصادية ثم ينتشر منها على بقية وجوه الثقافة إذ يقول (يمكننا الآن أن نتحدث عن الانعكاسات على بناءات التكيف adaptive structures خارج المركب الوسائلي أو الآلي. بمعنى أن هذه التغيرات تحدث نتيجة للتغير التكنولوجي ومركب الوسائل الاقتصادية وهذه التغيرات التكيفية ما هي إلا استجابة للتغير في العاملين السابقين. ويذكر (أن أهمها هو نسق القرابة وأن ما أدى إلى عزل الأسرة المزدوجة هو التخصصية

(1) Ibid.: P. P. 506- 509.

والبيروقراطية التى أدت إلى زيادة الأدوار المهنية، وأن عمليات دمج الشخصية فى داخلها النسق المهنى يجب أن تكون مستقلة نسبياً عن التماسك القرابى. هذا العزل للأسرة المزدوجة بدوره كان له انعكاسات على الدور النسائى.. ومحتمل زيادة حدة فصل الدور الجنسى، وأن له علاقة كبيرة بانبعاث ظواهر مثل نمط المغنية. ولقد ازدادت التوترات على الدور النسائى ومن هنا أنتج أنماطا مسمية من توترات ردود الأفعال، وبالتأكيد لها علاقة مع التناقص السريع لمعدل المواليد حتى الآن. هذه العوامل بدورها يحتمل أن يكون لها انعكاسات أبعد على عمليات التنشئة الاجتماعية للأطفال. وجه آخر هام جداً هو تغير تكنولوجية إدارة المنزل باستخدام التكنولوجيا لجعل عملية إدارة المنزل أسهل.. ثم يقرر أن انعكاسات التغيرات التكنولوجية على المنظمات الدينية فى البناء الاجتماعى تتبعها لهى أكثر صعوبة. ثم يذكر الرموز المعبرة ذات العدد والآلات التى أتاحها النمو التكنولوجى مثل السيارة والثلاجة وآلة التسجيل والتليفزيون حيث تعبر عن المكانة، إذ أن عدد الخدم كتعبير عن المكانة فقد دوره. ثم يتجه إلى شرح أثر عملية التغير التكنولوجى فى إعادة تنظيم مستمرة لنظام المكافأة.. فقد نشأت أدوار جديدة اكتسبت أهمية استراتيجية، أو أدوار قديمة أصبحت مهجورة أو انخفضت أهميتها نسبياً.. وأن هذا يؤدى إلى حدوث توترات أكثر من أى صراع مصالح، ونعتبر هذه العملية هى العامل الأول فى ما يسمى صراع الطبقات)[1].

نظرية ميرل:

وكذلك يذهب ميرل فى نظريته للتخلف الثقافى مذهباً يكاد يشبه ما ذهب إليه تالكوت بارسونز، إلا أن ميرل بدلا من جعلها مجريين، فإنه يجعل مراحل التغير الناتج عن التجديدات التكنولوجية على ثلاث مراحل. كل مرحلة تتخلف وراء الأخرى فمنه (النظام الاقتصادى عادة يشعر بالوطأة الأولى للتغير الناتج من تقدم التكنولوجيا. هذه النظم هى الأنماط المنظمة للعلاقات الاجتماعية الموجودة لإنتاج وتوزيع السلع والخدمات. فالتغيرات الشاملة فى النظم الاقتصادية تبعث سلسلة

(1) Ibid.: P. P. 510- 513

التغيرات التكنولوجية والاجتماعية المعروفة باسم الثورة الصناعية -أساس صنع الحياة تحرك من الزراعة إلى المصنع ومن الريف إلى المدينة، وتغير حجم المشاريع الفردية وأصبح أسلوب جديد في العمل والمال ضرورياً لتشغيل التجديدات التكنولوجية. ففي العالم الحديث المؤسسات الكبيرة هي مثل للتكيف البنائي لسلسلة طويلة من التغيرات التكنولوجية)[1]. ثم يأتي عنده بعد ذلك النظم الاجتماعية (إذ الأنماط المنظمة للعلاقات المشتملة على الأسرة والكنيسة والمدرسة والحكومة هي الثانية التي تشعر بوطأة التغير الاجتماعي. ذلك صادق خاصة ببناء النظام، وأقل صدقا للمفهوم أو مجموعة القيم، التي تتغير ببطء كثير)[2]. ثم المرحلة الثالثة أو العنصر الذي يشعر أخيراً بالتغير أي يكون التخلف الأخير عنده هو القيم الاجتماعية. (فالقيم التي في قلب النظم هي الأهداف التي من أجلها يكافح الناس، والنهايات التي يبحثون عنها، فالزواج بواحدة قيمة اجتماعية في قلب الأسرة المسيحية، والحرية هي أساس النظم السياسية والاقتصادية، فمعظم القيم الأساسية تتجمع حول الأنماط النظامية تلك العناصر الأيديولوجية تتغير ببطء جداً)[3] ويختم ميرل هذا التصنيف بقوله (وهكذا العناصر في مجتمع لا تتغير بنفس معدل السرعة)[4].

ولكن ميرل يعترض على أوجبرن في أنه ليس كافياً فقط القول إن مختلف عناصر المجتمع تتغير بمعدلات مختلفة، بل يرى أن توضيح بعض العوامل التي تعطي النشأة لهذا الظرف، لان مثل هذه المعرفة مهمة لفهم المشاكل الاجتماعية والضبط الاجتماعي، وتنشأ هذه العوامل لدرجة كبيرة، وإن لم تكن كلية، من طبيعة الشخصية، التي هي جزء من نتائج المجتمع والثقافة. وملخص العوامل التي أشار إليها ميرل هي (نزعة المحافظة على الشخصية الناجمة عن عمليات التنشئة الاجتماعية التي تكسب كل فرد اتجاهات وقيم وأهداف ومعايير مجتمعة، وأي تغيير يهدد أو يبدو أنه يهدد هذه القيم يصبح تهديداً للشخصية ذاتها. والعامل الثاني هو الاتجاهات نحو مختلف التغيرات فقد تكون هذه الاتجاهات تشجع التغيرات أو ترفضها، ويضرب لذلك مثلا بالمجتمع الأمريكي الذي يشجع

---

(1) Mirrell: op. cit., P. 471.

(2) Ibid.: P. 472.

(3) Ibid.: P. 472.

(4) Ibid.: P. 472.

التغيرات في الميدان التكنولوجي ويرفض التجديدات في النظام الاقتصادي التي ينظر إليها من الشك إلى العدائية الشديدة. وإن هذا الاختلاف يساهم في اختلاف معدل التغير بين العناصر المختلفة. ثم يذكر أن العامل الثالث هو المصالح المكتسبة التي تحاول أن تؤخر التجديد الذي يهددها)[1] إلا أن ميرل في حذر العالم العارف بشدة تعقد العملية الاجتماعية ينهي بحثه هذا بقوله (قد فحصنا عن عمد نمط التغير الاجتماعي الناشئ عن العوامل التكنولوجية. هذه العملية لا تحدث أبداً في مثل هذا النموذج المحكم، فالمجتمع هو معقد جداً حتى أن أي نمط لا يمكنه أن يصف الموقف الحادث. فالتغير الاجتماعي هو مفهوم ديناميكي ويتضمن مجالاً واسعاً من تعديلات المكانة والدور على مدار فترة من الزمن. ولهذا تعطى كثير من العوامل المختلفة النشأة للتغير الاجتماعي حتى أنه من المستحيل عزل أي سبب مفرد أو كل العوامل المحيطة. ولقد ذكرنا فقط واحد من عديد النتائج العملية الممكنة التي تنشأ من تقديم تجديد تكنولوجي)[2].

نظرية ماكيفر

أما ماكيفر فإنه ينعى على استخدام مفهوم التخلف الثقافي في معظم الدراسات الاجتماعية بدون تحليل مناسب مما أدى إلى خلط كثير في الكتابات الاجتماعية إذ قد استخدم المفهوم (لكل أنواع اللاتوازن أو سوء التكيف الناشئ في داخل عملية التغير الاجتماعي. بدلاً من تحديدها لتفاوت الفاعلية داخل النسق نفسه)[3]. بل أنه يعترض على معنى التخلف عند أوجبرن الذي وصل إليه عن طريق قسمة الثقافة إلى مادي ولا مادي، وأن اللامادي تابع في تغيره للمادي، بقوله (عندما ننسب التخلف نحن نعني أن شيئاً ما يقع وراء أو يفشل في المحافظة على الخطوة مع شيء آخر إذن ماذا يتخلف وراء ماذا؟)[4] وإن مجرد توجيه هذا السؤال يستلزم الأمر (أن يكون لدينا مستوى للقياس ممكن التطبيق لكل من المتخطي والمتخلف،

---

(1) Ibid.: P. 47.

(2) Ibid. : P. 47.

(3) Ibid.: P. 479.

(4) MacIver a Page; op. cit., P. 573.

وحيث لا يكون متاحًا مثل هذا المستوى لا يمكننا الحديث بصواب عن تخلف. وحيثما يفشل جزء واحد أو ناحية واحدة من نسق إنتاجى فى الارتفاع لدرجة كفاءة جزء آخر أو ناحية أخرى، يكون اصطلاح تخلف لائق ومناسب، ولكن بما أن السؤال موضع البحث ليس من نوع الكفاءة المقارنة، فاستعمال هذا الاصطلاح يصبح غامضًا ومبهما، وربما يؤدى إلى متضمنات خاطئة)[1]. ويرى ماكيفر أن حل هذه المشكلة يأتى عن طريق (التمييز بين العوامل الثقافية والتكنولوجية ومن ثَمّ يمكننا تحرير فروض التخلف من الخلط ونعطيها استعمالا أكثر ثراء)[2].

ومن ثَمّ اتجه ماكيفر إلى وضع تقسيم جديد يتفق مع نظريته. وأعطى هذه التقسيمات مفاهيم جديدة تعبر عن أنواع التخلف من ناحية ومن ناحية أخرى محددة لأنواع العلاقات بين أجزاء التنظيم الاجتماعى والتغير التكنولوجى فهو يقسمها إلى تخلف تكنولوجى Technological Lage وحجر تكنولوجى Technological reatraint.

ويعنى بالتخلف التكنولوجى (حيثما تفشل أى واحدة من الوظائف المتساندة فى داخل عملية تكنولوجية، تفشل فى إنجاز أو حفظ درجة الفاعلية أو الكفاءة المطلوبة لتعاونها المنسجم مع الباقى، حتى أن الإنتاجية لكل العملية تتعطل أو تتأخر أو تتوقف عند هذه النقطة. ومثلا على ذلك هو الفشل المتكرر للإدارة لحفظ كفاءة كنية عندما تتسع شركة فى المجال، وخاصة عندما تصبح جزاء من ائتلاف -يعتمد مقياس التخلف التكنولوجى على قدرتنا فى قياس الكفاءة النسبية لمختلف العوامل المتبادلة القيام بالوظائف وكذلك لبيان فشل عامل معين فى المحافظة على السرعة)[3].

ويقصد ماكيفر بالحجر التكنولوجى، عندما تعرقل أو تمنع التدبيرات الموسومة لحماية بعض المصالح القائمة، تقديم أدوات أو أساليب أكثر فاعلية وكفاءة أو الانتفاع بمنتجات أكثر كفاءة. ويميز ماكيفر أنواعًا مختلفة من الحجر التكنولوجى، وهى:

١ - حجر تحدده المصالح البيروقراطية، هنا قوة القصور الذاتى، والتقاليد، أو مقاومة نظام قائم لطرق أو أساليب فنية أكثر كفاءة.

---

(1) Ibid.: P. 575.

(2) Ibid.: P. 575.

(3) Ibid.: P. 576.

٢- حجر تحدده المصالح الاقتصادية المحصنة عندما تواجه تهديدًا لما تحصل عليه من أرباح وميزات أخرى، ومن ثَمَّ تعارض الاستغلال للعمليات الجديدة، أو المناهج الجديدة، وهو يختلف عن النمط الأول في أن المعارضة تنبع بصفة خاصة عن الاعتبارات الاقتصادية.

٣- حجر تحدده المصالح الثقافية، هنا الخط الرئيسي لمعارضة النمو التكنولوجي تحدده تقاليد أو معايير القائمة والجماعات والمجتمعات أو اعتبارات أخلاقية خاصة أو سلطية وهنا يميز ماكيفر بين نمطين، نمط فيه ثقافة المجتمع تقاوم التجديد التكنولوجي، وثقافة أخرى تكون تقاليدها تشجع التجديد. ويفرق أيضًا ماكيفر في النمط الأول الذي لا يشجع على التجديد أنواعًا فرعية أخرى تذهب من التطرف في المقاومة -حيث تكون الثقافة متزاوجة مع نسق تكنولوجي مختلفًا تمامًا، ثم يفرض من الخارج على هذا المجتمع تكنولوجيا جديدة، وهكذا يحدث تدمير الوسط الذي تعبر ثقافة المجتمع عن نفسها من خلاله -إلى المقاومة اليسيرة حيث تكون الثقافة ذات مستوى أعلى ولديها قدرة على التمييز بين النسق التكنولوجي والتقاليد والمعايير والقيم، وتكون التجديدات تدعمها حكومة نفس المجتمع، وهنا تكون الوطأة أقل والنمط الثقافي الذي تشجع ثقافته على التجديد، يكون لديه استعدادًا للمواءمة مع التجديد.

٤- ثم يقدم ماكيفر نمطًا آخر تحت اسم الصدام الثقافي وهو لا يقصد به الصدام الثقافي حيث تحدث الصراعات المذهبية والأيديولوجية، ولكن يقصد به صراع القيم والمذاهب المتصارعة أو أساليب الحياة عندما تحتك في داخل نفس المجتمع: فالخوف من تكنولوجيا غربية هو ليس ببساطة خوفًا من أنها سوف تقلب القيم القديمة، إنه أيضًا خوف من أن التكنولوجيا الغربية سوف تقدم قيمًا غربية ومستويات وأهداف مختلفة. أي أن المقصود بهذا المفهوم هو الصراع الذي يحدث داخل مجتمع ما بين نمطين ثقافيين كاملين كل منهما يحيط بأسلوب كامل للحياة، أحدهما ثقافة للمجتمع الأصلية والآخر جلب أو فرض عليه من الخارج، وتزيد حدة الصراع إذا كانت الثقافة الأصلية متحدة مع الجماعة السائدة[1].

---

(1) Ibid.: P. P. 576- 580.

نقد نظرية التخلف الثقافي

وهكذا يتبين من العرض السابق للدراسات التي دارت حول مسألة التخلف الثقافي أن هذه المسألة ذات شقين. الأول فيما يختص بمفهوم التخلف نفسه كما صاغه أوجبرن من أن العناصر الثقافية اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية، ووضح أن علماء الاجتماع قد اختلفوا حول هذه المسألة، فبعضهم قرر بأنه لايمكن الادعاء بأن العناصر اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية، وبعضهم أيد أوجبرن فيما ذهب إليه، وآخرون لم يرفضوا الفكرة ولم يؤيدوها. ولكن تركوا موضوع المساجلة حول مفهوم التخلف من حيث أسبقية وجود على وجود من الثقافة، إلى محاولة توضيح التأثيرات الاجتماعية التي تكابدها النظم الاجتماعية نتيجة للتغير التكنولوجي، وهي الشق الثاني من المسألة. وحول هذه النقطة أيضا اختلف علماء الاجتماع، فمنهم من حاول إبراز أن النظم تختلف في أسبقيتها في التأثير بعوامل التغير التكنولوجي وأن أقربها إلى التغير هي أكثرها ارتباطًا بالعناصر التكنولوجية، متابعين في ذلك أوجبرن، وأعادوا بذلك إلى الأذهان نظرية الانتشار في دوائر وأن أكثر المناطق تأثرًا هي المنطقة المباشرة لمركز التغير، وبعضهم ابتعد عن هذه الفكرة وآثر الأمان العلمي ووضح آثار التغير في النظم الاجتماعية دون التعرض لمسألة الارتباط وشدته بالعناصر التكنولوجية، ولكن نظروا إلى المسألة من زاوية أخرى وهي مدى قدرة النظم الاجتماعية على المقاومة ورتبوا النظم حسب شدة مقاومتها، وآخرون تركوا كل هذا وذهبوا إلى محاولة وضع مفاهيم جديدة تشرح عملية التأثير الاجتماعي وعلاقتها بعمليات المقاومة المنبعثة من النظم الاجتماعية. .

وفي الحقيقة أن مفهوم التخلف الثقافي كما صاغة أوجبرن هو صادق ولكن بالنسبة لمكان معين وزمان وبعملية معينة وهو التغير التكنولوجي في المجتمع الأمريكي. حيث التغيرات التكنولوجية سريعة جداً والنظم الاجتماعية بطيئة جداً، كما وضح ذلك بارنز في دراسته الممتعة عن النظم الاجتماعية الأمريكية وتخلفها،

ومن ثَمَّ فإن مفهـــوم التخلف الثقافي إذا درس من الناحيــة العلمية ، يعني ، على أساس أنه نظرية اجـتماعيـة يمكن أن تصدق كقانون اجـتـماعي فإن الأمـر يختلف تمامًـا ، إذ أنه لا يمكن الادعاء بأن العناصـر اللامادية تتـخلف دائمًا وراء العنـاصر المادية من الثقافية . إذ أن هذا الأمر لا يصدق على المجتمعات التي تجري فيها الآن تغيرات اجتـماعية جذرية في بنائها الاجتمـاعي نتيجة للحركات الاجتـماعية التي أدت إلى إزالة النظم الاجتـماعية القـديمة وأحلت محلها نظمًـا اخرى ، ثم جلبت التكنولوجيـا إلى تلك المجتمعات بـعد ذلك استجابة لهـذه النظم الجديدة ، أي أن التغير في النظم الاجتماعية ووجوه الثقافة اللامادية كان سببًا في التغير التكنولوجي في تلك المجتمعات .

وكذلك عندما قرر أوجبرن أن العناصر اللامادية تتغير متأثرة بالتغير التكنولوجي لم يدرس المسألة إلا من جانب واحد ولم يعطها النظرة الشاملة بمعنى «أن أوجبرن توفر على دراسـة تأثيرات التكنولوجي على وجوه الثـقافة اللامادية تتـخلف دائمًا وراء العناصر المادية من الثقـافة ، إذ أن هذا الأمر لا يصدق على المجتـمعات التي تجري فيها الآن تغيـرات اجتماعية جذرية في بنائها تعرض لهـا عرضًا أرجعها إلى التراكم التكنولوجي ولم يتخط هذا إلى دراسـة العوامل التي أدت إلى هذا التراكم التكنولوجي ، وواضح أن وراء هذا التراكم التكنولوجي عمليات اجتماعية هي التي أدت إلى ذلك التراكم . والغريب أن أوجبرن نفسـه قد كرر في أكثر من مقال له أن الحاجة أم الاختراع ، والحاجة هنا ما هي إلا قوى اجتماعية تعمل على هذا التراكم التكنولوجي .

وأكثر من ذلك أنه قـرر «ليس هناك شيء أصلي إذا انتهت مسـألة الدرجة فأي تغير يمكن أن يختار قدر وضعه شيء آخر في حركة ، والذي كان أيضا في حركة ، وهكذا حتى نعـود إلى مايسمى الأسباب اللانهائية ، بالمثل بـالنسبة للتغيـرات في التراث الاجتماعي ككل . لا يمكن إثبات الأسبقية سواء للثقافة المادية أو اللامادية ، لأن التغيـرات في الثقـافة اللامادية ربما تكـون متأثرة بواسطة تغيرات في الثقـافة المادية ، التي كانـت من قبل تعزى إلى تغيـرات في الثقـافة اللامـادية ، التي كانت

سابقًا تعزى إلى تغيرات فى الثقافة المادية، وهكذا. فمنعمًا كل أجزاء الثقافة المتداخلة العلاقات تكون فى حركة وكل جزء يباشر قوة على أجزاء أخرى، لايمكن تعيين مكان أصل الحركة»[1]. ولكنه يعود فيقول فى مكان آخر «واضح أن الظروف الاجتماعية تمهد للاختراعات الميكانيكية، وأيضا الاختراعات الميكانيكية تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية. ولكن من المرغوب فيه معرفة أى التتابع أكثر عمومية، لم يؤسس بعد تعميمًا شاملاً فى هذه النقطة، ولكنه فى الوقت الحاضر فى العالم الحديث يبدو أنه أسهل وجود بيان عن تكنولوجيا تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية. ومن ثَمَّ نحن نميل لتفضيل الفرض ذى الأهمية الكبرى وهو أن تتابع التكنولوجيا يسبب التغيرات الاجتماعية»[2].

ومن ذلك يتضح أن أوجبرن ونمكوف عندما يتحدثان عن العالم الحديث هما يربطان حديثهما بزمان معين ومكان معين، هو المجتمع الأمريكى بعد الاستقلال. إذا لو اتجه أوجبرن ومن تبعه من العلماء إلى أوربا التى كانت المصدر الأول للتراكم التكنولوجى فى العالم الحديث لتبين لهم أنه لولا حركة اجتماعية ضخمة عبارة عن تغيير كبير فى وجوه الثقافة اللامادية، وهى تلك الأفكار والقوى الاجتماعية التى عملت على خلخلة قبضة الكنيسة وضبطها للنظم الاجتماعية والعقلية فى أوربا. ففى الحقيقة أن «نموا دقيقًا وعامًا فى التاريخ الاجتماعى للمجتمعات الغربية، هو ماسهل إلى حد كبير التغيرات التكنولوجية والتنظيمية والأيديولوجية، التى ميزت المجتمع الحديث من مجتمع القرون الوسطى، هو التقلص التدريجى فى دور الأيديولوجية الكنسية وزيادة فى الأيديولوجية الدنيوية»[3].

وكذلك أخطأ أوجبرن ومن شايعه فى اعتبار أن المجتمعات البدائية التى تكابد تغيرات اجتماعية شديدة وسريعة نتيجة لوطأة التغير التكنولوجى الذى جلب إليها وفرض عليها فرضًا. إذ أن أوجبرن كان واقعا تحت وطأة القهر الأيديولوجى

(1) Ogborn and Nimkoff: "H.B. of Sociology" op. cit., p.57.

(2) Ibid. :p. 577.

(3)Le piere. Richard : oP. cit., p. 304.

وفكرة قبلية كونها عن المجتمع الأمريكي، وكذلك استهواء رؤية الآثار الاجتماعية لوطأة التغير التكنولوجي دون النظر إلى العملية الدينامكية التي يتميز بها التغير الاجتماعي نظرة شاملة. إذ أنه ومن شايعه لم يتبينوا أن تلك المجتمعات البدائية هي أولاً وقعت تحت وطأة الاستعمار، والاستعمار يعني أولاً تغيراً في النظام السياسي في تلك المناطق أي أولاً تغيرا في أحد وجوه الثقافة اللامادية، وإلا لما أتيح لهذه العناصر التكنولوجية أن تفرض عليهم، ولوكانت قدمت لهم دون مساندة النظام السياسي المتمثل في الحكومة المستعمرة، لاتخذ التغير شكلاً آخر. أي أنه حتى في هذه المجتمعات ابتدأ التغير أولاً في الوجوه اللامادية من الثقافة.

ولو نظر أوجبرن ومن تبعه إلى هذه المجتمعات من ناحية أسباب التخلف الثقافي لوجدها تختلف تماماً عن أسبابها في المجتمعات الحديثة ولأفصحت عن طبيعة العملية الاجتماعية، ففي المجتمعات الحديثة «المجتمعات الرأسمالية» في هذه المجتمعات يكون التخلف في عناصر الثقافة اللامادية هو نتيجة التغير السريع الذي يطرأ على التكنولوجيا وأساليبها وعلى التنظيم الاقتصادي ومؤسساته ونمو العلم وأساليبه الفنية والتطبيقية مع بطء نسبي في عناصر الثقافة اللامادية في نفس المركب الثقافي، بينما التفاوت في المجتمعات البدائية ينشأ عن التعارض بين مركب ثقافي بما فيه العناصر المادية الذي فرض عليهم، ومركبهم الثقافي، أو بين النظم الاجتماعية بما فيها النظام الاقتصادي وتكنولوجية ونظم المجتمعات البدائية، فهو نوع من الصدام الثقافي،ليس نوعاً من التخلف بين عناصر مواد ثقافة واحدة، جانب منها يتخلف وراء الجانب الآخركما هو في مفهوم أوجبرن ومن شايعه وإنما يمكن النظر على أنه نوع من انعدام التوازن الجذري، فالمجتمع البدائي قبل وقوعه تحت الاستعمار كانت العلاقات الاجتماعية فيه تؤلف نظماً اجتماعية متجانسة بل وشديدة الترابط أو بمعنى آخر مركباً ثقافياً متكاملاً يشيع فيه التوازن. ولكن الاستعمار يأتي أولاً بتغيير في النظام السياسي أي يفقد المجتمع حرية العمل والتفكير وفقاً لنظمه ومعتقداته. ومن ثَمَّ يحدث انعدام التوازن ويصبح المركب الثقافي غير منسجم ولا متسق، وإنما تتصارع فيه قوى التحكم والضبط الاستعماري مع قوى الضبط الاجتماعي الأصلية، بحيث يصبح الصراع بين قانون

استعماري مفروض ويباشر تنفيذه المستعمر، وقيم المجتمع الأصلي، أي بين أسلوب في الحياة وأسلوب آخر. فهو تعارض جذري ولا يشبه على الإطلاق ذلك الذي يحدث في المجتمعات الغربية نتيجة التغيرات التكنولوجية دون التعرض للمركب الثقافي ككل، بل هو تعارض فرعي بين متغيرات فرعية وليس بين أسس البناء الاجتماعي، الذي أيضا قد يتضمن قوى متعارضة لكنها عادة تكون في حالة اتساق وانسجام أو في حالة توازن، وهذا ما يسمح في المجتمعات الغربية بالتغيرات التكنولوجية وآثارها الاجتماعية دون إحداث أزمات مدمرة للنظم الاجتماعية، وخاصة أن تلك المجتمعات قد جهزت ثقافتها بعرف وتقاليد عالية التشجيع للتغيرات في المجال التكنولوجي، وهذا يعتبر أحد عوامل الاتساق والانسجام للقوى المتعارضة في تلك الثقافات.

والشق الثاني الذي اختلف حوله علماء الاجتماع في مسألة التخلف الثقافي هو اختلاف معدلات السرعة التي تتغير بها مختلف وجوه الثقافة أو مختلف النظم الاجتماعية أو مدارس آخرون من ناحية اختلاف درجة تأثر عناصر الثقافة المختلفة أو مختلف النظم الاجتماعية بالتغير التكنولوجي. وفي الحقيقة أن هذه المسألة تدور حول الظروف الحاكمة للتغير، أو العوامل الاجتماعية التي تتدخل في عملية التغير، ليس التكنولوجي فقط، بل أي عملية من عمليات التغير الاجتماعي. وهو ما يجب أن يسميه بعض علماء الاجتماع بتسهيلات أو عوائق التغير في المجتمع أوما يذهب إليه علماء الأنثروبولوجيا فيطلقون عليه اسم عوامل القبول أو الرفض.

وتدور هذه المسألة حول نقطتين، الأولى هي اتجاه المجتمع نحو التغير نفسه من حيث التشجيع عليه أو مقاومته، أو في كلمات أخرى قيم وتقاليد ومعتقدات وعادات المجتمع أو ما يطلق عليه أوجبرن ومن يشايعه بالعناصر اللامادية، أو ما يسميه آخرون بأيديولوجية المجتمع واتجاهاتها نحو التغير. والنقطة الثانية في هذا البحث هي طبيعة النظم الاجتماعية المؤسسة في علاقاتها بعملية التغير من حيث التسهيل أو المقاومة، ويتعلق بهذه النقطة الممارسون للنظم وهي الجماعات

المتفاعلة داخل المجتمع، واتجاهات كل جماعة نحو عملية التغير القادمة ومدى تأثيرها على مكانه وأدوار كل جماعة من حيث القوة والرفعة أو التدهور والتهديد لمراكزها، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع تسميته بظاهرة المصالح المكتسبة.

النقطة الأولى وهي اتجاه المجتمع نحو التغير من حيث قبول أو رفض أو تسهيل وإعاقة عملية التغير، تكمن في أن كثيراً من المجتمعات قد هيأتها ثقافتها اللامادية أو قيمها وتقاليدها وعاداتها وأيديولوجيتها لقبول التغير، وأخرى هيأتها لرفض التغير. «فأهمية الميول الاجتماعية في تحديد الإتجاهات الحالية لا بد وأن يؤكد عليها بصفة خاصة من بين هذه الميول سوف يكون الميل نحو التغير الاجتماعي نفسه، فالمقاومة أو منع التغير الاجتماعي قد يكون قيمة عظيمة في بعض الثقافات. بينما في مجتمعات أخرى يشجع التجديد ويكافأ ويشرف»[1].

فعلماء الاجتماع وخاصة الأنثروبولوجيون عن يهتمون بدراسة البناء الاجتماعي يذهبون إلى أن البناء الاجتماعي يتميز بالاستقرار النسبي وأن لديه القدرة على الاستمرار في الوجود إلا أن الأبنية الاجتماعية تختلف من حيث درجة المرونة والجمود التي تتصف بها، وأن التغير الاجتماعي الذي يحدث في هذه الأبنية يتوقف على درجة مرونة وجمود البناء فما عملية التغير الاجتماعي إلا تفاعل لهاتين الخاصتين أو صراع بينهما على الإبقاء أو التغير، ومن ثمّ يتوقف التغير الاجتماعي في تلك الأبنية الاجتماعية على العناصر أو القوى الاجتماعية التي تتيح لخاصية دون الأخرى التفوق النسبي. وأن الذي يجعل لدى البناء الاجتماعي القدرة على التغير هي خاصية المرونة، والقوى الاجتماعية التي تتيح لهذه الخاصية التفوق النسبي تكمن في أن هناك بعض المجتمعات قيمها وعاداتها وتقاليدها هي دائمًا في حالة توقع للتغيرات.

وما التوقع إلا اعتقاداً مشعوراً به بأن تغيراً ما سوف يحدث، أي أن ثقافة مثل ذلك المجتمع تكون مفتوحة للتغيرات، أو في كلمات أخرى أن المناخ الاجتماعي يشجع على استقبال التغيرات، فمثلاً «المناخ الاجتماعي للاختراع في مجتمعنا هو يعجل بهذه التغيرات التكنولوجية التي ينظر إليها على أنها مرغوبة، طالما أنها

(1) Lundberg and others : "Sociology" op. cit., p.715.

تبدو أنها تجـعل الحياة أسهل وأغنى وأكثر إشباعًا فيقابل المجـدد فى هذه الحقول بالتقدير وتتوج مجهوداته بمكافآت مالية فى التكنولوجيا والعلم التطبيقى هناك جو من القبول» [1]. ولكن هذا القبول ليس متروكًا بلا حدود «فتوقعات التغير دائما تضع صورًا محددة على عملياتها يتوقع التغير فقط بين حدود معينة»[2]. كما أنه ليس متماثلا أو بدرجة واحدة عند كل المجتمعات، فهناك مجتمعات يكون القبول مسموحًا بـه فى بعض وجوه الثقافة دون الأخرى، كما تخـتلف درجة القبول فى تلك الوجـوه المسموح بهـا باختـلاف المجتمـعات، أو قـد يكون التغيـر مقـبولا ومـسموحًـا به فى كل أوجه الثقافة فى مجـتمعات أخرى. ففى المجـتمعات ذات الثقافة الراقية «هناك تقليد طويل من توقع التـغير فى المخترعات التكنولوجية التى تعمل على إثراء الحياة البشرية»[3].

وكذلك التغير تختلف درجات قبوله باخـتلاف وجوه الثقافة «يعكس الاستقبال التقليـدى الذى أعطى للاختراعات التكنولوجـية اختراع دين جـديد أو نظام أسرة أوأيديولوجية اقتصادية، يقابل باتجاهات تبتدئ من الشك إلى العدائية السافرة»[4].

ويليه فى الـدرجة الحقل الذى يقع فـيه التغـير التكنولوجى ثم النـظم الشديدة الترابط بالتكنولوجيـا، ولكن أيديولوجية للمجتمع الأمريكى تقف حـائلاً أمام قبول التـغيـر فى النظم الاجـتماعـية، كـما وضح بارنـز فى حديثـه عن تخلف النظم الاجتماعيـة فى ذلك المجتمع، إذ أن تقاليده وقيمه وعـرفه تقف حائلاً دون مجرد التفكير فى التغير فى هذه الجوانب من الثـقافة ويعبر عن ذلك سمنر بقوله: «هناك من يريدون مناقـشة الزواج المزدوج.. فـشلوا فى الحـصول على من يـسمح لهم بذلك. والبعض الآخر يريد مناقشة الملكية. وبالرغم من أن هناك كتابات نشطة فى هذا الموضوع فلا أحد يريد مناقشته. الزواج والملكية هم فى المعايير.. الشيء الذى يلاحظ فى كل هذه الحالات أن الجماهير تعـارض كل مناقشة ضد المعايير»[5]. أى أن المجتمع الأمريكى ليس فيه توقعًا للتغير فى هذه الوجوه من الثقافة.

---

(1) Mirrill: op. cit., P.474.

(2) Barnett: op. cit. P. 57.

(3) Ibid: p.313.

(4) Mirrill: op.cit. P.475.

(5) Sumner: op.cit., 75-77

وفى الناحية المقابلة هناك مجتمعات توقع التغير فيها أمر مطلق ومباح فى كل وجوه الثقافة، فمثل هذه المجتمعات يتميز بناؤها الاجتماعى بمرونة عالية لتقبل التغيرات. «فجماعة النفاجو Navago يتوقعون تحولات جديدة فى ثقافتهم، فى تاريخهم. فهم يرحبون بالتغير ويقبلونه على أنه تكيف حقيقى للعالم المحيط بهم، وكذلك الساموانز Samoans من المتوقعين للتغيرات ولكن بطريقة تختلف عن النفاجو، فهم يتوقعون أن كل فرد بينهم يتحد مع كل شيء يفعله، والتقليد شيء مؤسف، فكل فرد له طريقته فى لبسه وفى رقصه وفى بناء مسكنه، فتوقع الانحراف يمتد حتى إلى الدين والتنظيم السياسى لكل من الفرد والقرية، فالقاعدة هى التجديد»[1]. بل هناك مجتمعات بلغت درجة توقع التغير فيها إلى أعلى مستوياتها، أى أن ثقافتها قد جهزت ذلك المجتمع للتوائم مع أى تغير وفى أى وجه من وجوه الثقافة مثل جماعة البالوانز Paluans «يتوقعون التغير فى ثقافتهم، هذا الاتجاه منجسم مع تاريخهم. فالظاهر أنهم كانوا دائماً غير مستقرين سياسياً، والهزيمة ومعاناتها ليست شيئاً جديداً بالنسبة لهم، فمنذ اكتشف الجزيرة الأوربيون فإن شعبها قد أخذ سيادة الغرباء عليهم كأمر طبيعى وأنه حقاً خاصاً بالمنتصر.

فهم تفلسفوا حول التغيرات التى قدمها الألمان واليابانيون والأمريكيون، بل بعضهم يسأل من التالى»[2].

كل هذه الحالات تبين أن التغيرات التى تتمشى مع المعايير من السهل إحداثها «لكن التغيرات التى تعارض المعايير تتطلب مجهوداً طويلاً وصبراً إذا كانت ممكنة كلية»[3]، من ثَمّ فالمعايير تشكل التغير بلونها وتحدد منذ اللحظة الأولى المقبول منه والمرفوض. وهكذا فأيديولوجية أى مجتمع هى «جزء حيوى من الحياة الاجتماعية وبتوليفها مع العوامل الأخرى، فإنها إما لتبنى وتسهل التغير فى النسق الاجتماعى أو لا تشجع وتعارض التغير»[4]. فالفلسفة الاجتماعية لأى مجتمع

---

(1) Barnett: op.cit. p. 56-57.

(2) Ibid, p. 99.

(3) Sumoar: op.cit., P.94.

(4) Le piere: op.cit., p.265.

ذات تأثير بالغ فى قبوله أو رفضه لنوع معين من التغيرات إذ أن تلك الفلسفات الاجتماعية ماهى إلا التصورات الفكرية لذلك المجتمع سواء عن علاقة أعضائه ببعض أو علاقتهم بالبيئة الطبيعية. ولما كان أى تجديد لا يقفز من لا شىء، إنما هو ينشأ فقط بين تلك الأفكار وأن الأفكار هى التى آلفت بين عناصره، فطالما أن التجديد منبعث من خلال الأفكار فهى إذن التى تشكل مادته الأولى، ومن ثَمَّ فهى تحدد منذ اللحظة الأولى مجاله وأسلوبه.

ولا يمكن النظر إلى هذه الفلسفات الاجتماعية أو الأيديولوجيات كعوامل ثابتة لأنهم لا ينشئون أنفسهم من لا شىء ليحدثوا آثارهم. كما أن آثارهم تتغير بتغير محتوياتهم، فمحتوى الأيديولوجية فى المجتمعات الأوربية فى القرون الوسطى التى كانت تقوم على الأفكار الدينية ذات القداسة والتحديم الشديد منعت تلك المجتمعات زمناً طويلاً من التفكير فى مواضيع معينة، أو بمعنى آخر من محاولة التوليف بين عناصر الثقافة توليفة جديدة غير التى أتاحتها الكنيسة. ومن ثَمَّ كانت هذه الفلسفات الاجتماعية عائقاً وحائلاً دون التغير السريع فى تلك الحقبة، ولكن عندما ابتدأت الأفكار القائمة على أساس من التفكير العقلى والتحرر من الحجر الكنسى، أو بمعنى آخر الأيديولوجيات الداعية إلى التجديد وحرية الحركة نحو التوليف بين عناصر الثقافة، فإن تحول وتغير محتوى الأيديولوجية الأوربية هيأت المناخ الاجتماعى للتغير. إذا أن الفرق بين الأيديولوجية الكنسية القائمة على جزاءات صارمة وممارسين لا يقبلون أى تفسير إلا ماتركه الأسلاف من القساوسة. وبين الأيديولوجية الدنيوية التى تجعل مواد الثقافة أيا كانت خاضعة للشرح والتفسير لكل فرد عن طريق العقل والتجريب. إذ تتضمن الأيديولوجية العلمانية مفاهيم قابلة للاختبار كلية، ولهذا الأيديولوجية العلمانية يمكن أن تتغير كنتيجة للخبرات التجريبية. فطالما يعتقد الناس حقاً أن ملوكهم ملوكاً بالإرادة الإلهية ومرسمين إليها ولا يمكنهم فعل الخطأ، سوف لا يرغبون فى الخروج عن هذه القاعدة مهما كانت الأدلة التى تقدمها تجاربهم الشخصية مع حكمهم، ولكن عندما يصبح الناس يعتقدون أن

حكومتهم من صنع أنفسهم أو أجدادهم سوف ينظرون إلى أعمالها نظرة المحاسب بل وقد يعملون ضدها»[1].

كما أن الأيديولوجية المغيرة نوعان ومن ثمَّ يختلف تأثيرهما على التغير فلقد ذكر أوجبرن أن هناك نوعين من الأيديولوجية، أحدهما خيالية وهي تصدر عن التطلعات وآمال الإنسان ومخاوفه أو مشاعر أخرى، ويسمى هذه الأفكار بالمعتقدات، وأنها تحتوى أفكاراً لا تتعلق عن قرب بالحقائق، ورغم ذلك لها تأثيرها، فهي تتحكم في عملية التغير، وضرب مثلاً لذلك بفكرة الجنس في الأيديولوجية النازية التي لم يكن لها أساس حقيقي سواء بيولوجي أو أنثروبولوجي ورغم هذا لعبت دوراً هاماً في بناء اقتصاد مكتفي ذاتيا في السلع المادية، وكذلك الأيديولوجية الماركسية وتأثيرها على التنظيم الاجتماعي في الاتحاد السوفيتي. كما أن هناك أيديولوجية تمتيز بخليط من أفكار الحقيقة والخيال ومثل لذلك بفكرة: دعه يعمل. وقرر أن العالم المادي يتأثر أكثر بواسطة الأفكار الواقعية من تأثره بالمعتقدات. فالثقافة المادية لا تلين بسهولة للأفكار من النوع الخيالي»[2].

وهكذا فطالما يعتقد مجتمع ما في أن أحد أوجه الثقافة لا يجوز فيه التجديد إما بسبب العرف أو التقاليد أو القيم أو الأيديولوجية، يصبح تغير هذا الوجه من الثقافة بطيئا جداً.

وليس معنى هذا أن هذه المعتقدات أو القيم أو الأيديولوجيات هي قوالب جامدة غير قابلة للتجديد بل هي أيضا تجرى عليها عملية التغير. ومن ثمَّ فإن القيم التي تشجع التغير تكون هي ذاتها متأثرة بهذا التغير، بمعنى أنه كلما كانت القيم من النوع المشجع على التغير تصبح هي ذاتها أسرع تغيراً من تلك التي لاتشجع التغير، فهي كما تقف حائلاً دون التغير لا تتغير هي. وهكذا يصاب المجتمع بالجمود أو المرونة نتيجة لما فيه من قيم ومعتقدات ومعايير. وفي الحقيقة إن هذا المجال من المجتمع او الثقافة هو أشد المناطق مقاومة للتغير، ومن ثمَّ أقلها

(1) Ibid.,p.304.

(2) Ogburn and Nimkoff.: op. cit., p.p. 578-581.

تأثرًا بالتغيرات الاجتماعية أو التكنولوجية، إذ أن هذه العناصر لها جلالها وقدسيتها التي اكتسبتها من كونها أتت إلينا من الماضي وغرست فينا وتوحدت مع ذواتنا أثناء عملية التنشئة الاجتماعية. «فلقد أتت إلينا المعايير من الماضي ولقد ولد كل فرد بينها. وطالما أنه ولد في جوها فهو لا يستطيع أن يضيق عليها أو يفقدها، ومن ثَمَّ يذعن كل فرد لتأثير المعايير وتشكله قبل أن تكون له القدرة على فحصها عقليًا»[١].

«وليس معنى هذا أنها لا تحمل في طياتها الأسباب العقلية لرسوخها ولكن بالعكس فهي تتضمن في ذاتها تبريراتها الذاتية بواسطة التقاليد والفائدة والرغبة وتؤيد بجزاءات خفية، وهي ليست منبهة للفكر بل على العكس، فقد تم صنع التفكير وأصبح منغرسًا في المعايير. وهي لا تحتوي إطلاقًا أي تجهيز لتغيير ذاتها فهي ليست أسئلة ولكنها إجابات لمشاكل الحياة فهي تضع نفسها كشيء نهائي وغير متغير لأنها تقدم إجابات معطاة على أنها صدق»[٢].

وهكذا ينمو الإنسان في مجتمع معين ذا عرف وتقاليد وقيم معينة، هذا النمو الواقع تحت تأثير وفي ظل هذه العناصر يشكل أسلوب أعضاء المجتمع في التفكير والعمل، ومن ثَمَّ تصبح قوالب ذات صلابة، ولهذا ينظر أعضاء المجتمع لمواد الثقافة وما يطرأ عليها من تغير في أساليب منمطة قد هيئتها تلك الأنماط وكونت منها فلسفة عن الحياة، تلك هي التصورات الفكرية التي يواجه المجتمع بها التغيرات، ومن ثَمَّ فإن كانت التغيرات تتفق مع تلك الفلسفة فإنه يسمح بها، وتلك التغيرات التي تتعارض معها تقاومها وتكبتها من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون تأثرها هي بالتغير يكاد لا يذكر، أي أن هناك تناسبًا طرديًا بين مقاومة المعتقدات والقيم وبين شدة تأثرها بالتغيرات، «ولهذا يعتبر التغير تغلبًا على المقاومة، إذ أن عملية التغير طالما أنها تتحدى الأنماط المنتظمة للفعل والعلاقة، لهذا: التغير ليس أبدًا مجرد تحول للأنماط ولكن تحولاً بواسطة التغلب على المقاومة»[٣].

---

(1) Sumner. op. cit., p.76.

(2) Ibid: p.76.

(3) persons: "Social System" op. cit., P. 491.

وذلك هو السبب فى أن التغير التكنولوجى أصبح سريعًا فى الثقافات الراقية حيث إن المحتوى الثقافى ليس فيه مقاومة لهذه التغيرات، إذ أن قيمته وأيديولوجيته سوف تسمح مباشرة بنجاح التغير فى المحتوى الإدراكى للجزء الخاص بها من الثقافة، والعكس صحيح، بمعنى أن شدة المقاومة التى تقابل التغيرات فى مجال النظم الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى مثلاً تسبب عدم قدرة التغير على التغلب على المقاومة المتضمنة فى المحتوى الثقافى للمجتمع.

وبالمثل إذا كانت عناصر الثقافة شديدة الترابط وكان الإبدال جذريًا، فإن المقاومة تبلغ أعلى مراحلها، وتخف حدتها إذا كان الإبدال سطحيًا. كما يحدث عندما يراد إدخال فى ثقافة شديدة الترابط، عنصر من ثقافة أخرى تختلف عنها جذريًا أى ذات قيم وعادات وتقاليد متعارضة تمامًا، إذ أن العنصر الثقافى المراد إدخاله، هو فى ثقافته الأصلية يشكل حالة من التوازن والانسجام والتكيف مع بقية عناصرها، فإذا نقل إلى الثقافة المتعارضة فهو بالتالى يكون متعارضًا مع عناصرها ويشكل حالة من اللاتوازن وسوء التكيف، ومن ثَمَّ تشتد المقاومة لإخراج العنصر المحدث للاتوازن لإعادة اللاتوازن إلى ما كان عليه، أو مساندة العنصر الدخيل بقوة كبيرة تمكنه من التغلب على المقاومة لإحداث تغيرات جذرية فى المحتوى الثقافى لقبول التغير نفسه.

ذلك يشبه ما حدث فى المجتمعات البدائية نسبيًا التى وقعت تحت سيطرة الاستعمار الأوربى، خاصة إذا كانت ثقافة المجتمع المقهور من النوع الذى مناخه الاجتماعى لا يهيئ لقبول التغيرات، ومن ثَمَّ «فالتغير يقبل واقعيًا ولكن بمعنى القهر، فبعض الناس يقبلون الذى لا يمكن تجنبه بيأس، والبعض يقاسون فى صمت والبعض فى مرارة، حقيقة إن بعض الناس يتوقعون التغير ولكن لا يرحبون به، هذا لا يعنى أنهم تحت رحمة القوى الاجتماعية التى ليس لهم سلطان عليها، إنما يعنى هذا أنهم تحت رحمة أناس آخرين ذوى عقائد وأفكار عكس أفكارهم وعقائدهم»[1]. وذلك ما يطلق عليه بعض العلماء «التكيف

---

(1) Barnett, op. cit., P. 50.

الثقافي العدائي Hostile acculturation [1]. حيث تكون عناصر الثقافة المفروضة متعارضة جذرياً مع عناصر الثقافة المفروضة عليها، ومن ثَمّ يعني التغير في تلك المجتمعات التغلب على مراكز المقاومة في المحتوى الثقافي لتلك المجتمعات أي قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم ومعاييرهم، ومن هنا تتدهور القيم المتوارثة وتتفكك العلاقات الاجتماعية التقليدية، ويصبح المجتمع غير متوازن ولا منسجم إذ أن القوى التي كانت تعطيه تماسكه قد قهرت.

وتخف حدة المقاومة إذا كانت عناصر الثقافتين المستعيرة والمعيرة متشابهتين، ومن ثَمّ يكون توطين السمة الثقافية الجديدة غير مقلق للقيم والتقاليد لتشابهما في الثقافتين، وإن أحدث شيئًا من اللاتوازن فهو من النوع الذي يمكن التغلب عليه بسهولة لأنه لا يمس مراكز المقاومة الشديدة من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون هناك القوى الاجتماعية التي سببت الاستعارة مؤيدة للسمة الجديدة، كأن تكون هذه السمة أكثر إشباعًا من السمة القديمة، وهذا ما يطلق عليه (التكيف الودي Friendly acculturation) [2].

●●●

(١) دكتور/أحمد أبو زيد «البناء الاجتماعي مدخل لدراسة المجتمع» ج١، ص ٢٧٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٨.

النموذج الثانى

النظريات الحتمية ونقدها

لم تتوقف النزعة الحتمية عند تفسير التطور الاجتماعى فى مراحل جامدة فقط، بل امتدت أيضًا إلى العوامل العلية فى التغيير الاجتماعى ولقد شاع هذا الأسلوب فى تفسير التغير الاجتماعى ووجد له مؤيدين وأنصارًا حتى تكونت نظريات تدعى حتمية هذا العامل أو ذاك. ويشرح ماكيفر معنى الحتمية فى قوله (نحن نعنى بالنظريات الحتمية أى مذاهب تفسر السلوك الإنسانى والتغيرات فيه، تفسيرًا أوليًا بالظروف البيئية والخارجية والمادية)[1] وهذا التفسير به قصور إذ يغفل النظريات الحتمية التى تنادى بعامل أو آخر من عوامل الثقافة-اللامادية. ويسمى ماكيفر هذا النمط من التفسير بالحتمية البيئية ويشرحه كالآتى (هذا النمط من التفسير له اختلافات كثيرة، طبقًا للتركيز على واحد أو أكثر من نواحى البيئة. مثلاً إذا جعلت التغيرات المناخية أو الجغرافية أولية، فنحن نتعامل مع ظروف بالتأكيد لا تخضع لرغبة الإنسان ويصبح التفسير بسيطًا جداً (وإن كان غير ملائم أيضًا). وإذا ركزنا على الظروف الاقتصادية أو التكنولوجية يصبح التغير أكثر تعقيدًا، ليس فقط لأنها دائمًا وغالبًا سريعة التغير، ولكن أيضًا لأنها هى نفسها تعبيرات عن المناشط الإنسانية. ومن ثَمّ فالحتمية ليست مطلقة. مثل هذه التفسيرات يمكن أن تظل مسماة حتمية إذا كانت تدعى أن التغير البيئى هو دائمًا العامل المدخل للتغير الاجتماعى، أو إذا جعلوا التغير الاجتماعى غير مقصود ولكنه نتيجة ضرورية للتغير البيئى)[2].

وهكذا يتضح أن ماكيفر يقصر تعريفه للنظريات الحتمية على العوامل البيئية. ولكن فى الحقيقة أرى أن يمتد التعريف ليكون (يحدث التغير الاجتماعى عند النظريات الحتمية نتيجة لتوفر قوى معينة اجتماعية أو طبيعية دون أن يكون

---

(1) MacIver and Page: op. cit., P. 558.

(2) Ibid.: P. 558.

للإنسان نفسه دخل فى معظم الأحوال). ولقد اختلفت النظريات الحتمية حول نوع القوى أو العامل العلى الحتمى للتغير الاجتماعى. ويمكن تلخيص معظمها فى الآتى:

١- نظرية الحتمية البيولوجية: التى ترجع التغيرات الاجتماعية إلى الاختلافات الوراثية فى الذكاء والقدرات والإمكانيات ويندرج تحت هذه الحتمية أيضًا الحتمية العنصرية التى ترجع الاختلافات بين المجتمعات إلى اختلافهم فى الأصول السلالية، وكذلك يتفرع منها الحتمية السيكولوجية التى تفسر التغييرات الاجتماعية فى ضوء الدوافع أو الغرائز كما يمكن إلحاق المدرسة الداروينية أيضًا بالحتمية البيولوجية إذ أنهم يرون أن المجتمع يتطور طبقًا لقوانين التطور البيولوجى، وأنه يعبر عن صراع مستمر من أجل البقاء وأن البقاء للأصلح.

٢- نظرية الحتمية الجغرافية: التى تفسر التغير الاجتماعى على أنه استجابة للعوامل الجغرافية مثل المناخ والتربة والموقع وما إلى ذلك من الحقائق الجغرافية، وهذه النظرة تعتبر امتدادًا لما ذهب إليه كل من أرسطو ومنتسكيو أن الأنظمة الاجتماعية والسياسية، على أنها نتاج مباشر للظروف الجغرافية فى المناطق المختلفة. ومن أشهر المتشيعين لها العلامة تافت وهنتنجتون.

٣- نظرية الحتمية الاقتصادية: كما عند سمنر وكيلر وموورجان. ولكن الحتمية الاقتصادية فى أعلى مراحلها وأوضح صورها تتمثل عند كارل ماوكس، الذى كان يرى أن العامل الاقتصادى هو العامل الأساسى فى تحديد بناء المجتمع وتطوره.

٤- نظرية الحتمية التكنولوجية: التى ترى أن أصل كل تغير اجتماعى هو استجابة للتغير فى الوسائل التكنولوجية وأن التغيرات الاجتماعية الحادثة فى أى مجتمع هى للحاق بالتغير التكنولوجى.

٥- نظرية الحتمية الأيديولوجية: التى ترى أن نسق المعتقدات هو الذى يتحكم فى التغيرات الاجتماعية وتطور المجتمع. فهذا النسق هو الذى يحدد المرغوب

والمسموح والممنوع (فيرى ماكس فبر أن نشأة الأخلاق البروتستانتية هي التي جلبت إلى الوجود الصناعة الحديثة والأشكال الرأسمالية للحياة الاقتصادية)[1].

كما أن أوجست كونت (رأى في تطور العقل البشرى سببًا للتقدم)[2] ودى روبرتى كان يعتبر الأفكار هي البواعث الأولى أى أن التغير الاجتماعى يعتمد عنده في المحل الأول على الأفكار أكثر مما يعتمد على العناصر المادية الملموسة التى تحتل بذلك مكانًا ثانويًا بالنسبة للعناصر اللامادية[3]. (واعتقد دوركيم أن التصورات الجمعية هي التى صنعت التماسك الاجتماعى ومن ثمّ الاستقرار الاجتماعى. وسومبارت Sumpart قال إن ظهور روح جديدة فريدة، أو انبعاث مجموعة من الأفكار جعلت من اكتساب الثروة الهدف الأكبر في الحياة وذلك ما صنع التغيرات التى كونت المجتمع الحديث[4].

إن هذه النظريات الاجتماعية في محاولتها لتفسير التغير الاجتماعى بعامل واحد وتصوره في نمط محدد عام وأبعدت أى عامل من عوامل التحكم الإنسانى الواعى المقصود. فهى تعارض وجهة النظر التى يعتقدها لستر وارد وتشارلس الوود من أمريكا ولدفيج شتاين من ألمانيا، وهوبهوس من بريطانيا الذين كانوا يرون أن المجتمع يتغير نحو التقدم بفضل الجهود المقصودة الرتيبة المتواصلة. أو بقول آخر عن طريق التخطيط الدقيق.

وعلى الرغم من أن النظريات الحتمية قد أبرزت عناصر هامة في عملية التغير الاجتماعى إلا أن إرجاعها التغير إلى عامل واحد، واعتباره نظامًا شاملاً محددًا لشرح جميع التغيرات الهامة في المجتمعات، دون اعتبار لظروف الزمان والمكان والتراث الاجتماعى، أدى بها إلى الانحراف عن حقائق علمية اجتماعية واضحة.

فهذه النظريات أغفلت مبدأ السببية العلمية المؤسس على التفاعل بين متغيرات

---

(1) La Piere, Richard. T.: "Social Change", McGrow Hill Book Com. N.Y. 1665 P. 261.

(2) Ibid.: P. 291.

(3) دكتور أحمد أبو زيد: البناء الاجتماعى مدخل لدراسة المجتمع، ص ٦١.

(4) La Piere: op. cit, P.292.

متشابكة كما أنها تجاهلت أيضًا حقيقة أن النظم الاجتماعية وتنوع الأحداث المختلفة تتولد دائمًا على التفاعل بين عوامل معقدة، تتشابك وتتداخل في تكوين الوسط الاجتماعي، فمن ظروف جغرافية إلى بيولوجية وعوامل اقتصادية وتكنولوجية ومعتقدات، إذ أن (البيئة التي نستجيب لها معقدة جدًا، ولهذا فإن استجابتنا لها لابد أن تكون متشعبة. هذه الصعوبة تظهر عندما نحاول التوفيق بين الأنماط المختلفة للنظرية الحتمية، فمثلاً نفترض أننا ننشد تفسير الصفات الخاصة لمجتمع أمريكا الشمالية. فنحن لا نستطيع في نفس الوقت إعطاء الأولوية مع هنتنجتون Huntington لتأثير المناخ والجغرافيا، ومع ترنر Turner لتأثير أسلوب حياة الحدود، ومع ماركس للنسق الاقتصادي، ومع فبلن Veblen للعادات التي ولدها تكنيك الصناعة. أي أن كل الظروف التي افترضناها ربما يكون لها أهمية لفهم مجتمع أمريكا الشمالية، ولكن إذا أخذ واحد منها كتفسير كلي، ويضاد كل الآخرين، تنشأ الصعوبة من أنه لا يمكن لأحدها أن يؤسس أرضية حتمية خالصة، لأننا لا نستطيع على هذه الأرضيات تفسير لماذا مجتمعنا يستجيب للبعض في وقت ما، ويرفضها في وقت آخر[1].

وعلى الرغم من أن العلوم الاجتماعية لم تصل في تطورها إلى الحد الذي يوضح العلاقات الصحيحة بينها وأثر كل عامل في التغير، إلا أن الحقيقة الثابتة هي أن أي عامل من هذه العوامل يعتبر متضمنا في السلوك الإنساني.

ويبدو أن النزعة الحتمية في هذه النظريات تقوم على فرض استحالة التجديد الجوهري في التاريخ الإنساني كما يظهر واضحًا عند ماركس. بل إنه ذهب إلى حد التنبؤ الكامل الحتمي للتغير الإنساني، ووصف عملية اجتماعية عامة تتحكم في جميع التغيرات الماضية والتغيرات الحاضرة والمستقبلة كذلك. (فعنده مرحلة النمو التكنولوجي تحدد أسلوب الإنتاج والعلاقات والنظم التي تكون النسق الاقتصادي، هذه المجموعة من العلاقات بدورها هي المحدد الرئيسي لكل النظام الاجتماعي)[2].

---

(1) Macivar and Paget op. cit., P.P. 558- 559.

(2) Ibid.: P. 559.

فهو أفرط في تلخيص التطور الرأسمالي بادعاء التركيز المتزايد للثروة وتزايد البروليتاريا. وأفرط في تلخيص دور الدولة كتنظيم لطبقة سائدة التي سوف تذبل مع الثورة الشيوعية. ولقد تنبأ بأن هذا سيحدث في إنجلترا الدولة الصناعية الرأسمالية السابقة في النمو الصناعي، ولكن الثورة حدثت في روسيا الزراعية، والدولة لم تذبل بل تأكد دورها عما كانت فأصبحت المنتج الوحيد.

ومن ثمَّ فهذه النظريات لا تدعي فهم الماضي فحسب، وإنما تؤكد كذلك استحالة حدوث تغيرات جديدة في ظروف الحياة الإنسانية. هذا على الرغم من أن مبدأ التطابق العلمي لا يقوم على الاعتقاد بضرورة حدوث ظروف معينة مقررة إذ انه مؤسس على المبدأ القائل إنه إذا حدثت بعض الظروف فسوف يتلوها نتائج معينة، وقد أظهرت حقائق التاريخ الإنساني -كما حدث في الثورة الروسية وقيامها في بلد زراعي بدلاً من صناعي كما زعم ماركس- فساد الاعتقاد باستحالة ظهور ظروف جديدة في المجال الاجتماعي.

ومن ثمَّ (فقبول تفسير خالص هو بالتأكيد سوء فهم للتعقيد المتناهي للعلاقات بين الحياة والبيئة. تلك البيئة التي لا ينبهها فقط فنون الإنسان ووسائله الفنية ولكن أيضًا معتقداته ورغباته وتطلعاته[1]) وفي الحقيقة (أن نظرية عامة عن عمليات تغير النظم الاجتماعية ليست ممكنة في الحالة الحاضرة للمعرفة. السبب بسيط جداً، أن مثل هذه النظرية سوف تتضمن معرفة كاملة عن قوانين عملية النسق وهذه المعرفة نحن لا نملكها[2]).

والعجيب أن بعض هذه النظريات الحتمية، وخاصة الحتمية البيئية التي تدعي الموضوعية في تفسيرها للتغير الاجتماعي، تتصور أن من الموضوعية إخراج العامل الإنساني من هذه الموضوعية.

والحقيقة أن الإنسان أحد عناصر مكونات المجتمع بل هو أهم عنصر من عناصره، وفي جعله مجرد مستجيب لمؤثرات البيئة وتغيراتها، كما تدعي النظريات

(1) Maciver and Page: op. cit., P.P. 572- 573.

(2) Parsons: op. cit. P. 486.

الحتمية إغفال لفاعلية الإنسان، وإذا قيل إنه فى مطلع الإنسانية كان الإنسان يستجيب لبيئة لا حول له ولا قوة، وهذا قول فيه كثير من الشك، والأقرب إلى الصحة أن تدخله فى الظروف المحيط به لم يكن تامًا. وإنه بتقدم العلوم الطبيعية ثم الاجتماعية، أصبح العمل الاجتماعى الواعى عاملاً رئيسيًا فى التغير الاجتماعى وتطور الأحداث التاريخية بحيث يتعذر وضع حد جامد مقدمًا لمسار التغير الاجتماعى.

وغنى عن البيان أن هذا التعارض لا يقودنا إلى إقصائهم كلهم، إذ الحقيقة أن النظريات الحتمية قد كشفت أثناء دراستها عن علاقات ذات أهمية، ووضعت فروضًا نشطت البحث الاجتماعى. إنما ما يؤخذ عليها هو تحيزها لعامل أو آخر فالجماعات الإنسانية فى تكيفها بظروف بيئتها، يمكن أن تتخذ أساليب عديدة، فهناك مكان لعمل القلة الأذكياء، وهناك مكان لدور الصدفة، وهناك مكان لعوامل البيئة من اقتصادية وتكنولوجية وجغرافية. وهناك أيضًا مكان لنسق المعتقدات ليلعب دوره فى توجيه التغير الاجتماعى. فمرة يكون هذا العامل أو ذاك مؤثرًا ومرة أخرى متأثرًا، وقد يكون مؤثرًا ومتأثرًا فى آن واحد. وهكذا فإن التفسيرات الحديثة تأخذ العلية النسبية لجميع العوامل فى تفسير التغيير. (لقد أصبح واضحًا أن التغيير لابد وأن يشرح كعملية تتوقف على تفاعل عوامل عديدة)[1]. فالتغير الاجتماعى يحدث نتيجة لعوامل عديدة. مثل التكنولوجى والصناعى والاقتصادى والأيديولوجى والدينى وليس لعامل واحد ترجيح أو أفضلية على العوامل الأخرى فى حد ذاته.

وإن كان يذهب بعض العلماء إلى أن التكنولوجيا هى أساس لكل التغيرات فى العلاقات الاجتماعية، كما يؤكد آخرون أن حالة الفنون الصناعية تسود المناطق الأخرى للمجتمع. كما يذهب آخرون إلى أن التنافر بين الطبقة التى تملك أدوات الإنتاج والطبقة التى لا تملك هى الأهم، وأيضًا وضع البعض العوامل الأيديولوجية أو الدينية على أنها تؤدى للتعديلات الأساسية فى الدور

---

(1) Maciver and Page; op. cit., P. 626.

والمكانة. والحقيقة أن المجتمع ككل هو عملية معقدة من التفاعل الاجتماعي لعديد من العوامل. وكل العوامل السابق ذكرها وأكثر، تعمل في التغير الاجتماعي.

ويلاحظ أن التغير الاجتماعي نفسه لا يسمح بسبب واحد، إذ أن كل عنصر في المجتمع يؤثر في كل عنصر آخر. (وهكذا التغير الاجتماعي ليس له سبب واحد، وبالمثل ليس هناك نظرية للتغير وحيدة ومحيطة. فلقد حاول كثيرون إقامة الحقيقة العظيمة الضخمة للتغير الاجتماعي على سبب واحد مثل التجديدات أو التطلعات الدينية. لا نظرية من هذه النظريات كافية للإحاطة بالحقيقة المعقدة للتغير الاجتماعي)[1].

فالحقيقة أنه ليس هناك واحد أو اثنين من المصادر الأولية من المحركات للتغير الاجتماعي، فالمحرك لعملية تغير قد يتولد في نمو وتصور ثقافي، مثل ما يحدث تمامًا في نمو علم أو أفكار دينية، وقد يتولد أيضًا في تغير في التركيب السكاني أو في حجمهم، أو التحول في البيئة الطبيعية (فالمبدأ المنهجي الرئيسي لنظريتنا هو الاعتماد المتبادل لمجموعة من المتغيرات. لوضع نظرية عامة عن أولية عامل من عوامل التغير الاجتماعي هي في الحالة الراهنة للمعرفة تتطلب مسألة الاعتماد المتبادل التجريبي الذي مازال في حاجة إلى برهنة. ولهذا نحن نضع مقدمًا ما نسميه مفهوم جماعية المصادر المحتملة للتغير الاجتماعي مع الفهم أن التغير ربما يتولد في أي جزء من النسق الاجتماعي موصوفًا في مصطلحات بنائية أو مصطلحات من المتغيرات)[2].

***

---

(1) Merrill, F.E.: "Society and Culture" Prentice Hall Inc., Englewood Cliffs, New Jersey, 1965. P. 406.

(2) Parsons: op. cit., P.P. 493- 4949.

المراجع العربية

أحمد أبو زيد -دكتور- البناء الاجتماعي- مدخل لدراسة المجتمع- الجزء الأول، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥.

أحمد الخشاب -دكتور- التفكير الاجتماعي- دار المعارف- القاهرة- ١٩٧٠م.

اميل دوركيم -قواعد المنهج فى علم الاجتماع- ترجمة دكتور محمود قاسم- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- ١٩٥٠م.

تيماشيف -نظرية علم الاجتماع- ترجمة الدكاترة محمود عودة، محمد الجوهري، محمد علي، السيد الحسيني- دار المعارف- القاهرة- ١٩٧٧م.

سمير نعيم أحمد -دكتور- النظرية فى علم الاجتماع- دار المعارف- القاهرة- ١٩٧٩م.

محمد فؤاد حجازي -دكتور- البناء الاجتماعي- مكتبة وهبة- القاهرة- ١٩٧٩م.

مصطفى الخشاب -دكتور- أوجست كونت- لجنة البيان العربي- القاهرة- ١٩٥٠م.

●●●

المراجع الأجنبية

1- BARNETT, H.G.: "Innovation" Mc Grow- Hill BooK Comp. Inc. N.Y. 1953.

2- BENDIX, RENHARD: "Max Weber's Sociology to day" International Social Science. Jornal, Vol. XVII, 1956.

3- BLALOCK, H.M.: "Theory Construction, From Verbal to Mathematical Formulation" Prentic- Hall, Englewood Cliffs, N.J. 1969.

4- BLAU, P.: "Exchange and Powe in Social Life" Wiley, New York, 1964.

5- BLUMER, H.: "Symbolic Interactionism, Perspective and Method", Prentic- Hall, Englewood Cliffs, New Jersy, 1969.

6- Buckley, W.: "Sociology and Systems Theory" Prentice- Hall, Englewood Cliffs. N.J., 1967.

7- COSER, L.A.: "The Functions of Social Conflict" Free Press, Chicago, 1956.

8- COSER, L.A.: "Continuities in the Study of Social Conflict" Free Press, New York, 1967.

9- COMTE, AUGUST: "The Positive Philosophy" trans. and condensed by Harriet Martineau, London, George Bell and Sons, 1896.

10- DAHRENDORF, R.: "Class and Class Conflict in industrial Society", Stanford University Press Stanford, Calif., 1959.

11- DURKHEIM, EMILE: "The Division of Labour in Society" Trans., George Simpson. Glenovce Ill.: The Free Press, 1949.

12- DURKHELM, E.: "The Division of Labor in Society" trans by Simpson, Glencoe, Free Press, 1933.

13- GARFINKEL, H.: "Studies in Ethnomethodology" Prentice- Hall, Englewood Cliffs, New Jersy, 1967.

14- GERTH ansd MILLs: "From Max Weber, Essays in Sociology" A Galoxy Book, Oxford University Press, New York, 1958.

15- GIBBS, J.: "Sociological Theory Construction" Dryden Press, New York, 1972.

16- GOFFMAN, E.: "The Presentation of Self in Everyday Life" Doubleday, New York, 1959.

17- GOULDRER, A.W.: "The Cominig Crisis in Wester Sociology" Avon, New York, 1970.

18- HOMANS, G.: "Contemporary Theory in Sociology" in Hand Book of Modern Sociology" edit. by Faris, Rand McNally and Comp. Chicago, 1964.

19- KOEING, S.: "Sociology, An Introduction to the Science of Society" Bames and Nobele, New York, 1960.

20- LA PIERE, RICHARD: "Social Change" McGraw- Hill Book Comp. N.Y. 1965.

21- MACIVER, R.M. and PAGE, Ch.: "Society" Macmillan Comp. LTD., London, 1932.

22- MARTINDALE, D.: "The Nature and Types of Sociological Theory" Houghton Mifflin, Boston, 1960.

23- MARX, KARL: "A Contribution to Critique of Political Economey" trans. by N.I. Stone, New York, International Libaraty Publeshing Co. 1914.

24- MEAD, G.H.: "Mind Self and Society" University of Chicago Press, Chicago, 1934.

25- MEMMSEN, WOLFGANG: "Max Weber's Political Sociology and his Philosophy of World History" International Sociology, Unesceo Volum VII, 1965.

26- MERRILL, F.: "Society and Culture" Prentice- Hall Inc., Englewood Cliffs, New Jersy, 1965.

27- MERTON, R.K.: "On Theoretical Sociology" Free Press, New York, 1967.

28- MILLS, C.W.: "The Sociological Imagination" Oxford University Press, New York, 1959.

29- MILLS. C.R.: "Sociological Imagination" Gross Press, New York, 1961.

30- MILLS. C.W.: "White Collar, The American Middle Classes" Oxford Universty Press, New York, 1956.

31- MILLS. C.W.: "Power Elite" OXford Universty Press New York, 1956.

32- NISBET, R.A.: "Sociology as an Art Form" Pacific Sociological Review, 1962.

33- OGBURN and NIMKOFF: "A Hand Book of Sociology" Roulidge and Kegan Poul, London, 1953. P. 546- 547.

34- OGBURN: "Social Change" Encyclopidia of Social Science.

35- OGBURN: "How Technology Changes Society" Annals of the American Academy of Political and Science, Junnary 1947.

36- PARK, R.E. and BURGESS, E.: "Introduction to the Science of Sociology" University of Chicago Press Chicago, 1921.

37- PARSONS, T.: "Evoluation and Objectivity in Social Science: an interpretatio of Max Weber's Controbation" International Social Science Jornal, Unesco, Volume VII, 1965.

38- PARSONS, T.: "The Social System" The Free Press Glencoe 111., 1951.

39- Parsons, T.: The System of Modern Societies" Prentic- Hall, Englewood Cliffs, New- Jersy, 1971.

40- Parsons, T.: "Some Problems of General Theory in Sociology" in J.C. McKinney and EA.. Tiryakian (eds) Theoretical Sociology, Perspective and Developments. Appleton Century Crofts. New- York, 1970.

41- REYNOLDS, P.D.: "A Primer in Theory Construction" Bobbs- Merrill, Indianapolis, 1971.

42- RIESMAN, D.: "The Lonely Crowed" Yale University Press, New Haven, 1961.

43- SPENCER, HERBERT: "The Principles of Sociology" D. Appleton and Co., New York, 1898.

44- SuMNEr, W.C.: "Folkways" Ginnand Com. Boston, U.S. A.

45- TIMASHEFF, N.S.: "Sociological Theory, Its Natur and Growth, 3ed, Randm House, New York, 1967.

46- TIRYAKIAN, E.A.: "Structural Sociology" in McKinney and Tiryakian (eds.), Theoretical Sociology. Perespectives and Developments" Appleton Century Crofts, New York, 1970.

47- TOENNIES, F.: "Community and Society "Gemeins- chaft und Gesellschaft" trans. by Charles, P. Looms, Michigan state University Press, 1957.

48- WEBER, MAX: "Basic Concept in Sociology" Peler Owen, London, 1962.

49- WEBER, MAX: "The Theory of Social Economic Organization" trans. by A.M. Henderson and Tallcot Parsons, ed. Parsons. Glencoe Ill., The Free Press, 1947.

50- WEBER, MAX: "The Theory of Social and Economic Organization" trans. by Henderson and Parsons, Glencoe, Free Press, 1947.

51- WILLER, D.: "Scientific Sociology, Theory and Method Prentic-Hall Englewood Cliffs, New Jersy, 1967.

52- WOLFF, K.H. (ed. and trans): "The Sociology of George Simmel," Free Press, New York 1950.

53- ZETTERBERG, HANS, L.: "Social Theory and Social Practice" Totowa, New Jersy, Bedminster Press, 1963.

محتويات الكتاب

الموضوع — الصفحة

مقدمة ٥

الفصل الأول: في معنى النظرية
(٩ - ٣٥)

- النظرية والواقع ١١
- تعريف النظرية ١٣
- بناء النظرية ١٨
- صفات النظرية ٢٢
- أنماط النظرية ٢٧
- ظروف التنظير ٣١

الفصل الثاني: النظريات العضوية والبنائية الوظيفية
(٣٧ - ٩٩)

أولا: النظريات العضوية -الظروف الاجتماعية ٣٩

أوجست كونت (طبيعي) ٤١

هربرت سبنسر (طبيعي) ٥١

اميل دوركيم (نسقي) ٥٨

فرديناند تونيز (نسقي) ٦٧

ثانيًا: الوظيفية البنائية: ٧٣

تالكوت بارسونز (طبيعي) ٧٥

ولتر بكلي (طبيعي) ٨٣

ادوارد ترياكيان (نسقي) ٨٧
تحليل: ٩٠

الفصل الثالث: نظريات الصراع

(٩١ - ١٣٨)

أولا: نظريات الصراع الكلاسيكية ٩٣
كارل ماركس (نسقي) ٩٦
روبرت بارك (نسقي) ١٠٥
فلفريدو باريتو (طبيعي) ١٠٩
ثورشتين فيلن (طبيعي) ١١٤
ثانيًا: نظريات الصراع المعاصرة: ١١٨
تشارلز رايت ميلز (نسقي) ١٢٠
رالف داهرندورف (نسقي) ١٢٤
دافيد ريسمان (طبيعي) ١٢٩
لويس كوزر (طبيعي) ١٣٣

الفصل الرابع: السلوكيون الاجتماعيون

(١٣٩ - ١٩٣)

أولا: السلوكيون الأوائل: ١٤١
ماكس فيبر (نسقي) ١٤٣
جورج ميد (نسقي) ١٦٧
جورج سمل (طبيعي) ١٧١
وليم سمنر (طبيعي) ١٧٣
ثانيًا: السلوكيون المعاصرون: ١٧٨
هربرت بلومر (نسقي) ١٨٠

ارفنج جوفمان (نسقى) ١٨٣
هارولد جارفنكل (طبيعى) ١٨٧
بيتر بلاو (طبيعى) ١٩١

الفصل الخامس: نماذج لنقد النظريات

(١٩٥ - ٢٢١)

النموذج الأول: نظرية التخلف الثقافى ونقدها ١٩٧
نظرية أوجبرن ١٩٧
نظرية بارتز ٢٠٠
نظرية بارسونز ٢٠٤
نظرية ميرل ٢٠٧
نظرية ماكيفر ٢٠٩
نقد نظرية التخلف الثقافى ٢١٢
النموذج الثانى: النظريات الحتمية ونقدها ٢٢٥
- المراجع العربية ٢٣٢
- المراجع الأجنبية ٢٣٣
- محتويات الكتاب ٢٣٧

***




سور
الأزبكية